الجواهري، شعراء، ومدن

ماثرك الشاعر للريح

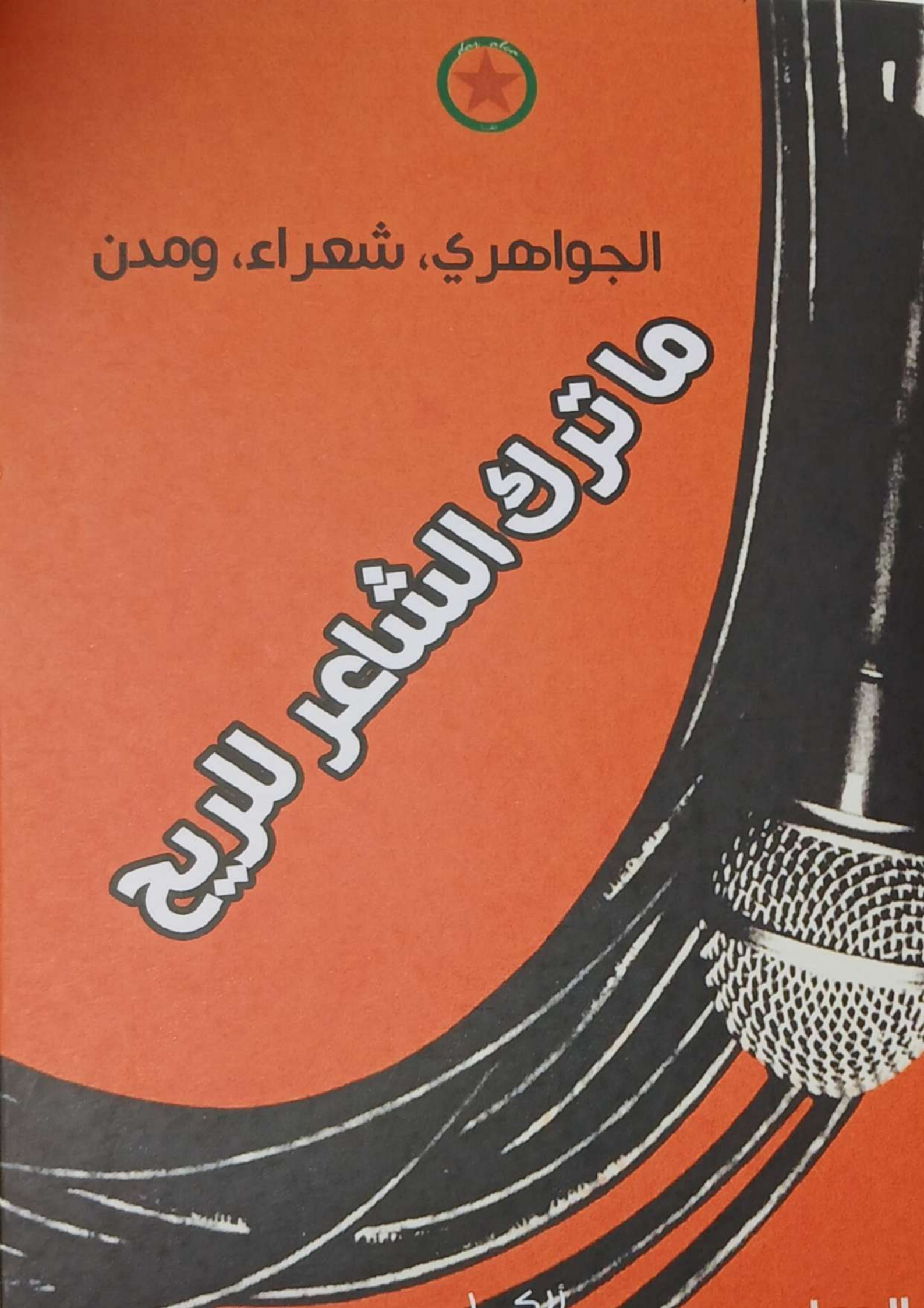

الجواهري ..
وعيٌ على ذكرياتي
الكتاب الثاني

وطيفُ العذارى إذا الليل جا فلاح الجواهري – معرض الارق

فلاح الجواهري

الجواهري ..
وعيٌ على ذكرياتي
(الكتاب الثاني)

الى النخبة الرائعة ممن حفل بهم هذا الكتاب الذين وضعوا سويداء قلوبهم محبة ، ومشوا في المسار العسير ، ليقدموا اقلامهم المضيئة وضمائرهم الحية ومواقفهم الامينة بل وحياتهم قربانا لوطن خير جميل

دمشق جبهة المجد صفحة ؟
1- رشيد ياسين صفحة ؟
2- أنا العراق صفحة ؟
3- محمود البريكان صفحة؟
غائب طعمة فرمان صفحة ؟
1-لقاء في حلوان صفحة ؟
2-لقاءات في موسكو صفحة ؟
الجيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن صفحة
شخوص ومطبات في إذاعة موسكو صفحة ؟
1-نجيب سرور صفحة ؟
2-مسرور كتانة (اليهودي التائه) صفحة ؟
3-رسالة لم ولن تصل الى يوسف العاني صفحة ؟
ثلاث رسائل من الجواهري صفحة
1-خالد محي الدين صفحة؟
2-الرحلة صفحة ؟
3-التجاني الماحي صفحة ؟
4-محمد احمد محجوب صفحة ؟
ضياع في الخرطوم صفحة ؟
الجنة والجحيم صفحة
حييتُ سفحكِ عن قربٍ صفحة ؟
حبٌ في البصرة (1) صفحة؟
حبٌ في البصرة (2) صفحة ؟
(3) حبٌ للبصرة صفحة؟

دمشق .." جبهة المَجدْ "

1 - رشيد ياسين

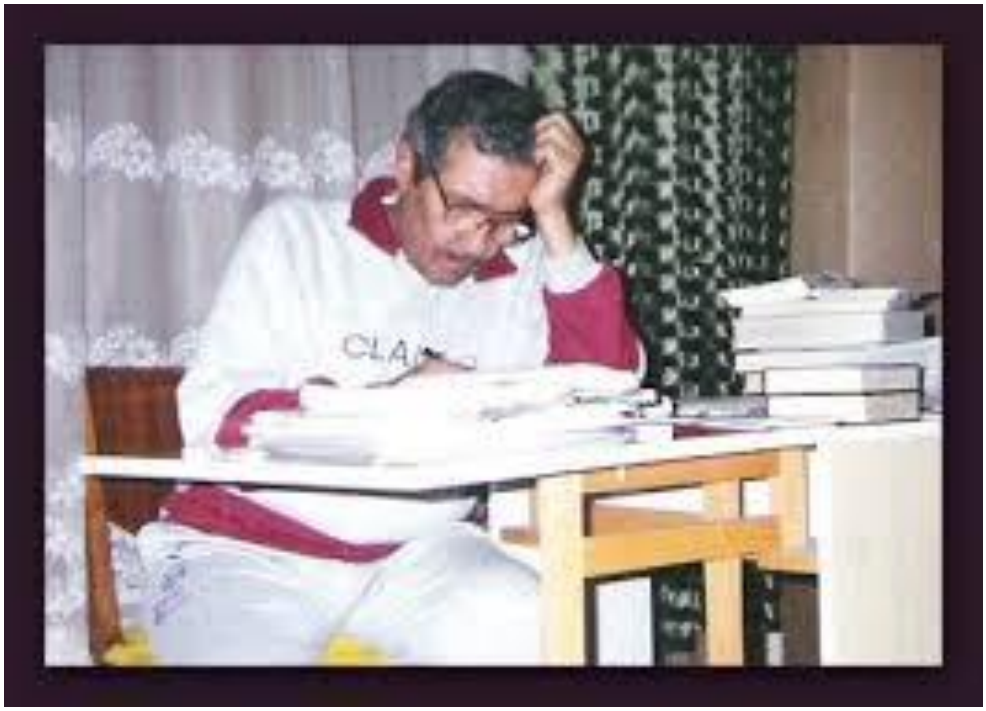

اسدل الليل ستائره وزهت دمشق باضوائها ، وتلألئت نجوم قاسيون وحي الاكراد المعلقين في السماء ، وانا في زاويتي من ساحة مقهى المحافظة مع أحد الكتب الجامعية المقررة .
قدم رشيد .. سحب كرسياً قريبا وجلس قرب طاولتي ، وقبل ان أسأله عما يحب ان يشرب قال على عجل وبلهجة منفعلةً
- استمعْ الآن الى هذه القصيدة الثورية .. ابتدا بقرائتها وكأنه على خشبة مسرح . .يعلو صوته ملوّحاً بكفيه .. تتسع حدقتاه .. تجحظ عيناه .. وينهض عن كرسيه احيانا.. أتمّ القصيدة.. وبين التهكم والجد عقّب بقوله :
- لقد ألقيتُ هذه القصيدة في حشود المتظاهرين ببغداد ، ومنذ ذلك الحين والشرطة والمخبرين بدأوا بتعقبي هناك ، واصبحت مواقف الشعبة الخاصة سكني الثاني ، حتى تسنى لي الهرب والقدوم الى دمشق .. صمت برهة ليسالني بنفس اللهجة المسرحية الساخرة :
- ما رايك بهذه القصة المدعومة بالقصيدة الغاضبة لاتقدم بها الى السلطات السورية لطلب اللجوء ؟
- ولكنهم سيعرفون يا رشيد ، انك كنت في اطراف اللاذقية تمارس التعليم للمرحلة الابتدائية قبل أن تفصل او لنقل يستغنى عن خدماتك هناك .
- من سيعرف عن مدرسة صغيرة في قرية نائية .. ثم إن موضوع اللجوء ستحسمه السلطات العسكرية لا وزارة التربية .. أنت تعلم اني بأمس الحاجة الى الخمسة والسبعين ليرة الممنوحة للاجئين العراقين ، اضف الى أن الاقامة الرسمية ستسهل فرصة افضل للبحث عن عمل .

خلال قرابة الشهر من معرفتي برشيد ياسين ولقاءاتنا العديدة ، وبالرغم من سرده للكثير من تفاصيل حياته الغرائبية في احياء بغداد القديمة ، كان يتحاشى التطرق الى فترة تواجده في قرية قرب اللاذقية او عمله في التعليم هناك ،بل ويحوّل مسار الحديث لو اقترب من تلك الفترة
، حتى حين استمرت علاقة الصداقة ، التي اصبحت متينة في الاشهر بل والسنين التي تلتها .

كنت اتابع حياته - الغجرية – الصعبة في دمشق آنذاك ، من النوم على الكنبة الممزقة في الغرفة الصغيرة في احدى الصحف التي يقوم بمراجعة وتصحيح بعض مواضيعها قبل النشر ، الى الاستدانة غير مأمولة التسديد لما يسد الرمق ، الى وسيلة للحصول على علب السجائرمن هذا او ذاك ولن اقول من الاصدقاء إن كان له اصدقاء ، فلم أر ايا منهم آنذاك ..
لقد كان صعب الطباع ، بل وعدوانيا في كثير من الاحيان لمن يخالفه الرأي ، وكثيرا ما كنت أسأل من هذا العراقي او ذاك ، عن صبري على تحمل صداقته .. الغريب انه لم يدخل معي في اي موقف صدامي ، رغم انفعالاته الصاخبة في نقاشاتنا العديدة والتي لا يبقي فيها على أحد سليم الذكر .

لم تكن تسمح ضروفي آنذاك ، وانا أذوب خجلا من تلقي مصروفي الاسبوعي الجامعي من الجواهري مفرط السخاء ، أن أمد يد العون ، ولكن أن تنتقل احدى بطانيات الدار او وسادته الى كنبته الممزقة ، أو أن اضع على كتفيه معطفي في يوم قارس البرودة ، وهو هدية غالية من بلاسم الياسين (الاقطاعي الكبير) حين قدم الى لندن

أنا خصمُ الاقطاع والادقاعِ
وكثيرٌ في ذلـكُم اتباعي

وغريـبٌ جمُ البداعـةِ ..
.. والايام تأتي غرائـب الابداع

أن يقينـي شـرَّ احتيـاجي
الى الادنيـن ..
" شيـخٌ " في ذروة الاقطاعِ

.. أو ان نشترك انا ورشيد في صحن فول اوطعمية وان أدفع حساب الشاي في أحد مقاهي دمشق فهذا قد كان من مستطاعي .

.. تم قبول طلب لجوء رشيد ، وكانت اول بوادر خيره ، ان يعين بوظيفته المسائية في التصحيح والمراجعة بشكل رسمي ، في نفس الصحيفة التي ينام فوق كنبتها وبراتب شهري قدره ثمانون ليرة .
بدات النضارة والابتسامة النزرة تعود الى الوجه الاسمر المتجهم .. اخيرا استبدلت سترته المهلهلة بواحدة تكاد تكون أنيقة .. كثر تردده على المقهى لا لاحتساء الشاي، بل وعصير البرتقال الطازج من كيسه الخاص .. بدأ رشيد برد الدعوة على الجلسة في المقهى بجلسة مماثلة في اليوم الذي يليه .

.. اصبح في إمكانية الجواهري ، بعد حصول رشيد على اللجوء والاقامة ، على الاستجابة الى رجاءي في مفاتحة رئيس تحرير مجلة الجندي ، التي يشرف الجواهري على موادها ، لتعيينه بوظيفة ما في المجلة ، واستجاب الأديب الشهم (نخلة كلاس) الى الطلب فوراً وطلب مقابلة رشيد ، الذي يتحول دائما في مثل المواقف هذه الى أرق شخص واكثرهم مرونة وسلاسة .
.. تم تعيينه بوظيفة المراجعة والتصحيح وبراتب جيد آنذاك وهو مائة وخمسون ليرة .
وكانت جلسة احتفالية قي كازينو (شلالات ابو زاد) بضواحي دمشق ، ومع العرق الزحلاوي والمزة و(المشاوي) وبصحبة الصديق الشاعر مجيد الراضي ، القادم

من العراق لاداء امتحاناته الخارجية في كلية الآداب بجامعة دمشق (لاحقا تكررت الاحتفالات في نفس المكان مع قدوم مجيد ورسوبه او نجاحه في الامتحانات اللاحقة) .

.. هاهو الآن يسكن في غرفة وسيعة مع احدى العائلات ، التي تؤجر بعض غرفها –آنذاك- الى افراد من الطلبة او صغار الموظفين او السائحين .. رشيد يتانق في ملبسه ، ويرتاد مطاعم لطيفة في وجبة غدائه ، وتظل اكشاك الفول والطعمية لجولاتنا المسائية في المهاجرين او ساحة المرجة او عند ناصية مقهى ابو كمال المطل من رابيته على بردى .
.. نتجرأ ونرتاد مقهى الكاردينيا الارستقراطية بل ويطلب رشيد الكاتوه مع القهوة ، ثم لنعرج بعدها على السينما الفخمة المجاورة لنشاهد فلم يوليسيس .. نخرج عند منتصف الليل لنسير باتجاه معرض دمشق الدولي .. صاحبي يترنم بصوته العذب اغنية لعبد الحليم التي يحفظ كل اغانيه .. نتوجه الى شارع ابو رمانة وتطل علينا نجوم سفوح قاسيون
.. هو في ذروة الانشراح .. يقف على رصيف الشارع الانيق.. يتكأ على جذع احد اشجار زينة جوز الهند وينشد كما في حلم :

وعندما تلوحْ في الليلِ
آلافُ المصابيحِ
على السفوحْ
كأنها كواكبٌ
تسبحُ في الفضاءْ
أحسُ يادمشقْ
انكِ قطعـةٌ من السماءْ.

.. ينتهي من تخطيطاته بالقلم دون حركةوانا اجلس امامه لعشرين دقيقة ويعرض بورتريت
رسام مقتدر كثير الشبه بي
- اذاً انت رسام ايضا ؟!
.. من صندوق حقيبة معدنية يخرج بضعة انابيب الوان زيتية واحجام فرش مختلفة ويسلمها لي
- انت تحتاجها اكثر مني الآن

.. يختطف من يدي في المساء لوحتين مائيتين كانتا عند محل للتأطير وينظر اليهما بانبهار..
- متى رسمتهما .. اليستْ هذه سفوح (بلودان) ؟
.. يرفض تسليم اللوحتين الي ويسرع بي رغم احتجاجي الى مقهى ابو كمال حيث

ينتحي هناك جانبا ، رجل في مطلع الثلاثينات ، كث الشعر سمح الوجه بسيط الملبس ..
.. يقدمني اليه ، فيمد كفه مصافحا بترحاب ومودّة
- هذا يا عزيزي هو فاتح المدرس .. هذا هو سيد الرسم الرفيع .
- كم سمعت بك وكم تابعت اعمالك الجميلة استاذ فاتح .. لقد سعدت وتشرفت بمعرفتك ، وانا اشكر صديقي رشيد على هذه الفرصة المتاحة .
- اريد رأيك أخي فاتح بهاتين اللوحتين لرسام عراقي ، واخرج رشيد اللوحتين ..
- لابد ان من رسمهما ، فنان مقتدر ، فاللوحة المائية تحتاج الى مهارة وزخم عاطفي يتفجر بدقائق .
- اخي العزيز ، انه هذا الشاب اليافع الذي امامك ..
.. حل الظلام ، وتلامعت اشرطة الاضواء الملونة المنعكسة من معرض دمشق الدولي فوق مرآة بردى العاتمة .

.. كان رشيد يقف عند بوابة الدار في انتظار قدومي ، مكفهر الوجه ، غضوبا حزينا ، مطرق الرأس .. صمتّ لبرهة قبل ان يتحشرج صوته ويخرج كالهمهمة المتكسرة
- هل سمعت الاخبار .. ياللمجرمين السفلة
- بالطبع .. فقد كنا ساهرين مع الراديو لفترة متأخرة ، والجواهري يذرع صالة البيت ذهابا وايابا ، ثم صمت كل من في الدار وانسحب الجميع الى احدى غرفة الاستقبال ، فقد بدا الجواهري يدندن ، وبعد قليل وضحت كلمات :
.. " يا معدن الخسة من تقاتلوا .. " .. " يا معدن الخسةِ من تقاتلوا .. "
.. " وفوقَ منْ تساقطُ القنابل .. " .. " يا معدن الخسة من تقاتلوا .. ومن .."
وبدا الحدو واستمر الى قرابة الفجر

يا مَعدِنَ الخسة من تقاتلُ
وفوق مَن تساقطُ القنابلُ

أأصيداً يذودُ عن اوطانهِ
أم حرةٌ عن عِرضها تناضلُ

أم هُم عجوزٌ ترتمي .. وصبيةٌ
ومُقعدٌ .. ومرضعٌ وحاملُ

" كنانة الله.." اسلمي إن المُنى
دونكِ لغوٌ .. والحياة باطلُ

" كنانة الله " سيجلو عاصفٌ
ويمـّحي ضرٌ .. ويُثنى واغلُ

تسعون مليوناً عليك فائتٌ
يعطفها.. وحاضرٌ.. وقابل

مرت بها ألفٌ يلوك لحمها
ذلٌ ويبري عظمها تواكل

ما عَقُمتْ يوماً ولكن حرّةٌ
تخطّفت وليدها القوابل

حتى إذا تمخضت عن ماردٍ
تعجزُ أن تنقُصه الحبائل

حتى إذا إنشقَ جمالٌ عن ثرىً
يَبسٍ فرقـّتْ فوقه الخمائل

حتى إذا الصقرُ تمطـّى مُغضَباً
تخافُ منه الغيلـةُ الغوائل

تجمـّع البغيُ مَغيظـاً تغتلي
فيهِ على الوعي أغتلى مراجل

واصطرع الباطلُ وهو فارسٌ
مدججٌ .. والحقّ ُ وهو راجل

علا صوت رشيد منفعلا :
- انهم يناشدون الجماهير لحمل السلاح ودحر غزاة العدوان الثلاثي .. هيا بنا الى السفارة المصرية لتسجيل اسماءنا كمتطوعين ، قبل ان تصخب شوارع دشق بمظاهرات الغضب .

قابلنا هناك مسؤول العلاقات في السفارة ، طالبين ترخيصا بالسفر فورا كمتطوعين ، وفي جلسة قصيرة وبادب جم وترحاب تمكن من تهدئة انفعلاتنا ، وشكرنا مطمئنا أنهم ليسوا بحاجة في الوقت الراهن الى حمّلة السلاح ، فالجبهة تكتض بالمتطوعين المصريين ، وسجل اسمينا وعنوانينا شاكرا ، واعداً الاتصال بنا حين تحكم الضرورة .

أهتزت دمشق واكتضت شوارعها بالمتظاهرين الغاضبين ، طالبين من الدولة في هتافاتهم تجنيدهم وارسالهم الى القناة ، وبتدخلها العسكري لدعم الجيش المصري .. استمر هدير المتظاهرين ولم تهدأ شوارع دمشق حتى ساعة متأخرة من الليل .

تكررت امسيات مقهى ابو كمال ، وتوسعت الجلسة بازدياد معارف رشيد وهم جميعهم من السوريين من المتعاملين مع الصحافة او التصوير او من العاملين في الاذاعة ..
.. الجلسات دائما حول طاولة فاتح المدرس ، وحول احاديثه الغرائبية الشيقة عن الرسم والحدث السياسي
.. بمبادرة أحد الجالسين في االاستفسار ، وغالبا ما يكون رشيد :
" هل من نتاج جديد في القصة ؟
.. يخرج فاتح من محفظته الجلدية بضعة اوراق
.. يبدء في قراءة قصة قصيرة او مقاطع منها .
..يغيب فاتح اثناء القراءة عمن هم معه ..
.. يسرح في عوالم احداثها ، حتى لتخال انه يتحدث مع نفسه او مع اشخاص آخرين غير منظورين .
..أتأمله وقد انعزلتُ ، وسِحتُ بعيدا أنا الآخر عن الحاضرين
.. أهذا الذي امامي نموذج لانسان طبيعي ، أم أن به مسّاً ؟!
.. اهو ذات الشخص، الذي كان قبل دقائق يتحدث بهدوء وأناة عن مشاغل الناس والحدث الفني ، ويلقي نكاته ويراقب استجاباتهم لحديثه ..
.. أبتسمُ جذلا حين اصحو من ثوان انقطاعاتي وسرحاني
.. وأهل يكون فاتح الرسام والكاتب المبدع لو لم تتلبسه هذه الحالة ؟!

* * *

.. المظاهرات تعم شوارع بغداد والبصرة احتجاجا على مؤامرات حلف بغداد وضد الاوضاع (الاستبدادية) .
..يسقط هناك عدد كبير من المصابين خلال صداماتهم مع الشرطة ، وتكتض المعتقلات بالموقوفين :
.. أُدعى وبعض الزملاء الجامعيين لندوة اذاعية تشجب مايجري في العراق
.. الكل يعطي اسماً مستعارا حين يأتي دوره امام المايكروفون في التنديد
.. يفاجأ المشرف الاذاعي عن الندوة حين يأتي دوري وانا اذكر عبر المايكروفون ،ومع تشديدي على احرف الكلمات، اسمي الصريح (فلاح محمد مهدي الجواهري) ..

..حين نجتمع في جلستنا المسائية حول مائدة فاتح ، يخرج رشيد وريقتين ينظر الى الاخرين منتظراً برهة من الزمن .
.. يصمت الصحب .
.. يتعالى شيئا فشيئا ، صوته العميق الحزين :

بغدادُ يا بلـدَ الكفاحْ
يا قصـةً
صفحاتها نورُ
وأحرفها جِـراحْ

يا موطني النائي الحبيبْ
يا ارض اجدادي التي
أُقصيتُ عنها كالغريب

قلبي يمزقه الحنينْ
الى ثراكِ المستباحْ
كالطير أقصتهُ الرياحْ
ورمتهُ مقصوصَ الجناحْ

بغدادْ
هل يُـرضى لمثتلـكِ
ان تكونْ
أَمَــةً تُـضامُ
وتستغلُ
كما يشاءُ الغاصبونْ:
أَمَـة لتجار الرقيقْ

أهوى شبابـكِ
خلف قضبانِ السجـونْ
أهوى عيونهمُ المضيئـةُ
وهي تبسِمُ للصعـابْ
وترى شعاعَ الفجرِ
من خَـلـلِ البنـادقِ والحرابْ

اني لأسمعهمْ أزائـيَ
ينشدونْ
" السجـنُ ليس لمثلنا
نحـنُ ألأبـاةْ
هو للاذلاءِ الطغـاةْ "

أهوى الجماهيرَ الغفيرةَ

وهي تقتـحـمُ الحصونْ
كالسيـلِ هـادرةً
وتجارُ الخيانةِ يرجفونْ
فَـزعاً منَ الحـقـدِ الكبيرْ
كعناكـبٍ غمـرَ الـلـهـيـبْ
خـيوطَ مسكنها الحقيرْ

كان اللهيب يتصاعد من تقاطيع وجهه ومن اطراف اصابعه تهرب العناكب .
.. حل صمت وانقطعت اصوات ضجيج المقهى واصداء معرض دمشق عن آذان الجالسين ، واطرق فاتح لفترة غير قصيرة

أنقطعتُ لفترات عن لقاءات المقهى ، فقد شح الوقت وأنا أتدبر أمر مصاريفي الجامعية من عمل اقوم به بين ساعات المحاضرات .
.. أُعيد المظروف الدوري الذي يضعه الجواهري فوق طاولة غرفتي الصغيرة تغطيةً لمصاريفي الجامعية شاكرا .. أقبل يده وخده .
.. بابتسامة اخبره بان لي وظيفة محترمة : مدرس محاضر لطالبات (مدرسة النجاح الاهلية للمرحلة المتوسطة)
- والجامعة .. والطب والمحاضرات ؟ يتساءل الجواهري
- لقد رتّبتْ ادارة المدرسة جدولا للصف يتوافق والساعات الحرة بين المحاضراتالجامعية .
.. اربعة ساعات للرياضيات في الاسبوع ومثلها للفيزياء .
- أنت وعشرين صبية سورية جميلة في الصف.. كيف تدبر أمرك .. عشرين صبية يا ملعون .. عشرين غادة حسناء سورية .. سورية يافعة ! يلعن دينك !!! .. ألم يحاولوا ايقاعك في شباكهم ؟
- الحق في اليومين الاولين نعم ، بل لقد ضيقوا علي الحناق في الفرصة بين حصتين في الزاوية المحصورة بين باب الصف والسلم ..
.. "أستاذ سؤال !! .. استاذ سؤال !! .. تقبرني أستاذ سؤال !!
..لم ينقذني من هذا الحصار إلا رؤية حشد الصبايا المحاصرين لي لاستاذ الجغرافيا المتجهم وهو يرتقي السلم لحصته المقررة .
- بالله عليك ألستم بحاجة الى استاذ للعربية .. او حتى مساعد له .. قالها الجواهري وابتسامة عريضة تسبح على وجهه وهو يهز براسه وتلتمع عيناه بجذل ساخر ..

.. استدار وهو يدندن ويهز يده متوجهاً الى صالة الاستقبال حيث ركنه الذي لا يتبدل في زاويتها .
.. يبدو ان استمرار مرحه هذا في تلك الامسية وروح الانطلاقة الساخر ، كادت تودي الى كارثة ..

.. اسمع صرخة رعب واستغاثة في المساء ..
-" يا يمه ! .. يا يمه! ".. " النار ..النار .. النار طفيها ".. "شده تسوي يا رجال "
صوت أم نجاح يعلو بلوعة واستنجاد وغضب .
.. شده تسوي ؟.. لعبة هي ؟!.. النار لعبة؟! .. ماراح تبطل من سوالفك ! .. مو كبرتْ يارجّال .. ده تصغرْ لو دتكبرْ؟! ، شوفْ شوفْ بالمرايةْ ، شوفْ شيباتكْ اللي احترقن ..
.. إهدهْ يا رجّال .. أُكعدْ ! لا تتحركْ ! خليني أمسحْ لكْ وجهك من السخام وأنظف شعرك المعطّبْ ..أُكعد !!

أنا ونجاح والصغيرتان ظلال وخيال نقف عند عتبة باب غرفة النوم المليئة بالدخان ..
.. الجواهري يجلس على المقعد ، جلسة تلميذ مشاكس مجبر على الطاعة لحين .
.. تعلو وجهه المبقع بالسخام ابتسامة مشاكسة ..أم نجاح تمسح الوجه المعفر بقطعة مبلولة .. تبدء بعدها بقص بقايا الشعر المعطّب وما حواليه ..
- موْ كافي يارجّال ، كل يوم وعندكْ سالفةْ .. كل يومْ وموكّع كَلوبنا.. همْ هذه لعبْ سياسةْ ؟!.. هم هذه شِعر تلعب بيه بالكلماتْ وتسفّطْ بيهنْ على مزاجكْ ؟! .. بعدْ كافي لعبْ !!
.. يجلس التلميذ المشاكس وعيناه تدوران هنا وهناك بعبث ..
.. " هووووه " .."هووووه" صرخ فجأة مُفزعا أم نجاح بمرح
..يمد يده فجأة ممسكاً بخصرها مدغدغا ..

ضحكت أم نجاح ، مبتعدة عنه وضحكنا ..
.. بعدها باقل من نصف ساعة ،كانت جلستنا العائلية المرحة حول منقلة الشاي ، ولفات الخبز وكباب العروق بايدينا ، واستمرت جلستنا حتى نهض الجواهري واخذ يذرع الغرفة من حولنا ، وبسهوم والابتسامة لا تغيب عن محياه ، بدأ يدندن ..
.. فتح باب غرفة النوم التي كنا فيها ، واغلقها من بعده ..
.. بدأت الدندنة تتحول الى همهمة ..
.. تاتي الكلمات المتقطعة من صالة الضيوف ..
..تتوضح شيئا فشيئا
" إنَّ عُرسي وهي جامحةُ .. فَجّةٌ .." .. إنَّ عُرسي وهي جامحةٌ فجةٌ .."

..بدأ الحدو والترنم المتناوب يتناسق
.. الصوت اصبح عميقا دافئا عذباً
.. أُدخلْ نجاح والطفلتين ظلال وخيال الى غرفة نومهم
..أضع سبابتي على فمي مبتسماً
- هسسْ! .. ناموا .. بلا صوتْ .. صارْ ؟؟

يدخلون تحت اغطيتهم مبتسمين .. ينظر احدهم الى الآخر ويهمسون بمرح لبعضهم وسباباتهم على شفاهم المنفرجة :
- هسس!
.. أغلق عليهم الباب بعد اطفاء الضوء .
.. ابدأ بالخطو الدائري في باحة البيت الصغيرة ، متوقفا لبرهات ، تتزايد الى دقائق
.. اتنصت من خلف باب الصالة للحدو البدوي المنغم

إن عُرسي وهي جامحةٌ
فجّــةٌ .. لونٌ من الادبِ

جاءتْ الكانونَ توقدهُ
وبه جَزلٌ من الخشبِ

فوق بعضٍ بعضُها ، طبقاً
لائذاتٍ صُنعَ مُرتعبِ

خفنَ فاستسلمنَ عن فزعٍ
للمنايا .. شّرُ مُرتَقبِ

ومشى بردُ الرمادِ بها
كتمشي الموتِ في الرُّكبِ

خِلتُها والعودُ يلمِسُها
تُثقِلُ " الكبريتَ" بالعتبِ

فتأبّت ، ثمّةَ أرتعدتْ
ثم أقعتْ ، ثم لم تثِبِ

قلتُ أذكي –ويكِ- جَذوتَها
واريحيها من التعبِ

أطعميها الزيتَ يمشِ بها
مِشيةَ الكُفرانِ في السّغَب

فاستعتاذتْ وهي قائلةٌ :
ليس هذا " الجّدُ " من لعبي

قلتُ هاتيهِ.. وثارَ لها
ضَرمّ كالبرقِ في السحبِ

شبّ في مبيّضِ سالفتي
فكأني بعدُ لمْ أشِبِ

فأتى وجهي فلطّخهُ
كخليطِ البُسرِ والرُّطبِ

ومشتْ عُرسي لتسعفني
وكما تَهوى لتشمَتَ بي

هتفت : بئستْ مغامرةٌ
يا أبنَ خمسينٍ .. أأنتَ صبي

اوما تنفكُّ محتضناً
لعبةً .. من هذه اللعبِ

راحَ في حرفٍ يزخّرِفهُ
وهو عن شيءٍ سواه غبي

قلتُ يا هذي لو إخترمتْ
مَفرقي شقين لم أثُبِ

أنا ذا من اربعينٍ خَلتْ
أُطعِمُ النيرانَ باللهبِ

فاذا خَفّتْ وضعتُ لها
خَيرَ لحمي موضعَ الحطبِ

أُشعلُ النيرانَ لا رغباً
واصاليها بلا رهبِ

غيرَ علمي انها سببٌ
لحياةٍ .. أيما سببِ

2 - " أنا العراق ! "

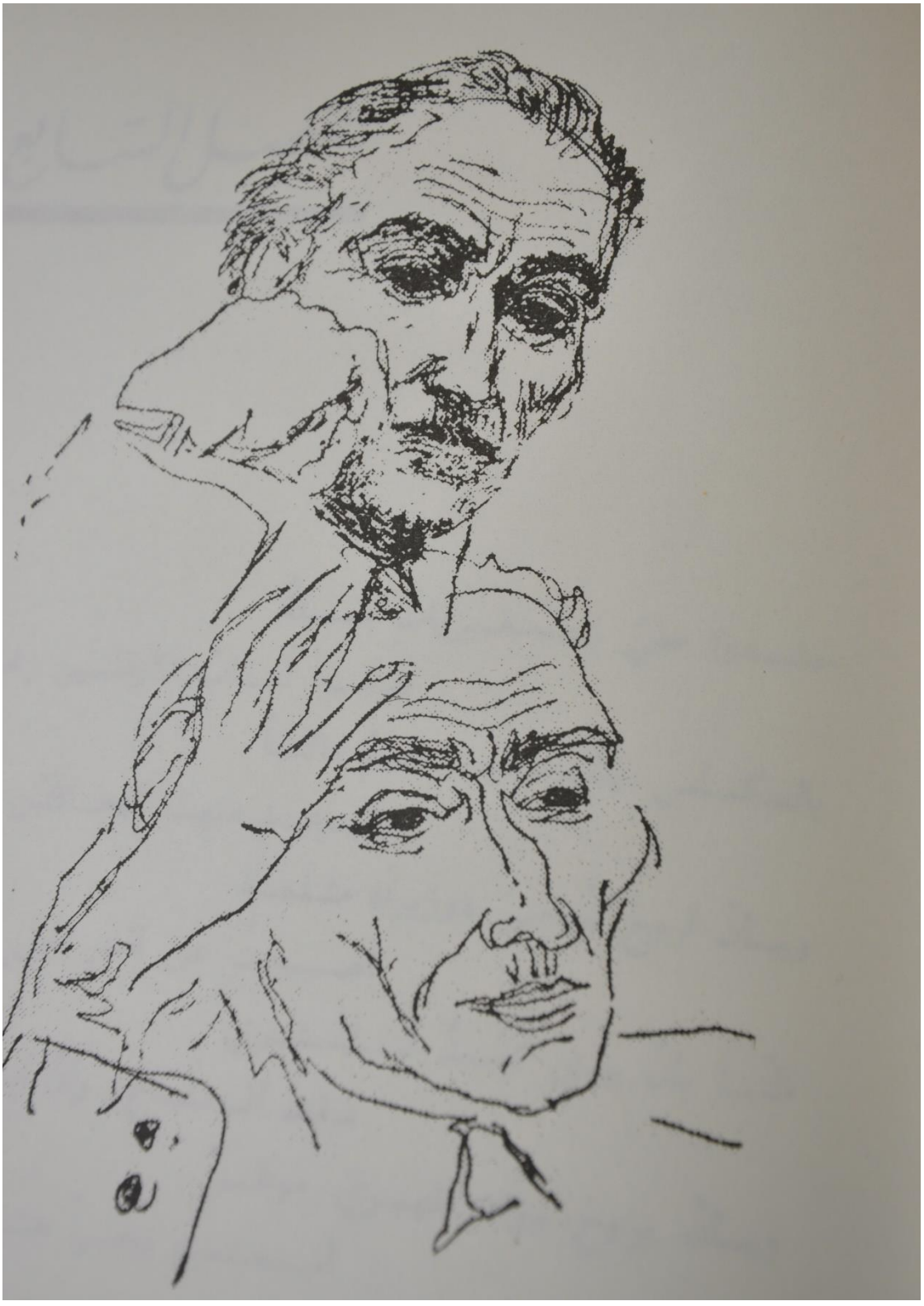

الثلج يغطي الكون كله..السماء والشوارع والازقة الضيقة وارصفة المحطات والحدائق بمصاطبها واشجارها ..البرد قارس والظلام رغم المصابيح النعسانة يسبح هنا وهناك في الزوايا وعند مداخل المحلات المغلقة وانا احمل حقيبتي ، اترنح ساحبا قدميّ لا اعرف اين اتوجه..انتهت مدة الانذار الممنوحة لي من قبل ربة البيت بمغادرة سكني لديها فهي تخاف من ان وجودي فيه اغواء لابنتها الشابة والتي عقدت آمالا عليها وعلى خطيبها الايرلندي ذو الوظيفة الثابتة ذات الدخل المعقول .
من قال ان الجحيم هو النار..الجحيم هو الثلج ، هو هذا البياض المقيت الميّت المميت .
- لا اريد ان اغامر بمستقبل ابنتي .. ها قد انتهت مدة الانذاربالاخلاء وعليك المغادرة وبلا اي تاخير .
.. لم تنفع محاولاتي باقناعها بأن اغادر صبيحة اليوم التالي .
ها قد لاحت خيوط تباشير الفجر والثلج يغطي السماء وكل معالم الارض المكشوفة السقوف والازقة وكل المصاطب التي تصلح للاستلقاء وحتى مداخل المحلات الظليلة قد زحفت فوق ارضيتها السنة الثلج الجهنمية فلا مكان فيها للقرفصة والاتكاء على ابواب المحلات المغلقة .
متعب نعسان جائع اسحب قدميّ بعناء حاملا حقيبتي الثقيلة ، دون وجهة معينة..
وجدت نفسي وقد وضح النهار، قريبا من مسكن تلك العائلة البولندية ، التي رفضتُ غرفتها الصغيرة العابقة برائحة الثوم والبصل وبمربعات الكارتون السادّة لاجزاء من زجاج نافذتها .. صناديق مرصوفة بديلا عن السرير ولكن بفراش واغطية نظيفة.. باوند واحد اسبوعيا فقط .. "لقد رفست نعمتك ايها الاحمق المغرور" .. أجد نفسي امام باب بيتهم من جديد .
.. تفتح السيدة البولندية الكهلة الباب..تميل براسها متأملة وجهي برهة لا اكثر..تسحبني من ذراعي دون كلمة واحدة وانا اتبعها كالممغنط، تاركاً حقيبتي في الثلج..تجلسني جوار المدفأة التي تأزّ نيرانها الملتهبة بنغم مطمئن..لايزال هناك بقية من عصيدة وجبة الافطار قرب المدفأة..تضعها وهي صامتة ساهية في وعاء وتقطع شرائح من رغيف خبز اسمر وتضعها امامي .
.. تأتي بحقيبتي من الخارج وتصعد بها..تعود فتسكب كوبا من الشاي وتضع شريحة خبز اخرى .
.. اصحو في المساء ، فأجد شابا خلاسيا يبحث في خزانة الحائط الخشبية والمح اكياس البصل والثوم .. يخرج فصوصا منها .. يتنبه الى صحوي .
- كنت اخالك لن تصحو حتى الصباح .. أنا راندولف زميلك في الغرفة.. أنا من ترينداد ..سأنزل قبلك فقد حان موعد وجبة العشاء..إن أجرهذه الوجبة زهيد ونحن نتناولها في الغالب مع رب البيت، أنه شخص طيب رغم تقطيبة وجهه، لقد أكل فحم المنجم نصف رئتيه ، لكنه يعمل الآن جابيا للتذاكر في باصات مصلحة الركاب ، بديلا عن الحفر في اعماق الارض..لقد رأفوا بحاله قبل مدة قصيرة .

..وجد لي راندولف عملاً في نفس المطعم الذي يشتغل فيه..اربعة ساعات في في غسل الصحون ليلا .
تحسنت اوضاعي ، فانا اتناول الآن وجبتين ، عصيدة الصباح مع قدح من الشاي وشريحتين من الخبز الاسمرومساءً الوجبة الثانية مع سلافيتش بعد عودته من عمله في المساء .
.. احيانا يدور نقاش بيننا..
.. سلافيتش يزمجر:
- لقد تعاونوا مع هتلر في احتلالنا .. لقد ذبحوا خيرة ضباطنا .
- دعايات رأسمالية لتشويه صورة الاتحاد السوفياتي العظيم
- الم تسمعوا في بلدكم ايران ، بمجزرة كاتين .. لقد ذبحوا أكثر من خمسة وعشرين الفا من خيرة شبابنا في غابة كاتين محل اعتقالهم ذبح النعاج ..
- اولا انا من العراق ، ثانيا واكرر انها اكاذيب الامبريالية بحق الاتحاد السوفياتي العظيم صديق الشعوب .
ينهض سلافيتش وقد احتقن وجهه واخذ يسعل وضرب المائدة بكفه بقوة كادت أن تقع من فوقها اكواب الشاي ، وبصوت مختنق شبيه بالحشرجة يصرخ :
- لقد وقفوا يتفرجون على مجنزرات هتلر وقنابله الحارقة وهي تبيد كتائب المقاومة البولندية التي نهضت الى العلن حاملة سلاح الثورة للتحرر ولمساعدة جيوش السوفييت الضخمة المتقدمة.. لقد وقفوا يتفرجون على المذابح والحرائق والخراب وهم على مبعدة كيلومترات معدودة ، وبعد ان صفّيت المقاومة دخلوا ..
- انها تخرصات ابواق الراسمالية الاستعمارية..سيبقى الاتحاد السوفيتي العظيم ..
- ألا تترك يا حبيبي سلافتش هذا الشاب المسكين وحاله..دعه يكمل وجبته ليذهب الى عمله .تدخلت ربة البيت مقاطعة وامسكت بذراع سلافتش مهدئة واجلسته على مقعده برقة ..
- هل تريدان قدحاً آخر من الشاي ؟

بعد اسبوعين وصلتني رسالة من الجواهري من دمشق ..
" ولدي الحبيب فلاح
أما يكفيك ضياعا ؟! إن لي صورة كاملة عن وضعك الآن، عن دراستك التي توقفت، عن حياة الفاقة والعوز التي تعيشها وعن الاعمال المرهقة المتدنية التي تتقوّت بها ، لقد تركت كلية الطب الزاهية في بغداد ، واحرقت الاخضر واليابس لتغادرنا .
أنا لا اعاتبك الآن ومن يدري ماستكون ضروفك وانا اغادر العراق الى الشام اغادر فتغادرون، اعود فتعودون. حملتكم معي في الصميم، وحمّلتكم ما في صميمي، واشركتكم بهذا الجحيم مرغمين من عذاباتي وشجوني وقلقي وثوراتي وغربتي وتغربي ، وبين الحين والاخر المتباعد بعضا من مسرة وومضة كاذبة من دعة البيت المستقر الدافيء.
لابد وانك سمعت وقرات عني وانا " اخلّف غاشية الخنوع ورائي " ، نعم خلّفتها غير ذي ندم ،وها نحن في ضيافة دمشق البهية . نحن في شقة مريحة في منطقة

السبكة في قلب الشام ومكانك جاهز فيها ينتظر قدومك لإن ايادي هذه الضيافة الكريمة لاتمتد للاسف الى انكلترا ولعلي لن اطلعك على جديد حين اقول أن الجامعة السورية من الجامعات العريقة واجواءها تناسبك تماما ، وقد تخرج من كلية الطب فيها زمرة من خيرة الاطباء الانسانيين المرموقين وهي المهنة الانسب الى مفاهيمك وطباعك وانا لا افهم حتى هذه اللحظة سبب رفضك لها وتمردك عليها في بغداد .
دعنا من الماضي فالمستقبل هنا واعِد ومبشّر .
بامكاني ارسال تكاليف سفر العودة ، فقط اخبرني اين ارسلها اليك .
الكل بشوق للقياك وبانتظار قدومك "
وجد لي صديقي خالد (خالد احمد زكي..الحالم الجيفاري المغدورلاحقا)، عملاً في معمل للبيرة في ضواحي لندن حيث يشتغل هو هناك وبراتب احسن مما اتقاضاه في غسل الصحون في ولفرهامتن .
انتقلت من جديد الى لندن ، ووجدت غرفة صغيرة عند عائلة يهودية في بيت متهالك في افقر احياء المدينة وبأجر زهيد..وبذلك استطعت ومن عملي المرهق ومن ساعات العمل الاضافية الليلية في تعبئة الشاحنات بصناديق البيرة، أن اوفر خلال شهرين اجور سفري ..ونش بحري عتيق عبر بي القناة الانكليزية ، قطار الى مرسيليا..وتحت سقف السماء فوق سطح سفينة من هناك-on deck-الى بيروت ثم بحافلة للركاب وصلت الى دمشق .

* * *

"..السفير على الخط مباشرة يقول لي:
انا مكلف بابلاغك أنك مدعو من قبل قيادة اركان الجيش السوري للمشاركة في تأبين (عدنان المالكي) ..تلا عليّ البرقية " نطلب اليك الاتصال بالسيد الجواهري لحمله على المشاركة في تأبين عدنان المالكي .."
ومع معرفتي بان العراق متهم بقتل عدنان المالكي وقتها ومعروف ايضا ان عدنان المالكي كان رئيس الشعبة الثالثة في الاركان السورية..كماكان رئيس تنظيم الضباط البعثيين في الجيش..ومعروف ايضا ماكان يحاك في العراق ضد سورية وضد توجهاتها وما كان يجري من خلافات سورية عراقية حول الاحلاف والمعاهدات وما كان يخطط له نوري السعيد من انقلابات تجيء باشخاص موالين له لتولي السلطة في دمشق كما هو الامر في المؤامرة التي حاكها لقتل (الشيشكلي).
مع معرفتي بكل ذلك وتقديري الوضع الدقيق والظرف الحرج ومغامرة السفر فقدكانت الحالة التي اعيشها والضيق الذي احياه ومعاناتي مع الزراعة وبحثي عن اللقمة الحلال ، كان ذلك كله كافياً لكي يدفعني الى ايجاد مخلص او مخرج، فكيف الحال وانا اعاني ذلك الجو السياسي المحموم بكل احكامه العرفية وكل معاهداته واحلافه .
.. في اليوم التالي اتصلت بـ(بهجت العطية) طالبا تحديد موعد لزيارته فقال ارحب بك كثيراً واذا اردت فهذه الساعة .
ذهبت اليه وصارحته بامر السفرة الى سورية وغرضها وقلت له

- يا ابا غسان..انا لا اريد التحايل ولا اللف والدوران وما اشبه الليلة بالبارحة ،هذه السفرة مشابهة لتلك التي كاشفتك بها عام 1948، والتي كانت تخص سفري الى بولونيا..انها الآن سفرة الى سورية وللمشاركة في تأبين المالكي، ولو كان غيري لقال انا ذاهب للاستجمام او الاصطياف..لكني لست ذلك الرجل الذي يحتال ولست انت عندي بالرجل الذي يحتال عليه..

-يا ابا فرات إن قضيتك وقضايا من هم في طبقتك بيد وزير الداخلية وانت تعرف سعيد قزاز وتعرف كم هو يحبك لذلك ارجو ان تمهلني الى الغد، قلت: بكل امتنان في اليوم الثاني..طرق الرجل الجرس وسلمني الجواز..

عدت الى البيت مبتهجاً فرحا..سرعان ما اتصلت بالسفير السوري لاقول له:

انا جاهز للسفر .

- يا للبشارة-قالها السفير- وكم نحن شاكرون، ولكن للاسف فان موعد الطائرة هوغداً قلت اعرف ذلك ولكني اعرف ايضا أن موعد سيارة نيرن الذاهبة الى دمشق هو اليوم

قال : صحيح..ولكنه بعد ساعة فقط

-هذا يكفي فانا جاهز وحقيبتي الصغيرة جاهزة والمهم لدي ان اسافر اليوم..

خلفت ورائي الزرع والضرع..والارض والماكينات، والحنطة والشعير بيد الناهبين وخلفت غاشية الخنوع كلها، خنوعي وخنوع الآخرين وخنوع البلد ورائي وذهبت " أقبسُ جمرةَ الشهداءِ".

في اليوم الموعود وكان عدد الحضور على مدرج جامعة دمشق لايقدر بعدد ولحسن حظي وسوء حظهم انني كنت آخر من سيعتلي المنبر ولست ادري كم من اللعنات انصبت على مسؤولي التنظيم وعلى الذين اطالوا خطاباتهم او عليّ وانا اعيد مقاطع قصيدتي،لأن معظم الحضور كان صائما ويريد ان يعود مهرولا الى بيته .

انني ولاول مرة في تأريخي الشعري اجد المدرج يضج بهتاف وتصفيق كبيرين، مطالبة باعادة الشطر الاول من مطلع القصيدة قبل اتمام البيت " خلفت غاشية الخنوع ورائي .." ومضت القصيدة شاقة طريقها الى قلوب هذا الحشد الكبير، حتى وصلت الى المورد المتوهج منها :

حاسبتُ نفسي والأناة تردها في معرض التصريح للايماءِ
بِيني لُعنتِ فلستُ منكِ وقد مشى فيكِ الخمول ولستِ من خلطائي
ماذا يميزك والسكوت قسيمة عن خانع ومهادن ومرائي
ابضعف الايمان يخدع نفسه من سن حب الموت للضعفاء
خلي النقاط على الحروف واوغلي في الجهر ما وسعت حروف هجاء
ما انت إذ لا تصدعين فواحشاً إلا كراضية عن الفحشاء

..وصاح الجمهور الحاشد برمته وبكلمة حلوة وباللهجة السورية الدارجة " ما بيرجع..ما بيرجع " ..

خلفتُ غاشيةَ الخنوعِ ورائي واتيتُ اقبسُ جمرة الشهداءِ
قف بي فلستُ بمأتمٍ لرثاءِ أيهانُ عرس رجولةٍ ببكاءِ
حاسبتُ نفسي والأناة تردها في معرضِ التصريح للايماءِ

بِـيني لُعنت فلستُ منكِ وقد مشى فيكِ الخمول ولستِ من خلطائي
ماذا يميزك والسكوت قسيمة عن خانع ومهادن ومرائي
أبضعف الايمان يخدع نفسه من سـنّ حب الموت للضعفاء
خلّي النقاط على الحروف وأوغلي في الجهر ما وسعتْ حروف هجاءِ
ما أنت اذ لا تصدعين فواحشا إلا كراضيـةٍ عن الفحشــاء
يا من رأى حلفاً عجيباً أمره بين الثرى وكواكب الجوزاءِ
وتعلقتْ هزءاً على اضوائه بنيوب ذؤبان أكارعُ شــاءِ
ستدوس اقدام الشعوب كخرقة مهرؤءة من كان صوت بلاءِ
ستعود تُـصـهر طلقـةٌ وقذيفة ترمي الطغاة سلاسلُ السجناءِ
يا شام يا لمح الكواكب في دجى يا موكب الاعراس في صحراءِ
يا أم اقيــال ومدرج امـة وعرين اشبال وكهف رجاء
لله أنت أكلُ يومك حاشد برجولةٍ ومرؤةٍ وفَتــاء
اليوم عيد الواهبين وفي غدٍ عيد الفتوح وأمس عيد جلاءِ

الجواهري..ذكرياتي

"فرّ ليلي من يدِ الظُـلَمِ" فلاح الجواهري معرض الأرق 2003

كان الجواهري وشلة الغجر المتنقل -اهلي- قد غادروا الشام قبل قرابة العام عائدين الى مرابعهم في العراق ..الجواهري تحت سقف خيمة (أم عوف) في (علي الغربي) وبقية الشلة في اعظمية بغداد..أنا في عربة االغجر التي انفصلت عن الركب، في حارة (دق الباب) بدمشق .
غرفة صغيرة ظريفة بايجار عشرين ليرة شهريا نتقاسمها وعبد الكريم البوريني طالب الحقوق (وسفير الامم المتحدة لشؤون الحركة السكانية لاحقا) كما نقتسم كل شيء من علبة النقود التي نضع فيها ايراداتنا ، انا من دروس معهد النجاح الدراسي للبنات وهو مخصصاته التي يبعثها اليه الاهل في عمان وخابيات الزيتون والمكدوس والجبن المضفور..حتى القمصان والاحذية وهي بمقاس واحد نقتسمها..وفي الطرف الآخر من حوش الدار المكشوف، (فؤاد)، النحات المصري الذي يعيش مع الحصان في اسطبله اكثر مما يعيش معنا في الدار..ذلك الحصان العربي الاصيل الذي اراده نموذجا لتمثاله القادم..كان يعود بعد اربعة ايام او ثلاثة فتعبق الدار برائحة الاسطبل زمنا غير قليل وحين يحضر لتناول االشاي معنا بعد ان يغتسل ويبدل ثيابه، تنتشرفي ارجاء الغرفة عطوره المصننة، ورماد سكائره المعلقة ابدا على زاوية فمه .
..الغرفة ورغم الخابيات العديدة والالبسة المعلقة بمسامير على الحائط والكتب الكثيرة وعلب الالوان ومذيباتها وحزم ورق الرسم وقماشه، تحظى بشيء متواضع من الترتيب، وهي مهمة البوريني الذي يقوم بها بصبر كبير ودون تذمر.
الزيارات النسوية محذورة، فربة البيت تطل على االباحة المكشوفة ببرقعها من حين الى آخر، وكانه شيء عفوي حين ترتب وتسقي اصص الزهور على افريز نافذة غرفتها في الدور العلوي وهذا السقي والترتيب يتكرر اكثر من عشرين مرة في اليوم، اضف الى ذلك انني غريق الغرام حتى ذقني، والبوريني الهاديءالرزين منشغل بقوانينه وشرائعه واحكامه، وفؤاد النحات لا يغادر عش غرامه في الاسطبل الا نادرا .

تهتز دمشق بزلزال المظاهرات الصاخبة في شوارعها وجامعتها والمدن السورية كلها "وحدة، وحدة" .. "جمهورية عربية متحدة" .. "عاشت الوحدة بين البلدين" "عبد الناصر زعيمنا"..ناصر ناصر هو الناصر .. سوريا ومصر بلد واحد شعب واحد.. عاش عاش ..
نخرج من الجامعة بتظاهرات وشعارات واعلام..انشراح تهتف مع رفاقهاالحزبيين " ديمقراطية، اشتراكية، اتحاد فيدرالي".. انا اهتف بالقرب منها مع الحشد الاكبر "وحدة وحدة"، "جمهورية عربية متحدة" ، "سورية ومصر بلد واحد"، "عاش جمال،عاش جمال"..
..تسخن النقاشات بين حملة الافكار اليسارية والقومية والدينية في اروقة الجامعة .. لم تسجل حالة اشتباك اواعتداء واحدة..البعض يشارك في النقاش بحماس في هذا

التجمع، ..لينتقل بعدها ويشترك بحماس اكبر في تجمع طلابي قريب آخر .
..نهرع من قاعات المحاضرات مجنونين، محمومين، مختنقين بعبراتنا ونحن ننطلق، تاركين كتبنا وكراريسنا، متنادين فلعل هنالك أصم لم يصله الخبر " عبد الناصر في دمشق ..عبد الناصر هنا معنا..عبد الناصر.. "
..من تحت الشرفة أقف مع انشراح يداً بيد ننظر باحداق دامعة غير مصدقين الى هذا الرجل الاسمر الجميل المشرق الوجه، الذي يحيي الحشود الصاخبة التي سدت كل شارع وزقاق واكتضت بها سطوح البنايات والشرفات في المنطقة الوسيعة التي امام الشرفة وامتدت الى اجزاء قصية منها في العاصمة .
.. لم تنفع اصوات مكبرات الصوت المطالبة بالهدوء والصمت لكي يستطيع عبد الناصر ان يوصل كلماته الى الحشود المكتضة الصاخبة بفرح وجنون بهتافاتها وشعاراتها ..تكررت النداءات مرات عدة قبل ان يتخافت الصخب ثم يعقبه سكون في انتظار الكلمة ..
- ياشعب سوريا المناضل ..
..ما أن انطلقت كلمات عبد الناصر الاولى هذه ، حتى اهتز الكون من جديد بالهتافات والشعارات وتدافعت الحشود وكانها تريد ان تصل الى جواره على الشرفة ..

رئيس الجمهورية شكري القوتلي واقطاب القيادة العسكرية السورية عفيف البزري وعبد الحميدالسراج وهشام العظم وآخرون.. يتوجهون الى القاهرة ويسلمون عبد الناصر العلم السوري وشعار الدولة..عبد الناصر يعلن وحدة مصر وسورية ويصبح القوتلي (المواطن الاول في الجمهورية العربية المتحدة) .

.. اقترب موعد الامتحانات..أنا وانشراح نقضي كل الاماسي، حتى ساعات متأخرة من الليل في مكتبة الجامعة..عشاءنا وفنجان قهوتنا في مطعم ونادي الجامعة ..استراحاتنا بين اوقات المطالعة نقضيها في التمشي والحديث في ممرات الجامعة المزدانة باشجار الحور والصفصاف ومشبكات الورود او الجلوس فوق احدى المصاطب المشرفة على مدرج الجامعة وبردى من تحتنا..

* * *

- ..اسمعني جيدا يا فلاح وفكر قبل ان تجيب..لو حصلتَ على زمالة دراسية على حساب الحكومة السوفياتية لاكمال تعليمك الطبي في موسكو فهل تذهب ؟..الجواهري يتحدث على الطرف الثاني للهاتف من بغداد .
- وهل هنالك اي مجال للتفكير..سأكون مجنونا لو رفضت..انه خبر هائل ..بالطبع اذهب، بالطبع..اشكرك..اشكرك كثيرا..اشكرك..
- اذاً هيء حقيبتك..راجع السفارة السوفياتية للحصول على تاشيرة الدخول والترتيبات الاخرى، فهم الآن على علم بذلك..إنها زمالة الجواهري .

إنشراح تبكي لقراري .. تطميناتي لها لا تجد نفعا في البداية ، ولكن لاني سأذهب الى الاتحاد السوفياتي، وهي رفيقة حزبية، فقد خفف ذلك من اثر الصدمة .

في صبيحة اليوم السابق لسفري اصحبها الى احد الصاغة في سوق الحميدية..
نختار حلقتين ذهبيتين..يخط الصائغ اسمينا عليهما..البسها خاتم الخطوبة..اقبلها ..تلبسني خاتمي..نرتاد الاماكن التي كنا نعشقها والتي كان لنا بها ذكريات عزيزة علينا، مصاطب الجامعة المطلة على المدرج وعلى بردى، غابة الحور في ضاحية قريبة..نجلس دقائق متقاربين في قاعة المكتبة..فنجان قهوة في نادي الجامعة حيث لقاءنا الاول..نهبط المسار الذي كنا نأخذه سوية في طريقنا الى الجامعة كل صباح ..نأخذ المصعد في وزارة الزراعة واقبلها كما المرة الاولى ونحن نزور بهاء ليشاركنا فرحة ثورة العراق..ها نحن على سطح العمارة ذاتها لنقترب كما اقتربنا من قبل ونحن نطل على الشارع حيث كانت مظاهرات الاحتفاء بثورة العراق تحتشد من تحتنا..اوصلها قرب دارها مودعا..تمسح دموعها..تخلع الحلقة االذهبية قبل ان تدفع باب الدار وتنظر الي وهي شاردة الذهن قبل ان تغلق الباب ورائها ..
في المساء وانا منشغل باعداد حقيبتي اسمع طرقا على الباب..اجد إنشراح واقفة مطرقة الراس شاحبة الوجه..رفيقتها تمسك بذراعها..تدخلان..تجلسان على حافة االسرير..دموعها تنهمر بصمت..تنظر الى اصبعي فتجد انه لا يزال يحمل الحلقة الذهبية..تبكي بحرقة اكبر .
اخرج بصحبتها نهيم في الشوارع والازقة دون هدف..ها نحن ومن حيث لا ندري في الزقاق الذي كنت اسكن فيه مع الجواهري والاهل ..إنشراح تعرف البيت جيدا..نرفع اعيننا حيث نافذة غرفتي االصغيرة ثم الى نوافذ صالة الاسقبال ..

* * *

وصلتُ من بيروت بحقيبة تكتظ بملابس لم تعرف الغسيل اشهرا..بضع هدايا رمزية غير ذات قيمة اقدمها لنجاح وخيال وظلال وأم نجاح ..رباط حريري ثمين للجواهري .

حين عاد الى المنزل مبتسما، وقد عرف بوصولي وهو في بناية مجلة الجندي القريبة ، نظر اليّ بصمت وهو يجتاز عتبة الباب وعلت وجهه ابتسامة ساخرة مرحة..أخذتُ كفيه وقبلت ظاهريهما ووضعتهما على جبيني..
- واخيرا عدتَ الى صوابك وقدمت.. مرحبا بك..انها دمشق !..اليست احسن من بلد المداخن والضباب..ينادي "هل جهزت يا أم نجاح وجبة تليق بطبيب المستقبل؟"..نعم كلية الطب بانتظارك ولا مهرب جديد آخر منها بعد الآن .
تمر الايام رخية حلوة.. اصحبه في الكثير من امسياته في مقاهي المهاجرين فوق سفوح جبل قاسيون..اسعد كثيرا حين اجده ولاول مرة لا ينوء بحمل همومه كما هو الحال في بغداد ..هو شخص آخر، شاب في منتصف الخمسينات، رغم "وخط المشيب" الزاهي لفوديه..انيق الملبس ، واثق الخطى وسيعها كعهده ابدا، يشرق وجهه في الغالب بابتسامة متخفية نصف ساخرة، يدندن كثيرا بمرح، غير دندناته

الغضوبة الحارقة في الاجواء المسعورة التي عشناها سابقا..معه انا الان في مقهى بقاسيون وهو يبدء همساته، التي تكاد لا تسمع بدءاً، والتي تتحول بالتدريج الى همهمة فحدو بدوي خافت.. انسحب من المقهى لاتركه لعالمه دون (عذول)..اعود لاجد بصحبته الشاعر شوقي بغدادي..يسمعنا بصوته الجذل شاكيا غروب شبابه ..

مشى وخط المشيب بمفرقيهِ وطار غراب سعدٍ من يديهِ

وراحتْ من زهاها امس حباً تقول اليوم وأسفا عليهِ

تبدلَ غير رونقه ولاحتْ تضاريس السنين بأخدعيهِ

رماداً خلـتهُ لولا بقايا توقّد جـمرتين بمقلتيـهِ

مشى وخطُ المشيب به فالوى بأيكـتهِ وعاثَ بوجنتيـهِ

وئيدَ خطىً كأن عذاب جيلٍ تخيّره فحـطّ بـمنكـبيهِ

وقـرّب من منيتهِ وخوفٌ لقرب الموت شرُّ منيتيهِ

مشى وخطُ المشيب به فرنّتْ مناحةُ ثاكليه بمسمعيهِ

وراح يُصيخ عن ألمٍ ورعبٍ الى واهٍ مرجّعتٍ ووبهِ

شوقي بغدادي يتمايل برأسه مع انغام قراءة القصيدة.. ينظمّ احيانا الى مجموعته في سفوح قاسيون الشاعر محمد االحريري..ضخم الجثة سمح الوجه كالطفل.. شوقي بغدادي يدعوه بـ(الفيل الضخم) ..الجواهري يدعوه ب(البلبل الصغير) ويفتح كفه الوسيعة وكانه يحمل بلبلا صغيرا على راحتها.

يُطلب من الجواهري ان يَنظم نشيدا للشباب السوري وجيشه الشعبي المتصدي للعدو الصهيوني، الذي تدك مواقعه المدفعية السورية من الجولان من حين لاخر.. تنشر القصيدة في مجلة الجندي بعنوان (دارة المجد) ومطلعها :

يا جبهة المجد لا تُراعي وانتفضي حرةً وقومي

.. ادور في البيت عصراً وانا اردد منغما ابيات القصيدة ومقلدا اصوات الجوقة المسيقية المصاحبة ..

"يا دارة المجد لا تراعي .. وانتفضي حرة..يا دارة المجد ..يادارة.. " ..الجواهري يخرج رأسه من الغرفة ناهراً.."كفى يا زنيم..لقد وصلت اليّ رسالتك الغثيثة"..ومن يومها لم تنشر القصيدة في اي صحيفة او ديوان.

البيت لا يخلو ابدا من ضيف او زائر .. اقوم مرات عديدة بواجب الاستقبال والمحاورة والضيافة حتى يتواجد الجواهري .. لا يقتصر الحضور على الجنس الخشن، فكثيرا ما يتواجد العنصر الناعم ايضا، وهنا تكون انطلاقته في ذروتها، وكنت اكثر الناس حظاً بان اكون مشتركا بهذه الاجواء فأم نجاح ستكون منشغلة بواجبات المطبخ، او انها لاتجد الحديث الدائر منسجما معها .
.. بقدوم صفاء الحافظ (اغتاله البعثيون بعد قدومهم الثاني الى السلطة في العراق) بعد اكماله دراسة الدكتوراة في جامعة السوربون بباريس يصبح اكثر الناس ترددا على الدار وتتعمق الصلة بحيث يدخل دون موعد، وقد يبقى الى ساعة متأخرة من الليل..وسيم انيق منطلق الحديث والنكتة مع الجواهري، خصوصا حين يتعلق الامر بالحديث عن المراة وعن ذكريات باريس.. الجواهري يميل براسه منصتاً " ..لالا.، هي من عائلة محافظة من الحله.. ودعوتها الى شقتي في الحي اللاتيني.. وقالت وهي بجانبي في السرير..سنضع الوسادة بيننا فلابد ان يكون هنالك حاجز في النوم بيني وبينك..فأجبتها بالطبع ياحلوتي..سيكون المانع المطاطي حاجزاًبيني وبينك " يقولها صفاء الحافظ بما يشبه الهمس مقرباً فمه من اذنه يضحك الجواهري..يكركر ويكاد يشرق بالضحك.."..والله انه اكثر الحواجز امانا.." وينطلق من جديد في موجة ضحك اخرى .

عبد الجبار وهبي –ابوسعيد- (اغتاله البعثيون في مجزرتهم الاولى عام 63) وزوجته المحامية نظيمة وهبي وابنه الصغير سعيد ونادية ابنته ذات الاربعة عشر ربيعا (المطربة انوار عبد الوهاب لاحقا) .. (ابوسعيد) احلى الناس خُلقا وطيبة ولطفا وانطلاقا ..يحبه الجواهري اكثر من اي عراقي آخر في الشام، لاتحسه الا ذلك الانسان المتواضع الوديع الدمث الاخلاق..لا ذلك القيادي الشيوعي الكبير..يترددون على الدار كما الاهل ونزورهم بمعية الجواهري في دارهم الشرقية المكشوفة .. تعيد نظيمة اليّ كتاب (الحي اللاتيني) الذي استعارته ابنتها نادية وهي غاضبة " هل تريد ان تفسد اخلاق ابنتي ؟ !" ..
..يزوره قياديون شيوعيون كبارآخرون..جورج تلو وعبد القادرالبستاني وآخرون ..وتختلف مقابلته عما هي مع ابوسعيد..فهو هنا في غاية الادب(الثقيل) مقابل التحفظ (الثقيل) الذي يتحدث به الرفاق .. يعم البيت جو رسمي ..نتنفس الصعداء بمغادرتهم . .

احمد الصافي النجفي يفد الينا من لبنان ابي يقابله بسرور صادق غير انه سرعان ما يضيق بمزاجاته القلقة واحاديث الزمن العتيق.. لا يظهرها ولكني احس بمللله..انسحب بالصافي غالبا بحجة تهيئة مكان نومه وراحته.. اعرض عليه غرفتي وسريري.. " افضل النوم على فراش فوق الارض.."..آتيه بفراش ووسائد وارتبها

في مكان مناسب من الصالة.."لالا..ضعها في هذه الزاوية..انا لا اطيق ان اكون قريبا من الجدار.." أُبدل موقع الفراش..فيقتنع لحين.." لالا..المكان الاول كان افضل.." اعيد الفراش لموقعه السابق .." لا تزعل مني يا دكتور..هل لديك مانع ان نضعه قرب باب الشرفة .. هل تعلم يافلاح انني كنت احملك على كتفيّ صغيراً وادوربك في ازقة باب الطوسي في النجف.. .."هل لك ان تفتح النافذة رجاءً ..لالا ليست هذه القريبة بل تلك" .. "هل يمكنك ان تغلق النافذة يا فلاحي احس تيار هواء بارد".."اتركْ باب الصالة مشرعاً فانا اختنق في الغرف المغلقة".."لالا اغلقها رجاءً فلا احس بخصوصية مكاني وهي مشرعة.." ..كل ليلة من وجوده معنا يتكرر المشهد ذاته.. ولكن بعد ان يخلع غترته وعقاله ويسترخي نصف مستلقٍ ومستند على كوعه يبدء حديث الذكريات الحلوة المطعمة بهذا المقطع الشعري او ذاك..لا يتمكن منه النوم.. ولا احس انه قريبا سيستلم للنعاس، فاحضر له كأساً من الماء وانسحب بحجة تحضيرمواد دراسية للغد .

عبد الرحمن الخميسي الذي اعشق قصصه القصيرة في دارنا..هو في دمشق في مؤتمر للادباء، وهي مناسبة ان يزور الجواهري في داره وان يقدم له مجموعته القصصية الجديدة (رياح النيران)، والتي يشيد فيها بالجواهري ويضمنها ابياتا من شعره النضالي..الجواهري اكثر من سعيد بلقياه ويسترجع معه ايام طه حسين والخمسينات و(قاهرة الجواهري)..لا اغادراللقاء حتى يغادر.

..محمد شفيق غربال الطيب ذو الوجه الباسم المتواضع الذي يرى انه قد انجز شيئا كبيرا بلقاءه بالجواهري..يعرض على الجواهري مشروع حلمه (الموسوعة العربية)، "سابدأها يا استاذنا بـ(الموسوعة الميسرة) واعقبها بعد حين بـ(الموسوعة العربية االشاملة).." .. "هذا هو الذي سيكتب عنك وعن جدك (صاحب الجواهر) في الموسوعة ..اقرأه وارجو ان ينال رضاك " .. الجواهري يطري المشروع ويثمنه ويثمن جهد غربال العظيم .. يغادر الرجل شاكرا فرِحا محييا جميع من في الدار.

..الجواهري في طرابلس بدعوة من كبار ضباط الجيش السوري..في الجلسة الأحتفائية والكل منطلق، والكؤوس تدور.يطلب منه ان يروي غزلياته..النسوة الملهمات ورائها " وماذا عنك استاذ جواهري..وجميلات سورية من حولك ؟!"
..ينطلق وهو يروي بمرح بعض غزواته للحسان في دمشق..الكل منشرح يعلق بظرف واستحسان وطالبا االمزيد، إلا احدهم يجلس صموتا، ثم مطرقاً برأسه واخيرا يحتقن وجهه .

– استاذ انت تتحدث عن نساءنا السوريات..هن عنوان الشرف..هن كراماتنا استاذ!..يقولها الضابط محتقن الوجه مطرقا براسه .
– النساء هن النساء في اي بقعة من الكون يجيب الجواهري بمرح.

– (ياغريب كن اديب) ! يجيب الضابط وهو لا يزال مطرقا براسه.

– هل تريد ان تعلمني الادب ايها الغر ..يا قليل الحياء .
– تسكت وإلا (أطخك بالفرد) نهض الضابط واخرج مسدسه من قرابه.

قفز (نخله كلاس) واحتضن الجواهري مهدئا، ودفع آخرون بالضابط خارج الصالة .

..الجواهري يجلس صموتاً..يهز براسه سارحاً " إيهْ دْنيـــــــا !.." يطلقها بحسرة ،..ينهض بتصميم " اودعناكم !" يقولها بحزم مودعاً الحاضرين هازاً ذراعه المرفوعة ويخرج.

زاد الطين بلّة دعوة الرئيس شكري القوتلي للجواهري..

..بعد جلسة ترحيب وحديث في القصر الجمهوري، يشير القوتلي الى أحد المرافقين في قاعة الاستقبال فيحضر مظروفا يأخذه القوتلي ويقدمه الى الجواهري. – هذه هدية الرئاسة استاذنا العزيز ارجو قبولها.. يتردد ..القوتلي يكرر العبارة " هدية الرئاسة والهدية لا ترد ..".

في غرفة التشريفات يتوقف الجواهري قبل مغادرته..ياخذ ورقة من المظروف من فئة المائة ليرة ، ويكتب على ورقة صغير بضعة ابيات راجياً من القوتلي فيها أن يوقع المائة ليرة ليحتفظ الجواهري بها كذكرى عزيزة ..يعيد الى التشريفات المظروف الذي يحمل الهدية النقدية شاكراً ..

سيديي لا يسؤك ضيقي بما اوليت ذرعـا ولايَرمكَ إنزعـــاجُ
انا والله راكـــعٌ في ذرى لطفكِ مابـي الى سواكَ احتياجُ

انا والله ضيفُ ساحتـكِ الغناءْ فيـــها سُـــــرايَ والإدلاجُ
غير أني بالمـــالِ أَضـــوَي وإن أُسمنَ غيري إن النفوس مزاجُ

وتأتي ذكرى المالكي .. ويحتشد الملعب البلدي بالمنصتين الى الجواهري ويضج بين حين وآخر بالتصفيق والاستحسان . ..
يعود الى الدار بعد القصيدة مبتسماً.. ويقول بصوت مرتفع :

" شدي الرحال يا أم نجاح !.. سنعود الى بغداد "

كل من في البيت كان يتوقع هذا القرار ولم يفاجأ به أحد

* * *

" كانت مفاتيح دمشق جاهزة كي تسلم للرئيس جمال عبد الناصر وقد سلمه اياها الرئيس شكري القوتلي فيما بعد مكتفيا ان يحظى بلقب (المواطن الاول) ثم كان ما كان وانتهى امر الارتجال في اول وحدةعربية الى ماهو معروف :
..في هذا الجو احسست انني رجل شبه ثقيل على من بيدهم امور القيادة وكانت ظلال تلك الثقالة ترفرف فوقي واحسها اينما ذهبت لانني مبتلى برهافة الحس كما يعرف القاريء وذلك لمجرد انني عراقي وابي عراقي ..
.. بلغت المضايقات حدها عند لحظة تكاد تكون حاسمة وذلك فيما كان بيني وبين صديق –هشام صديقي، وهو احمد الحنيدي الذي سيصبح بعد ذلك وزيراً في حكومة الوحدة الموقتة والمحدودة للاسف، فقد كان منه وانا في شبه نزاع عابر معه، أن شهر مسدسه عليّ ويده على الزناد وكان ذلك خلال زيارة الى طرابلس وفي احد الاديرة التي كانت محطتنا الاولى.. لولا تدخل الصديق نخلة كلاس وهو يفصل فيما بيننا بان يضع صدره مكان صدري لكنت أنا في الابدية والحنيدي في السجن على اقل تقدير .
المفارقة العجيبة في هذا الموقف أنني كنت في صميم نفسي ومنذ اللحظات الاولى التي تعرفت فيها على الحنيدي من المعجبين به وبقوة شخصيته، فأن تكون هذه النهاية بعد تلك البداية فذلك من سخريات القدر ليس إلا ..
من هذه الضروف ومن هذا الواقع.. ومن منطلق إنني الرجل الذي لا يساوم على المواقف، بخاصة تلك التي تتعلق بالكرامة.. فقد بدأ العد التنازلي، فيما بين هذه السنة الثانية وتلك الاولى، يأخذ مجراه وبحدة حتى حانت ساعة انفجار الغضب المكبوت في يوم الذكرى الثانية لاستشهاد" عدنان المالكي .

ترنّـحت من شكاة بعدك الدارُ وهبَّ بالغضبِ الخلّاق اعصارُ
وأرعدَ الوطن الغالي وقد ثَقلت عليه مما جنى الجـانونُ اوزارُ

هنا بجلّـق عملاق على بردى وثَمَ في مصر يحمي النيل جبارُ
إسلمْ جمال لنا نسلم فقد عرفت بك الكرامة في الشرقين أمصارُ
جُزيت عن أمّـةٍ أنعشتَ تربتها خيراً كما جُزيت سمحاء مدرارُ
حتى اذا الغيبُ ابدى حُرّ صفحته وحان للأجلِ المضروبِ مقدارُ
تنفس الصبح عن مصريةٍ ولها في المهد شبلٌ قبيل الزأر زئّارُ
دمشقُ: لم يأتِ بي عيشٌ اضيق به فضرعُ دجلةَ لو مسّحت درارُ
لو شئتُ كافأ مثقالاً اصرّفه شعراً من الذهب الإبريز قنطارُ
يا سادتي إن بعض العتبِ مَنبهةٌ لغافلين وبعض الشِـعر إشــعارُ
أنا العراق لساني قلبه ودمي فراتـــه وكيــاني منه اشطــار

الجواهري..ذكرياتي

3 – محمود البريكان

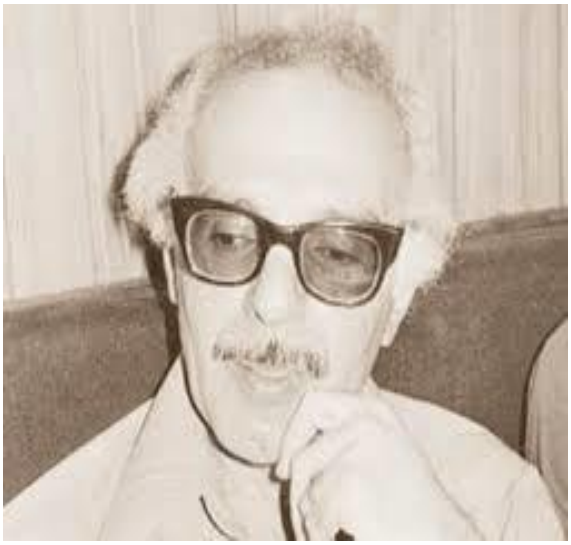

انتهت جلسة التوديع الاحتفالية في مطعم مطل على النهر غير بعيد عن بيت غائب

.. افقدت كؤوس الفودكا الكثيرة التي كرعها غائب توازنه وزادت من لثغته وتلعثمه الطفولي وهي في صحوه غير قليلة .

كان علينا وكالعاده ان نرافقه الى باب شقته كي لا يصحو في اليوم التالي فيجد نفسه نائما في احدى الحدائق العامة او فوق سلالم عمارة في حي سكني آخر .
اسندناه انا ومحمد عند باب شقته..قرعنا الجرس وبسرعة هربنا نازلين الى زاوية السلم المعتمة في انتظار أن تفتح زوجته (إينا) الباب..نطمئن على دخوله سالما دون اضرار
.. نخشاها وتكرهنا..تكره كل عراقي – بل وحتى اي شرقي- يزور غائب .
من الايام الاولى لزواجه وحين نأتي اليه ، يحدد الساعة والدقيقة لزيارتنا ، لا حرصا على اوقات كتاباته ولكن كي يقوم هو بفتح الباب شبه خلسة ليتسلل بنا الى غرفة عمله ، كي لا نزعج (إينا) بوجوهنا ..
..هو الذي يدخل المطبخ ..هو من يعد االشاي ..هو من يحضّر بضعة سندويجات ، ثم يأتي بوجه الوجِل الكاذب الساخر ويدخل كاللص الحذر بصينية الاقداح ..بعد ان يغلق باب الغرفة يتنفس الصعداء ويبتسم ابتسامة المنتصر مشيرا برأسه تجاه غرفة العدو اللصيقة

لم يكن في وداعي في مطار شيرميتفا في موسكو إلا (لودا) الباكية .
.. أقبلها من عينيها الدامعتين ..
- بالطبع يا حبيبتي ساستدعيك الى السودان بعد تعييني..بالطبع بل ستكونين مساعدتي في علاج المرضى هناك في الادغال العميقة..بالطبع ستكونين برفقتي ونحن نجوب مجاهل افريقيا حيث الاسود والنمور والفيلة ، وحيث رقص افراد القبيلة نصف العراة الترحيبي حولنا ..كونيجنا– بالطبع- مالينكايا- صغيرتي بالطبع..بالطبع يا محبوبتي..بالطبع – كونيجنا

لم يكن احد في استقبالي في مطار صوفيا المحطة الثانية– بعد محطتي الاولى براغ
.. توجهت الى غرفة فرات وزوجته .
.. في المساء وبعد معرفتي بمكان تواجد رشيد ، وهو بالطبع أحد مقاهي صوفيا ، توجهت الى هناك.. لم استغرب أن أجده منتصباً في حالة انفعال غاضب ، مزمجراً في وجه شخص على الطرف المقابل لطاولته ..
..علت الابتسامة الواسعة وجهه وهو يراني واقفا قربه اراقبه خلسة عن

كثب..احتضنني بحرارة ، وادار رأسه بالتفاتة سريعة صوب الشخص الجالس على طاولته :

- سنكمل الحديث لاحقا..اهلا اهلا..يا للمفاجأة الحلوة..هيا بنا الى الدار سعاد ستفرح بلقياك

.. أوقف رشيد سيارته قرب أحد الاسواق..عاد بعدها حاملا بضعة اكياس .

في اليوم التالي، اتيت الى شقته الصغيرة (.. دليل رفاهية ، أن تكون شقة بديلا عن غرفة) ، فهو يعمل الآن في اذاعة صوفيا في الترجمة وفي قراءة بعض النصوص الاذاعية..اليوم هو يوم احتفالي .. انه يوم ختان نبيل ابنه البكر .

كنا انا ورشيد وسعاد زوجته وهي تحمل طفلها نبيل ، في صالة المراجعين المنتظرين دورهم لعمليات بسيطة..تبدو على وجه سعاد معالم الفرحة وهي تبتسم بطمأنية..رشيد قلق متوتر، يذرع باحة الصالة رواحا ومجيئا ، ينظر بتحفز كلما فتح الباب المؤدي الى صالة العمليات..أخيرا يفتح الباب.. ممرضتان بسرير نقال بمفارش بيضاء يتحركان صوبنا ويطلب من سعاد ان تضع الطفل على السرير النقال.. يغطى نبيل وتربت احدى الممرضتين على رأسه بحنان وتتحدث اليه بوجه باسم ..

..عند الباب يطلب من المرافقين الانتظار خارج غرفة العمليات ، مطمئنيننا ان العملية لن تستغرق أكثر من نصف ساعة..رشيد يحاول دخول الصالة فتمنعه الممرضة متحدثة معه بأناة ولطف .. يحتقن وجهه ويحاول الدخول عنوة .. ياتي اليه أثنان من حراس المستشفى ويحولان دون دخوله ..يدفعاه وهو يقاوم الى صالة الانتظار ..

– المجرمون .. السفلة .. ملعونون انتم ..ملعون هذا البلد الحقير..ابني!!..ابني!..هل تفهمون هنا ايها الحمير معنى كلمة ابني، يصرخ باعلى صوته الغاضب المتحشرج .

في المساء عدنا بنبيل بعد ختانه (حياً)..رشيد يروح ويجيء ويرفع طرف ثوبه ليطمأن انهم لم يقطعوا في العملية عضوه الصغير..يمطر وجهه بالقبلات..تعود الابتسامة الى وجهه وسرعان ما يتحول مزاجه الى هستيريا من الجذل ، فهو لا ينقطع عن القاء النكات وعن مداعبات سعاد ، طوراً بالاحتضان وأخرى بكلمات غزل رقيقة .

..على المائدة العامرة بالمشروبات ولذائذ الاطعمة السورية التي تجيدها ربة البيت تتحدث

- هل تعلم يا فلاح بأن خطيبتك انشراح لا تزال بانتظارك..لقد كنت قبل بضعة اشهر في زيارة لدمشق..بكت إنشراح حين ورد اسمك على لساني في جلسة احتفاء نسوية بمناسبة زيارتي للبلد..لقد اخبرتها بطلاقك من زوجتك الروسية فبكت بعنف اكبر .

– اتتذكرني للآن ورغم كل شيء ؟!
- اقول لك لقد اخذت تبكي..وامطرتني بعدها ، وقد اشرق وجهها بالأسئلة عن تفاصيل اخبارك .
- هل لديك رقم هاتفها ؟
– لا اعرفه .. حاولت الاتصال بها عدة مرات في مستشفى المزه حيث تنهي هناك اقامتها ولم افلح .
فكّرت مليا ثم قلت بشكل جازم منفعل ، ساكتب رسالة مسجلة مستعجلة اليها لمستشفى المزه .. سابدل مشروع سفري للعمل في السودان وساعرض عليها أن نلتقي في اي مكان تختاره كبيروت او عمان في حال عدم ارتياحها لقدومي الى دمشق حيث يعترض اهلها على زواجي منها كما في السابق..الرسالة وجوابها لن يستغرق أكثر من ثمانية ايام..سابقى هنا شهرا بل اكثرفي انتظار الرد .

* * *

معرض الجامعة التشكيلي 1957 كاتب السطور الاول من اليسار

أقيم المعرض التشكيلي السنوي في االجامعة السورية..كنت اشترك به للسنة الثانية اشترك معي فيه من الفنانين الشباب (تميزت اسماءهم الفنية فيما بعد) قتيبة

الشهابي ونبيه قطاية وآخرين وقد كتبت عنه الصحافة السورية واللبنانية ايجابا .
.. كنت اقف وشلة من الصحب قرب لوحاتي..سمعت تعليقا ساخرا من صوت انثوي ، صاحبته ضحكات وقفشات من صبايا..التفت منزعجا صوبهن..ارى بينهن احدى زميلاتي في كلية الطب..من حديثها مع صويحباتها أميز صوت صاحبة التعليق الساخر..اجيب منزعجا بجواب ساخر..ادير ظهري باهمال متعمد واعود للحديث مع رفاقي في المعرض .
.. بعد بضعة ايام ازور صديقاً مقربا في داره .. باب صالة غرفة الضيوف مشرعة على باحة الدار..ألمح زميلتي (ساخرة المعرض) في رداء منزلي تتخاطف مع شقيقة صديقي (سعاد) امام الباب المشرع..زميلتي اللدود تختلس نظرات سريعة صوبي..تتهامسان وتنطلق ضحكاتهما ..هي اذاً صديقة حميمة لسعاد .
في اليوم التالي وانا جالس في فسحة النادي الجامعي مندمجا في قراءة كتاب ، يتقدم الي نادل مقهى النادي بوريقة مطوية..افتحها واقرأ.." انت مدعو على فنان قهوة معنا " .

أسأل النادل لمن الوريقة..يشير صوب شلة من الزميلات..ألمح ابتسامة (ساخرتي اللدود) بينهن..أبتسم وأهز راسي شاكرا..اتوجه صوبهن مبتسما ولكن بترفع ظاهر .

.. أقف الى جانب شلة الصبايا
– أنا إنشراح..أنا صاحبة هذه الدعوة..تفضل !
.. تتوالى اللقاءات في النادي والمكتبة..نسهر مع الكثرة من الطلبة في مكتبة الجامعة فقد اقتربت الامتحانات..اوصلها ليلا –كفارس شهم- الى باب منزلها..بيتها غير بعيد عن غرفة سكني المؤجرة .. اصبحت بعد ايام اسمع وقع حذائها ذو العقب الخشبي يسرع خلفي وانا أمر صباحا من امام دارها في طريقي الى الجامعة .. يتزايد الاعجاب .. يصبح حباً..ينمو ولهاً. .
يتعرف رشيد على سعاد عبرنا..يقع من اعاليه الى اعمق وديان الحب السحيقة في فترة قصيرة.

* * *

في المساء ، كان بصحبة رشيد حين حضر الى المقهى رجل نحيف طويل بسيط الملبس .. أخذا مكانيهما من الطاولة ..
- محمود البريكان..قدمه رشيد الي..صافحته بحرارة .
حضر اثنان من اصحاب رشيد من العاملين في الاذاعة السورية ..اقنعاه وهو يستجيب لهما اخيرا ، ان يقوما بتسجيل مايكرفوني اختباري لصوته اثناء اداءه بعضا من اغاني عبد الحليم التي يرددها في بعض جلساته والتي كان يطرب

الحاضرين بها..غادرنا رشيد معتذرا ،على ان يعود خلال ساعة بعد ان تتم عملية التسجيل .

.. البريكان يجلس محرجا صموتا بضع دقائق الى أن ابتدأه الحديث في السؤال عن مدة بقائه في الشام .. عن راحته فيها .. عن سكنه ..تتفتح اساريره شيئا فشيئا..يتحدث عن اجواء الشام الساحرة ، عن ازقتها القديمة خلف المسجد الاموي التي يعشقها ، عن غوطتها ، عن قاسيون في الاماسي ..هو في اجازته الصيفية .
.. يطول غياب رشيد ..يصمت البريكان سارحا ببصره من على رابية مقهى ابو كمال الى بردى الى تكية السلطان سليم .. الى الماشين باسترخاء على ارصفة الشارعين الممتدين على طول النهر، الى اشجار الحور على السفح المنحدر لرابية الجامعة ..

– اين تتناول طعامك في فترة الغداء ؟ ، سالني وهو سارح ببصره الى نفس الامكنة السابقة .
– في الغالب في مطعم او نادي الجامعة .
– لكنها العطلة الصيفية .
– صحيح أجد الاجواء في الجامعة مريحة ، ولعلي اعتدت ذلك -
معذرة ! سألتك .. لاني اتناول وجبة الغداء وحدي في مطعم الجندول ، وهو مطعم صغير هاديء واسعاره معقولة .. مارايك في ان ادعوك لمشاركتي وجبة الغداء هذه فأنا اكره تناولها وحدي .. أحس بالوحشة وانا اقوم بهذا الطقس اليومي الالزامي ..ستتحول الوحشة الى جلسة مؤنسة باعتقادي ويصبح الطعام ألذ ..

– اعرف المكان جيدا وارتاح اليه والى طعامه .. سيكون ذلك سروري .. هي فترة جيدة للتغيير..لي رجاء واحد: سنتبع المقولة السورية " كلمن قهوته من كيسه " .

– جيد وكما تريد..أذاً سنلتقي هناك يوميا في حدود الواحدة ..هل الوقت يناسبك؟

- جداً .
اقترب رشيد من طاولتنا.. جلس وهو يضحك ساخرا ..
– شيء لا يصدق..لقد افزعني صوتي وانا استمع اليه بعد التسجيل عبر المايكرفون..لقد كان اشبه بالنهيق..لقد اصيب صاحباي الاذاعيان بالاحباط في البدء ثم أخذا يضحكان..شاركتهما الضحك بعد أن زال الفزع مني..لقد اخبراني ان هنالك اصواتا تمسخ عبر المايكرفون .
تعددت لقاءاتنا انا والبريكان على مائدة الغداء في المطعم..أخذ ينطلق في حديثه يوماً بعد آخر وبدأت ابتسامة خجلى تطوف على وجهه وهو يتحدث عن حب النوافذ :

- "..هناك على مبعدة عشرين مترا او أكثر غادة سورية تفتح ظلفتي واقي الشمس الخشبي من على نافذتها وتشرع ظلفتي النافذة..تمد رأسها عبرها وتبرز صدرها الناهد..تأخذ نفسا عميقا وهي مغمضة العينين ، ثم تبدء بعدها بتسريح شعرها الطويل وتمشيطه..المحها من بعيد وهي تتمايل بجسمها وكأنها تردد احدى الاغاني ، ثم تبدء بعقد جديلتيها وتنظر صوب ببابيّ شرفتي المشرعتين..واثق انا انها تعرف انني اراقبها واتابع هذه الطقوس كل مساء..لابد انك تعرف يا صاحبي أن الشاعر ، وخصوصا في اجواء دمشق الساحرة ، بأمس الحاجة الى رفقة انثوية تزيل وحشة وحدته وتلهمه..حين تخرج الى الشارع بعدها ، وهي في ابهى اناقتها وغنجها ، ترفع عينيها صوب شرفتي حيث اجلس خلف طاولتي هناك ، وكأنها تناديني " اتبعني .. تعال ، تعال واقترب..تعال!"

..لا اقترب ولا اتبع ويتكررالعذاب ويتكرر جذل خيالات الحب عبر النافذة "

.. يبتسم مزهوا وكأنه العاشق الذي نال مراده .

..اتأمله اليه سارحاً بافكاري..عجيب انت ايها الشاعر الرقيق!..اجتزت عذابات التوله والعشق وارتقيت الى نيرفانا اللذة عبر نافذة مشرعة لدقائق .

قلّت لقائاتي برشيد ، فقد زاد اصحابه الآن..وقعت بالصدفة على علاقات نسوية له غير سعاد .

استمعُ يوماً الى رشيد وهو يقرأ لي قصيدة قصيرة جميلة مطلعها

وصلتْ تهنئةُ العيدْ .

فشكراً يا حياتي

إنها نفحةُ غوثٍ لغريقْ

مدّ كفيهِ على بعضِ الحطامِ

في العبابِ المترامي.

.. التقي بسعاد وابدي اعجابي بالغزل الرقيق لها في هذه القصيدة

سعاد تحمر خجلاً :

- هي ليست لي يا فلاح ، إنه يتغزل بواحدة اخرى غيري .

..يعاتبني رشيد .

تهتز دمشق من جديد .. تكتض شوارعها وتصخب ونهزج فرحا

في الصباح نخرج الى الشوارع ونسمع الخبر اليقين " ثورة في العراق " .. نبكي فرحا أجد انشراح فتبكي فرحا حين تلقاني..نذهب معا الى الجامعة لعلنا نجد بعض العراقيين.. فنجد حشدا كبيرا منهم بانتطار الآخرين مثلنا. نخرج معهم ومع المئات من الزملاء السوريين في تظاهرة فرح مجنون مع هتافات ومناشدة للحكومة السورية

بمساندة الثورة هناك والدفاع عنها ..
حين تمر المظاهرة قرب وزارة الزراعة تسحبني إنشراح من ذراعي : – لنصعد ونهنيء اخي بهاء .
نأخذ المصعد الى الطابق الخامس..في المصعد تقبلني مهنئة .
بهاء في غاية الفرح لكنه منشغل باعمال ادارية ويتعذر عليه الخروج للمشاركة ..
بهاء هو الشخص الوحيد المتعاطف مع علاقتنا..أمها لا تبدي ترحابا لقدومي الى دارهم او لمشاركتهم تعليلة المساء ، ولكن ضمن الادب واللياقة..سليمان اخوها الاصغر يزيرني ببصره ولا يترك فرصة مستترة او معلنة للاعراب عن غيضه من هذه العلاقة .
.. تقترح ان نصعد الى سطح العمارة لنشرف من هناك على المظاهرات الحاشدة الصاخبة تحتها..نمد نصف جسمينا من فوق افريز السطح لنشاهد الموج البشري المتلاطم..نلتصق ببعض ونحن نطل..اقبلها فرحاً .
..التقي برشيد مع شلة من العراقيين كان اكثرهم قبلها يتبادل الكره معه ، غير ان الحدث الضخم انسى الجميع معنى الاحقاد والحزازات..هم جميعا في حالة هستيرية من الفرح الصاخب المجنون .
.. البريكان غائب عن المشهد ..
.. يقتحم رشيد عليّ غرفتي المستأجرة في حارة (دق الباب) وبيده جريدة النور ..

- أنظر! أنظر الى هذه الملحمة..معجزة الخلق لهذا الكائن الصموت..الصفحة الاولى كاملة وستتبعها تتتمة القصيدة في صفحة عدد الغد ..إنها قصيدة الشاعر الشبح ، صديقنا البريكان .

لانستطيعُ تحملَ الفرحِ الطويلْ
ولا تكادْ
تقوى على حملِ السعادةِ رُوحنا المتوترةْ
المعذرةْ !
ما الحبُ إلا ان يكونَ الحبُ
أن تهبَ الحياةْ
من ذاتِ نفسكِ ما يعزُ
وأن تخوضَ العاصفاتْ
من أجلِ شيءٌ ما كبيرْ
هرمتْ عصورُ الاختناقْ
ولوّن العصرُ الجديدْ
بدخانهِ الاحلامْ

ليس البعثُ بالعرسِ السعيدْ
يا أيها الانسانْ
حررْ ماعليكْ منَ القيودْ
واغسلْ ظلاماتِ القرونْ

غائب طعمة فرمان

(1) لقاء في حلوان

."بدعوة من الدكتور طه حسين باشا وزير المعارف وصل الى القاهرة ابناء الشاعر محمد مهدي الجواهري لاكمال تعليمهم على حساب الحكومة المصرية.. " ..نستمع في الاخبار المحلية المسائية الى نبأ وصولنا .
..كان القسم الداخلي في ثانوية (الخديوي توفيق). بحلوان (وهو أحد قصوره الكبيرة) مكاننا انا وفرات، اما اميرة فكانت اقامتها في القسم الداخلي من ثانوية حلوان للبنات .
(حلوان البلد) ، الضاحية والمشتى والمنتجع، بحماماتها المعدنية والكبريتية، بقصور طبقة مصر المرفهة وبالحدائق العديدة ، بالشوارع المظللة باشجار الزينة الباسقة، بتلك (الحديقة اليابانية) الشهيرة في مصر وبغريب نباتاتها القادمة من شتى بقاع الارض ، بالجسور اليابانية على الجداول الصغيرة في الحديقة ، وتماثيل بوذا المذهبة الموزعة فيها هنا وهناك .
..(حلوان العين) على مقربة من (البلد)، بعيون المياه المعدنية المنبثقة من رما ل الصحراء الحمراء حولها، وبالمقاهي الصغيرة حول النبع، بالقصر الملكي المتواضع مشتى الملك فاروق وفؤاد من قبله .
في القسم الداخلي لثانوية الخديوي توفيق، في الطابق الثالث من القصر الضخم والذي تحولت غرفه الفارهة الى (عنابر للنوم) خليط غير متجانس من الطلبة.. اولاد ذوات اعالي الصعيد.. اولاد الطبقة الميسورة من المدن الصغيرة المحيطة بالقاهرة.. اولاد فلاحين بسطاء من القرى (الكفور) بعثوا كطلبة متفوقين للدراسة.. ابناء الاثرياء من السعودية وفلسطين والاردن المتعاليين والمعزولين عن الحدث المصري المتفجر آنذاك.. طلبة بعثات من السودان وهم من طبقات متباينة منسجمين بادبهم الرفيع وثقافتهم الواسعة وحبهم لمصر كل الانسجام ومندفعين في حماسهم تجاه الحدث السياسي الحاسم فيها .

تعم المظاهرات المطالبة بالجلاء وكالعادة فإن المحرك الرئيسي لمعظم مظاهرات بلادنا العربية هم الطلبة ولم تكن ثانوية الخديوي توفيق، تختلف عن بقية المدارس الثانوية في القطر في هذه الاندفاعة الوطنية والمظاهرات التي اتت كرد على بعض التحرشات في المعسكرات الانكليزية ببورسعيد والاسماعيلية.
..مصطفى النحاس باشا يعد الجموع المحتشدة امام الوزارة بين يوم وآخر بأنه سيستجيب لمطالب الجماهير المصرية .. فؤاد سراج الدين-الاقطاعي الثري الكبير- وزير داخلية الحكومة الوفدية المرهوب الجانب ، ينشط بقلم مباحثه وشرطته السرية ويفتح ابواب المواقف (التخشيبة) للعديد من قادة التظاهرات بحجة محاربة الميول الشيوعية الهدامة .
..أنا في الصف السابع (الثاني متوسط)..فرات في المرحلة الاعدادية ..كلانا يشترك بحماس مستعر في المظاهرات..تبح اصواتنا وراء عبد الرحمن (هتّـاف) المدرسة

السوداني - الرمز الوطني لثانويتنا- والمرفوع على اكتافنا بقامته الطويلة الممشوقة وصوته الخشن الجهوري وتلويحاته المؤثرة وشعاراته اللاهبة الرنانة كان يبث في كل طلبة ثانويتنا حماسا لا يضاهى وكان الجميع يردد ورائه شعاراته ومقلدين صوته وتلويحاته..كنا وخصوصا نحن الذين في الصفوف الادنى نعتبره بطلنا الاسطوري وما من احد منا لم يتمنى ان يرقى يوما الى مستواه البطولي الشامخ
..ها نحن مرة اخرى مع الجموع نتدافع تحت شرفة رئاسة الوزراء والنحاس يعدنا من جديد بقرب اسقاط المعاهدة وبالجلاء
.. تنعطف تظاهراتنا بسيرها لتكون امام قصر ضيافة (الامير) محمد عبد الكريم الخطابي (البطل الذي هزم وهو يقود ثوار المغرب جيش الفرنسي- الاسباني الضخم ، والهارب من قلعة اعتقالهم ومن ثم من منفاهم) ..تظل الحشود تهتف بحياته وبحياة المغرب وشعبه وحياة الاحرار فيخرج الرجل الكبير المهيب برداءه الوطني ذي العباءة الطويلة (السلهام) والعمامة الصغيرة فوق رأسه(الرزّة) ويحيي المتظاهرين بحرارة رغم المنع المفروض عليه من ممارسة السياسة فتهب عواصف الهتافات والشعارات وتختلط الكلمات وتغرق في بحر الضجيج الصاخب ..يبقى الخطابي منتصبا يحيي الجموع الى ان تواصل المظاهرات سيرها باتجاه قصر عابدين الملكي هناك تتصدى لنا الشرطة وتقف حاجزا امامنا، فيتنادى قادة المسيرة ومن ضمنهم (هتافنا) عبد الرحمن السوداني الطويل الاسمر للحول دون الصدام مع الشرطة .
.. نعود هاتفين .
يُداهم (يُكبس) القسم الداخلي، عادة في منتصف الليل، مرة من قبل شرطة الممنوعات بحثاً عن سجائر الحشيش او اقراص الافيون (يمرر لي زميلي عشماوي في الصف قطعة صغيرة منها .. ابتلعها فأتقيأ) ، او مرات اكثر تكون (الكبسات) بحثا عن منشورات وكتب حزبية ممنوعة .
..في المرات كلها تصل اخبارية (للشلتين)، شلة الحشاشة وشلة اليساريين من صديق لهما موجود بين الشرطة او القلم السري ، فلا يجد رجال القلم او المباحث عند مباغتتهم شيئا رغم التفتيش الدقيق والصاخب الذي يوقظ كل من في عنابر النوم العديدة .
..نرتاد انا وفرات مقهى (العم) رضوان ذلك الاسكندراني ذو الوجه السمح المرحب، هناك حيث قهوة رضوان العبقة وبسبوسته اللذيذة ووجبات فوله (بالزيت او السمنة) وطعميته المصرية الاصيلة .
- معذرة هل انتما عراقيان ؟.. لقد سمعتكما وانتما تتحدثان لقد خمنت ذلك من لهجة حديثكما .. قالها بصوت مرتبك شاب في العشرينات يقف قريبا منا منسجم الهندام طفولي الوجه الذي علته حمرة خجل خفيفة .
- نعم ..اهلا وسهلا .. تفضل واجلس معنا .. اهلا وسهلا ومرحبا .. شاي او قهوة ؟
.. عم رضوان واحد قهوة .. سكر زيادة او على الريحة؟ .. على الريحة يا عم رضوان!!
- أنا غائب طعمه فرمان من جامعة القاهـ ..

قبل ان يكمل اشاب عبارته ينهض فرات مرحبا بحرارة ومعانقا .. يزداد احمرار وجه الشاب
- فلاح !.. تعرّف على اديب عراقي واعد .. غائب طعمة فرمان كلية الاداب جامعة القاهرة .. انا فرات الجواهري وهذا اخي فلاح
..اصافح غائب بحرارة .. فرات يخاطبه :
- اني اتابع مقالاتك وقصائدك في الصحف..قصائدك جميلة .
- هي مجرد محاولات متواضعة تعبير عن مشاعر لا اكثر..لن آخذها على محمل المشاريع الجادة االقادمة..انا لست بشاعر .. هل لكما علاقة بشاعرنا الكبير الجواهري ؟!
- نحن ولداه .
- وتريداني ان اضع نفسي امامكما كشاعر ؟!..سيكون ذلك تجنيا كبيرا . قالها بلثغته الطفولية المتلعثمة .. صمت بعدها حينا حتى اخذ فرات يستقصي عن حياته واوضاعه في القاهرة
..نلتقي به كثيرا ..غائب شاب هاديء ، يقطع صمته الطويل فيلثغ ويتلعثم كالطفل حين يتكلم فيحمر خجلا جراء ذلك ويصمت من جديد سارحا .
.. هو في منتجع للنقاهة في طرف جميل من المدينة حيث الهواء الانقى وذلك بعد أن اجريت له عملية اقتطاع لرئته المصابة بالتدرن في مستشفى القصر العيني وبعد ظهور مضاعفات الانصباب الجنبي والمدة الطويلة التي قضاها في المستشفى لعلاجها والضعف والشحوب الذي اعقب ذلك، ارسل الى منتجع في حلوان يقضي فيه فترة نقاهته ..
..تشتد المظاهرات صخبا وحماسا وتزداد حشودها .
..تكثر المنشورات السرية المطالبة بالجلاء والتي تتهم فيها الملك فاروق بالتآمر مع الانكليز وتهاون الحكومة مع القصر وتقاعسها عن تنفيذ وعودها باسقاط المعاهدة الانكليزية المصرية وتحقيق الجلاء التام ..
..(كبسة) جديدة اخرى لرجال القلم السري عند منتصف الليل تصل الينا (إخبارية) عن موعدها من ذلك الصديق للطلبة الذي يعمل مع القلم السري.. تختفي كل الكتب والمنشورات التحريضية .. ينجو فرات من المداهمة فلا يجدون شيئا بحوزته..رجا ل المباحث يعودون من عنابر نوم الكبار الى عنبري-(عنبرالصغار)..يبحثون بين كتبي ودفاتري ..يجدون موضوعا انشائيا كنت قد كتبته وقدمته الى استاذ العربية عن الحرية والجلاء والتضحيات البطولية في سبيل الوطن وما شاكل ذلك من كلام واحلام مراهقي طلبة المدارس ..أخذوا الموضوع الانشائي كمستمسك او لنقل كحجة للامر الصادر من القلم السري بالاعتقال الواجب تنفيذه .
..اقتادونا انا وفرات الى مركز شرطة حلوان..اودعونا الموقف (التخشيبة) المكتضة باللصوص والفتوات ..كان الامر بالنسبة الي مثيرا وبطوليا ومغامرة سندبادية سحرية جميلة غامضة لولا!! .. لولا البق(تخته كالوسي) الكافر اللعين..غمامة الدخان والروائح النتنة و الظلمة والارض الكونكريتية للنوم كانت كلها تهون بل وقد تستحب كمغامرة ارويها فيما بعد للساتي عبد الرحمن ، وشرف تاج

السر، وعشماوي ، اصدقائي في العنبر، ولكن ان يدبي عليك البق وتحس بمساره كالسلك المتوهج فوق جلدك ولا يفيد به الهرش وحك الجلد حتى الادماء ولا ينفع فيه ان تخلع ملابسك الداخلية في الظلمة وتتحسها لعلك تعثر على واحد من زمرة الاعداء الخفية فهذا هو العذاب الاليم ..
..يخف هجوم البق بعض الشيء بزحف نور النهار من تحت بوابة التخشيبة الثقيلة المغلقة ومن حواشيها .
..يفتح الباب وينادى الشرطي على (عبد المعطي حسنين) الضخم، ذي الشاربين المعثكلين ، ويقدم اليه سرّة تعبق منها رائحة الكباب و الثوم والبصل..
- " بسم الله يـ اخواننا.. اللي ما يحبش النبي ما يمد ش ايده .. دي من أم عيالي والعسكري في النوبة أخذ حقه واصلْ من البقشيش ده يبئه حرام اللي ما يمدش ايده ويشارك "
.. لا نعرف كم هي الساعة والوقت الذي يمر ببطء كبير ..فرات يدخل في احاديث ونكات واقاصيص مع جمهرة الموقوفين ويشاركهم سجائرهم ..أنا اعود من جديد الى الهرش والبحث عن العدو المتخفي بين الثياب .
.. يفتح الباب على سعته ويقف ضابط المركز ومساعده وتعلو وجهيهما ابتسامة مرحبة ..الضابط ينادي :
- فرات بيه ..فلاح بيه يالله بينا .. والله دحنا زارنا النبي .. ما علش والله ولا كنتش عارف مين ابن الكلب اللي عملها دنا حاوديه في داهية ..دنه ماكنتش هنا في المركز الليلة اللي فاتت .. تفضل يابيه! .. تفضل يا بيه!..
.. في غرفة الضابط نجد رجلاً في الاربعينات في بدلة سوداء انيقة رسمية وصديري ورباط عنق حريريين .. ينهض من مقعده بدخولنا وابتسامة ترحيب ودودة على وجهه ..يحتضن فرات ثم يحتضنني .
- والله الباشا غضب غضبا شديدا لسماعه بالحادث ..وارسلني.. المعذرة انا لم اعرّف نفسي : انا محمد سعيد العريان مدير مكتب الباشا وقد ارسلني فور سماعه بالحادث الى حلوان ..انها غلطة غير مقصودة .. والله غير مقصودة .. الباشا الكبير ابونا طه حسين الله يطيل في عمره ويحفظه يرجو منكما ان تنسيا الحادث .. وهذه هدية من الباشا اليكما .. انه في مقام الوالد .
.. قدم الاستاذ محمد سعيد العريان مظروفا فتحناه حين وصلنا الى مقهى رضوان القريبة فوجدنا به خمسين جنيها وبطاقة شخصية تحمل اسم (الدكتور طه حسين - وزير المعارف) .
.. كان فرات قد تمكن في فوضى المداهمة والاعتقال الليلة الفائتة من نقل رسالة شفوية على لسان زميله السوداني، الى اختي اميرة في قسم مدرستها الثانوية الداخلي كي تتصل بتلفون الباشا المباشر وتطلعه على الامر..بعد بضع ساعات من النداء الهاتفي وصل العريان الينا ومعه هدية الباشا العظيم طه حسين .
تتواصل المظاهرات ..تجد التظاهرة في ثانوية الخديوي توفيق- ثانويتنا - نفسها في خمول وبرود لا تحسد عليه وهي تخرج تتقدم صوب بوابة المدرسة المشرعة دون عبد االرحمن (هتّافها السوداني الثوري)..غمامة الخيبة والحزن تلف الجميع ..

.. ضبط (الهتّـاف البطل) وهو يتسلل عند منتصف الليل ليدخل تحت اغطية سرير (فيصل) الصبي الفلسطيني الابيض الاشقر الجميل ويلتصق به.
.. نصحو على صراخ متعال ونقف مصعوقين ذاهلين وهتّـافنا يقاد من مجموعة من الفلسطينين الكبار وبيدهم العصي الغليضة الى زاوية الرواق في عنابر الصغار (القائد الهتاف) يبكي ويصرخ مسترحماً (دخيل النبي .. أنا في عرض النبي .. ابوس ايديكم ارحموني .. انا في عرضكم يا شباب .. والله ما كان قصدي .. والكعبة الشريفة انا كنت بامشي في نومي .. وربنا ما كان قصدي) .. ننظر بقرف الى سرواله الذي يتبلل ويسيح من تحته فوق ارضية الرواق الخشبية بل ولقد شمّ البعض رائحة البراز وهو يقاد قريبا منا وهناك في الزاوية القصية عنبر السنة الثامنة والكل ننظر اليه بخيبة مريرة وذهول وحزن مقرفصا صارخا مسترحما باكيا متوسلا والعصي والركلات تنهال عليه والدماء تسيل من انفه ورأسه حتى تدخّـل كبار آخرون بينهم سودانيون هم محط احترام الجميع فاوقفوا المجموعة الغاضبة المعاقبة قبل ان تنهي حياته .. جرّوه من شعره المدمى وهو يإن بصوت واهن الى الطابق الارضي وقاموا برميه وهو بين الحياة والموت في حدائق القصر العتيق
..في الصباح والتجمع يتزايد استعدادا للمظاهرة الكبيرة لليوم الكبير الذي يتوقع ان يعلن النحاس فيه الغاء المعاهدة ، لم نجد له اثرا في حديقة المدرسة ولا في اي مكان آخر منها .
تتعاظم الاحداث .. مصطفى النحاس يعلن الغاء المعاهدة الانكليزية المصرية ويطالب القوات الانكليزية المرابطة في القناة بالرحيل عن مصر .
نجد هتّـافا آخر وإن لم يكن ثوريا لاهبا (كعبد الرحمن الخارج) وهو اللقب الذي اطلق عليه من يوم الحادثة .. ننظم الى المظاهرات الاخرى في حلوان فيعود حماسنا ونشاركهم اصواتنا المتعالية (حبيب الامة النحاس) (طبيب الامة.. النحاس) (الجلاء التام او الموت الزؤام) (الموت للاستعمار) ..نحتل القطار المتوجه الى محطة الدقي في القاهرة ولا يسالنا احد عن اي تذكرة
..من على الشرفة الكبيرة نصف الدائرية وبحضور الوزراء وقادة الاحزاب السياسية يعلن النحاس اسقاط المعاهدة ويطالب القوات الانكليزية المعسكرة بالجلاء .
.. تبدا حركات المقاومة المسلحة في القناة ، فرات يسجل اسمه مستعدا لبدء التدريب على السلاح .. انا وعشماوي نتقدم بطلباتنا فيرفضوننا دون اشعارنا اننا دون مرحلة الرجولة وبلطف يشكراننا .." يعوزنا السلاح الآن للمقاومين لدينا ولكن حين نوفر السلاح ستكونان في اول وجبة من الرجال تلتحق بنا "
تهتز القاهرة من جديد بالتظاهرات الحاشدة وتظهر شعارات جديدة مرفوعة وهتافات عالية (من لا يحكم أمه لا يحكم أمة) في اشارة لنازلي أم فاروق ومباذلها..(يسقط فارو ق الانكليز) ..(فارق! فارق ! يا فاروق)..
..
غائب يريد الخروج من المصح والالتحاق بالمقاومة فيقنعه فرات بان الصراع سيطول وعليه ان يستعيد صحته وقواه استعدادا لمعارك قادمة .

.. نوبات الربو تهاجم غائب بفترات اقصر وخصوصا حين يسرح بافكاره متوحدا او حين ينفعل اثر نقاش سياسي او عند تذكره للاحداث الدامية الدائرة فنأخذ دورنا انا وفرات بالتناوب، اما باشغاله بالاسئلة او بلعب بضعة ادوار من الشطرنج معه او في التنزه معه في الحديقة اليابانية اوالسيرعلى طريق العين الصحراوي المنفتح على الافق الرحب مبعدين -قدر المستطاع-ان ندخل في الاحداث العنيفة الجارية .
..القوات الانكليزية تدخل مدينة الاسماعيلية بعشرات الدبابات والمجنزرات والدروع فيتصدى لها الناس العزل وبضعة افراد من المقاومة باسلحتهم البسيطة .
.. يقف رجال مخفر الشرطة ببنادقهم العتيقة امام الجيش المتقدم وليسقطوا حتى آخر فرد منهم شهداء مضرجين بدمائهم .

كاتب الصفحات وغائب وحسب الشيخ جعفر

(2) لقاءات في موسكو

وصلت اخيرا الى موسكو عبر البحر والبر وهي مغامرتي السندبادية الرابعة بعد مصر ثم انكلترا فسوريا (رحلتي السندبادية الحالية وانا على مشارف الثمانين هي السابعة وقد يخبيء الغيب رحلة ثامنة بعدها فاتعدى اساطير السندباد السبعة).
..كل شيء زاه مشرق، حتى الثلج الذي يغطي كل معالم المدينة عند وصولي مختلف عن الثلج الانكليزي الذي لسعت بسعيره ولعنت جحيمه .
لم يكن في موسكو آنذاك سوى ثلاثتنا نحن الطلبة العراقيون، محمد علي، ومصطفى ابن خالتي القادمين بزمالة من الحزب، وانا القادم بزمالة جديدة اسمها (زمالة الجواهري)، والذي حار السوفيت في اي (خانة) سيضعونها، الى أن هداهم باريهم فوضعوها في خانة زمالات الشباب العالمي .
كان هنالك من العراقيين الاخرين (شاهين) الشيوعي اليهودي الهارب وهو متفرغ لمناقشة اطروحته القريبة و(مسرور كتانة) اليهودي الهارب الآخر والذي يعمل في اذاعة موسكو والمجموعة القيادية الكردية البارزانية وعلى رأسها مصطفى البارزاني، التي تنزل في فندق موسكو الفخم تهيئا لعودتها الى العراق .
لا سفارة ولا ملحقية ولا قنصلية عراقية بعد.. وها نحن -الفرسان الثلاثة- بعد بضعة اشهر سنكون في استقبال افرادها القادمين بالتقسيط .
شاب من بيت كاشف الغطاء يصل كسكرتير للسفارة فنستقبله ونسعى معه لدى السلطات الرسمية وكأننا افراد ضمن كادر السفارة لنهيء مكان اقامته، ونبحث معه ومع السلطات عن اختيار موقع وبناية السفارة الانسب لها ..ويطول البحث دون جدوى ولحسن حظ الجميع ان الوقت كان وقت عطلة الجامعات .. يأتي سكرتيرآخر ويتكرر المشهد السابق نفسه..
..لا مكان مناسب للسفارة بعد فتقرر السلطات وضع جزء من احد الفنادق واحدى صالاته مكانا موقتاً
.. يصل عبد الوهاب البياتي .
.. البياتي اول ملحق ثقافي يعين في موسكو .. استقبلته بترحاب فقد عرفته من ايام دمشق، وقد صممت له آنذاك كتابه الشعري المترجم (عيون إلزا) للشاعر الفرنسي أراغون ووضعت تخطيطات رسومه .
..بدأنا نحضَرمع اعضاء السفارة الثلاثة كل الحفلات والمقابلات التي تقيمها الدولة والسفارات الاجنبية لنقوم فيها بدور الوسيط والمترجم ..
.. (ابوعلي) يستخدم كل هذه المناسبات وغيرها حاملا رزمة من مجموعته الشعرية الجديدة-بالعربية- ويقوم باهدائها الى الشخصيات المهمة سواء اكانت ادبية اوسياسية او عسكرية .

..يصل الى موسكو وزير الصحة محمد الشواف فنكون في معية المستقبلين السوفيات ونرافقه واعضاء السفارة الثلاثة في اسقبالات الاحتفاء بقدومه الى موسكو ..
..تدور معارك المحاولة الانقلابية لعبد الوهاب الشواف في الموصل ..يلقى عبد الوهاب مصرعه ويذاع الخبر وحفلة الاستقبال لاخيه محمد الشواف قائمة في نفس الليلة ..إنه موقف محرج تماماً..
..وزير الصحة واخو الشواف القتيل في كامل هدوئه ووقاره يتحدث عن امور عامة مع وزير الصحة السوفياتي ومع موظفين كبار في الوزارة ومع اعضاء من السلك الدبلوماسي وحضور جنرالين سوفيتين ..نحن وقد كنا في معيته في الاستقبال وفي زيارته في مكان اقامته بدار الضيافة، نتشاور فيما بيننا ..يأتي الينا مندوب عن القائمين على حفل الاستقبال لإستشارتنا عن التقاليد المتبعة لدينا في ضرف معقد كهذا..نقترح ان يعزى الوزير باخيه وان يستمر الحفل بحضوره وكأن شيئا لم يكن ..يأخذ القائمون على الحفل بنصيحتنا .
يعلموني بوصول غائب الى موسكو فافرح كثيرا فلا تزال ذكرى لقاءه في حلوان عالقة في ذهني ..ازوره في غرفته في فندق موسكو وآخذه بحرارة باحضاني..فيصطبغ وجهه الطفولي بنفس الحمرة الخفيفة السابقة التي لا تبارح ذاكرتي..هو ذاك الغائب حتى هيئته الجسدية وقيافته لم تتبدل الا قليلا، بعض الامتلاء وعوينات سميكة جديدة ..ادعوه الى الخروج للعشاء .
.. في مطعم ارمينيا بانارته الهادئة وروائح اطعمته المتبلة ومع قدح النبيذ الارميني المميز يطلعني غائب-الذي يشرب باعتدال آنذاك- بلثغته الطفولية وتقطعاتها عن جولته من مصر فالعراق ومن ثم الى صين ماو الجديدة حيث عمل في قسم الترجمة، وها هو الآن يحط رحاله في موسكو بعقد عمل جيد في دار النشر باللغات الاجنبية في موسكو(رادوغا لاحقاً) مع توفير سكن لائق كأحد شروط العقد ..دار النشر تبحث له الآن عن شقة مناسبة مع وعدهم بأنه سينتقل اليها قريبا .
.. انتقل غائب بعد وقت قصير الى شقته الفارهة غير بعيد عن جامعة موسكو الذي افلحت (بالطرق المائلة) بأن اقضي في سكنها الطلابي، وهوفندق ذو خمسة نجوم، ردحا من الزمن
لم يمض طويلا على لقاءنا الاخير حتى سقط غائب، الذي لم يعرف علاقة حب جسدية في حياته، من على سطح شقته الفارهة في الطابق الثالث الى اعماق (أينا) المليحة الشكل والأهم ليسقط اعمق لمعرفته بانها تعد اطروحتها عن (توماس مان) الذي يعشق غائب ادبه ..غائب مطمح اية فتاة في موسكو براتبه الكبير بالعملة الصعبة وبشقته الفارهة (..كانت حصة السكن آنذاك في موسكو 6 امتار مربعة للفرد الواحد) .
ادعوهما الى مطعم جميل مطل على نهر موسكو ..

غائب في قمة انشراحه ومرحه وانطلاقته يروي لقطات مضحكة نادرة مرت عليه في ازقة بغداد القديمة او نوادر من مصر او غرائب الصين ..

إينا صامتة مطرقة الرأس في اغلب الوقت..لاتخفي حرجها من انها تجالس شرقيان غريبان في المطعم المكتض بزبائنه الروس ..غائب يتودد اليها بحذر بانكليزيته الطلقة ويحاول ان يكسر بعض صمتها فلا يفلح فاسارع الى نجدته من حين لآخر لاتحدث معها بالروسية..
.. على مائدة قريبة عليها قنينتا فودكا واقداح وحولها بضعة رجال يتحدثون بمرح وبصوت عال، وبالطبع لا يمكن في جلسة روسية منفتحة مثلها إلا وتطعم كل عبارتين على الاقل بذكر الاعضاء الجنسية.. " وذهبت الى المكان الاول فلم اجد (ني خويوي)..ثم عرجتُ بعدها على المكان الثاني فلم يكن هناك (ني بيسدا)..(يوب تفويومات) واصلت البحث (ني يوب، ني جيرتا) فلم اجد شيئا.."
.. اكفهر وجه إينا وتحدثت هامسة بضع عبارات في اذن غائب بغضب ..احمر وجهه وقال بصوت متلعثم : " هلا تحدثت مع من هم حول الطاولة المجاورة ان ينتبهوا ان بجانبهم سيدة محترمة " ..
اطعت، ومبتسما نهضت وتوجهت الى المائدة القريبة وبما يقرب النكتة قلت " وددت لو اني شاركتكم الحديث ولكن هنالك سيدة الى جواركم ترفض ذلك..ساكون شاكرا!"
.. ولم نسمع منهم اي كلمة تطعيم روسية اخرى بعدها، ومع ذلك فقد تحدثت بهمس مرةاخرى اليه ..احمر وجه غائب من جديد وهو يعتذر مني-انا صاحب الدعوة- وبصوت ازداد تلعثمه، بان عليهما مغادرة المكان لاعياء مفاجيء اصاب إينا .
.. عند باب المطعم غادرتهما معتذرا باني ساتركهما لحريتهما في طريق العودة .
.. لم ار إينا بعدها ابدا رغم تسللي الى غرفة غائب مرات عديدة في الشقة التي يسكناها سوية فيما بعد .
أينا تتزوج غائب بصمت وبشكل شبه سري ..

تصل المجموعة الاولى من الطلبة العراقيين القادمين الموفدين من الحكومة العراقية ،كان على كل طالب ان يدفع كل قادم مبلغ 160 دينارا عن كل عام يقضيه في الاتحاد السوفياتي وهذه المبالغ ستحوّل بدورها من وزارة التعليم العالي الى البلد المضيف .
يصل اخي الاصغر كفاح الى موسكو..لم تطل فرحتي بقدومه كثيرا، فهم ينوون ان يضعوه في مدينة اخرى غير موسكو ..احاول التوسط لدى الصديق محمد علي ، الذي اضحى زعيما طلابيا كبيرا لابقاء كفاح بقربي في موسكو فيدير لي ظهره .
بحضور حشود الطلبة الاجانب من اقطار المعمورة العديدة وبعد ان فتح زمن خروشوف بعض اسوار الستار المنيع ، كثرت اللقاءات والإحتفلات الطلابية في جامعة موسكو او في قاعات الكليات الاخرى خارجها ..
..يغيب غائب عن كل ذلك
..يرن الهاتف في صباح باكر من يوم الاحد فاسمع موظفة الاستقبال في الجامعة على الطرف الاخر من الخط ، تعلمني بان ضيفاً يرغب بلقائي.. اهبط فاجد غائب..ادعوه للدخول فيعتذر ويقترح ان نسير في مماشي الجامعة وحدائقها المطلة على نهر موسكو .

نتهادى بسيرنا وغائب صامت سارح بافكاره..احترم صمته واسير الى جانبه دون كلمة .
يكسر حاجز الصمت ويسألني وهو مطرق براسه وحزن شفيف على وجهه :
-هل يمكنك ان تطلعني على بعض قوانين الوراثة..او على الاقل اساسياتها المبسطة؟
- ذلك يعتمد على اي جانب فيه .
- العنصر القوي و الضعيف في الوراثة .
- تقصد الصفات المتغلبة والصفات المتنحية ..
- نعم نعم بالضبط هذا ما اريد معرفته .
- خبرني ياغائب هل هو مشروع رواية جديدة ..ولكن لا ! لا اعتقد ان تساؤلاتك ترمي الى هذا الغرض ، فنحن في وقت مبكر من الصباح ووجهك تعلوه كآبة غريبة علي .
اطرق براسه من جديد وصمت فترة من الزمن ..استند على حافة مقعد خشبي لجلوس المتنزهين ثم قال بحزن ..
- (إينا) حامل .. قالها بقلق وعاد الى صمته من جديد .
احتضنته بحرارة وبضحكة وبلهجة مازحة ساخرة :
- وهل يحتاج ذلك الى هذا الوجوم ..إنه خبر عظيم مفرح .
- لا اعرف..لا اعرف ..إينا تخشى ان يكون المولود القادم شبيهاً بي .
استدرت اليه بتعجب وببعض الغضب قلت بصوت عال:
- اللعنة ..وما الخوف من ذلك ..ما الخوف أن يأتينا غائب آخر ..غائب جميل بوجهه البريء ببسمته الحلوة..غائب بفكره المبدع الخلاق ..كم غائب لدينا يا غائب ..وواصلت حديثي المطَمْئن الغاضب .
صمتَ غائب وسرح ببصره بعيدا عني واكتسى وجهه بحزن عميق ..
- انا لا اريد ان أخسر إينا فانت تعرف انني احبها ..لقد لمّحتْ لي الى اجراء اجهاض لهذا الحمل ..أنا لا اريد أن أخسر إينا .
..غائب يبدأ بالاكثار من تناوله للكحول ..
..يفرط غائب في تناوله الكحول .
أتسلل لوحدي الى شقته او نتسلل انا ومحمد بين فترة واخرى فنجلس في غرفته ..ها هو المرح يعود الى وجهه من جديد .
- " اربعة من النسوة يلففن عباءاتهن حول اجسادهن ينظرن بحيرة وببعض الفزع الى كومة القمامة .. هنالك لوح خشبي صغير مرمي فوق سطحها في الزقاق..لوح رماه طالب طب يسكن في الجوار..على اللوح ضفدعة مشقوقة البطن والصدر ثبتت من اطرافها بدبابيس اربعة .. مدماة الاحشاء يخترق رأسها من الخلف دبوس خامس ..بعد ان نظرت كل واحدة الى الاخرى بتساءل ..قالت الاولى " يُمه هذا سحر ملعون..بس مِنو هووه اللي مْسَويهْ وإلمنْ ؟!" .."اكيد مسويهْ لبنت الخايبة هذي العروس الجديدة ، ضرّة أم هاشم .." قالت الثانية .." ليش ما تكولين مسويته هاي الكحبة ام عدولي لبنتي اللي نجحت بالبكالوريا وراح تدخل الكلية..تعرفون آنه رديتها من جَتّي تخطبها لابنها الاغبر عدولي " .."هسه كولَـنْـلي شلون نْبَطِلْ السحر هذا ؟!

" قالت الثالثة .." ما كو غير يْنْـرَش عليه عظام مهروسة لدجاجة ميتة وبايلة فوكها عجوز حاجة بيت الله ".. واستمر حوار النسوة الاربعة لفترة طويلة ."
كان غائب يروي مشاهدته للموقف هذا من نافذة غرفته في الزقاق بـ(قنبرعلي)
.. ربما سيضع هذا المشهد في رواية قريبة يكتبها ، هذا ما تبادر الى ذهنينا ونحن نستمع اليه .
أعرف منه ان زوجته قد غادرت الى دار استراحة مدة ثلاثة اسابيع للاستجمام في احدى ضواحي موسكو ، منطقة جميلة اعرفها بغاباتها وبالبحيرة الواسعة قربها .. اكثر من زياراتي له في شقته.. نتحدث اغلب الوقت في المطبخ حيث ينشغل بهدوء باعداد الطعام الذي تحبه (إينا) فوجبات دار الاستراحة لا تعجبها، وبعد ان يكمل اعداده يضعه بترتيب انيق في علب مناسبة ثم يضع العلب في حقيبة يدوية..يزورها بحقيبته هذه كل يوم رغم أن الو صول الى هناك يستغرق ساعتين .
نخرج انا ومحمد معه في الايام المشرقة ، الى احدى المطاعم المفتوحة القريبة ..وجهه دائما تعلوه ابتسامة رقيقة او ينطلق احيانا بضحكة يشرق فيها غالبا، وذلك حين نتطرق او يتطرق هو الى سرد نكتة مضحكة او حكاية غريبة .
- " .. يبدو ان الاستراحة التي ارادها (ين هاو) لبضع دقائق وهو في مسيرة الالف ميل للرفيق ماو، قادته الى اغفاءة طويلة لم يصح منها إلا ومسيرة الرفاق لا ترى سحابة غبارها في الافق القريب او البعيد ..نهض ين ووضع معداته المرزومة على ظهره وسار فيما يظن بانه اتجاه مسيرة الرفيق ماو الكبرى .. مضى نهار كامل وهو يسير تحت لظى الشمس الحارقة والعرق يتصبب منه بغزارة وبدأ العطش يجفف حلقه ..اخرج زمزميته ووضعها على فمه فلم يجد فيه إلا قطرات زادته عطشا ..تابع سيره حتى واتاه الظلام وقد اخذ التعب منه كل مأخذ ، لكن ين قرر الاستمرار في السير لعله يلحق بالرفاق عند مطلع الصباح..ين يصل الى مرحلة الاعياء ، ويشاهد وهو يجرر اقدامه بصعوبة ،عين ذئب تتلامع عن شماله في الظلام ..عرف ان الذئب يتابعه منتظرا أن تخور قواه فيهجم عليه ويفترسه..بدأت تباشير الفجر ولا يزال الذئب يرافقه غير بعيد عنه منتظرا فرصته حين يتخاذل..ها قد وضح النهار وين يوشك ان يقع مغمى عليه من الاجهاد والعطش والذئب يواصل مشيه عن شماله..ايقن ين انه سينهار وانه واقع حتما فريسة للذئب المترصد..اوشك ان يستسلم ويستريح من عذابات الارهاق والعطش الممضين..ولكن ين وهو رفيق المسيرة الكبرى لفترة طويلة، قرر ان يقاوم وأن يشحذ ذاكرته ليستعيد وجه الرفيق ماو وتظهر صور كفاحه وصلابة سيره ..افلح ين في محاولته وما أن يظهر الرفيق البطل ماو امامه في ذاكرته حتى ينظر الى شماله فيرى الذئب وهو يهرب بفزع مبتعداً .." يقصها غائب ضاحكا وهو يروي بعض ذكرياته عن عمله في الترجمة في الصين ، ويعقب " لقد كنت في ورطة محرجة فكيف لي ان اقنعهم بان نشر مثل هذه الاقصوصة ستجعل منهم سخرية للاخرين ، وإن لّم اطلعهم فستنشر القصة مع اسمي ، أنا مترجمها.
..غائب يفرط بالشراب حتى الضياع..يشرب دائما خارج البيت مع الصحبة القليلة التي تروقه ويعود في ساعة متأخرة من الليل إن افلح في الاستدلال على مكان

اقامته. تحل هذه المعضلة بمعرفة النديم المرافق لوضعية غائب فيصحبه الى باب شقته .

..قبل ليلتين من راس السنة الجديدة نحتفل مع غائب بقدومها في مطعم غير بعيد عن بيته..غائب يفرط في شربه للفودكا كالعادة فيسكر ويكثر في حديثه ونكاته وضحكه وتلعثمه ..انا ومحمد نحتفظ ببعض وعينا .. يصر غائب في طريق العودة الى منزله ان نعرج على مخزن كبير لا يزال مفتوحا في هذه الساعة المتأخرة لنشترك في قنينة من الفودكا ، كعادة الشاربين الروس آخر الليل..نحاول ان نثنيه عن ذلك فيصر ضاحكاً..هناك وبعد ان وضع قنينة صغيرة في جيبه، يلمح بائعة اسماك جميلة ..فيمازحها فتسأله عن طلبه فيشير ضاحكاً الى اسماك سردين صغيرة نيئة.. تزن حفنة منها وتناوله كيس السمك .. يحمله بيده ويمشي معنا حتى نقترب من مجمع سكنه فيصر على ان يذهب الى شقته لوحده..نقتنع اخيرا ونفترق .
..يقف الى جواري في عربة قطار الانفاق شاب رشيق مزوّق في اناقته ، يلمع وجهه بمساحيق ودهون التبرج، ويضع في احد اذنيه حلقة ذهبية ..يبادرني الحديث فاجيبه بمرح المنتشي في سكره ..يقول انه راقص باليه في البولشوي وقد انهى دوره هذا المساء وها هو يعود الى مسكنه الموحش الخالي من الرفقة ..فاجاريه واتعاطف معه في وحشة وحدته..يدعوني ان ارافقه لنقضي ليلة عابثة معا فهو في شوق الى رجل (قوي) مثلي..اعتذروانامستمر في تمثيل دوري كرجل مثلي شبِق، وبه رغبة لشاب جميل رقيق مثله..اربت على عجيزته واعداً اني ساوافيه حتما في الغد والبي رغبته .
.. محمد ينجح في الوصول الى باب غرفة حبيبته في الدور المخصص للبنات من عمارة السكن الطلابي في احد اطراف موسكو..حين لا تفتح الحبيبة الباب استجابة لطرقه العنيف المستمر ونداءاته العالية الملحاحة، يهدد اولاً بانه سيطعن كفه بسكين يحملها معه ويسمرها بالباب ، وحين لا تفتح الحبيبة الباب تحت هذا التهديد، يجمع من سلال النفايات القريبة رزمة كبيرة من الورق ويشعل النار فيها محاولا احراق الباب المغلق..يُستدعى حرس العمارة الخافرين ليشدوه ويرموه خارجها .
.. غائب يصحو ليجد نفسه ممددا فوق مصطبة في احد المتنزهات في منطقة تبعد باكثر من عشرة كيلومترات عن منطقة سكنه..يبحث عن تاكسي وهو يرتجف ويكاد يجمد من البرد القارس..يوصله التاكسي الى باب العمارة التي يسكن فيها..يمد كفه في جيب معطفه ليدفع اجر السائق فتخرج يده لزجة مليئة بسمك السردين الصغير النيء .
..حين نذهب انا ومحمد للاطئنان عليه، متسللين كالعادة بعيدا عن اعين العدو المترصد، يقص علينا وهو يضحك بانطلاق ومرح كبيرين حكاية المتنزه ودفع اجرة التاكسي بحفنة من السمك ..نحكي بدورنا مسرحية قطار الانفاق وراقص الباليه المثلي ، وقصة محمد الفضائحية التهريجية الصاخبة .

انتهت جلسة التوديع الاحتفالية في مطعم مطل على النهر غير بعيد عن بيت غائب

..افقدت كؤوس الفودكا التي كرعها غائب توازنه وزادت من لثغته وتلعثمه، وكان علينا وكالعادة في السنتين الاخيرتين أن نرافقه حتى باب شقته كي لا يصحو في اليوم التالي ويجد نفسه ممددا في احدى الحدائق العامة او فوق سلالم عمارة في حي آخر غير منطقة سكنه .
اسندناه انا ومحمد عند باب شقته..قرعنا الجرس وهربنا بسرعة نازلين الى زاوية السلم المعتمة في انتظار أن تفتح زوجته إينا الباب..اطمئنينا على دخوله منزله دون اضرار ثم انصرفنا .

لم يكن في وداعي في مطار شيرميتفا غير لودا الباكية.. اقبلها من عينيها الدامعتين.. واحمل حقيبتي الصغيرة واتوجه الى الطائرة مغادرا موسكو .

أحمد النعمان الفنان والصديق الذي رحل منذ زمن قريب وترك الم فرقة وشوق ..وفراغ ، كان يروي بمحبة كبيرة لقطات من علاقته الحميمة بغائب من السبعينات وحتى رحيله وزياراته المتعددة له في مرسمه او في بيته الصيفي (الداجا) في ضواحي موسكو وبالطبع منادمة غائب الحلوة المرحة في كؤوس الفودكا .
في لقاءهما الاخير في البيت الصيفي..غائب يتنفس بصعوبة ووجهه متوزم شاحب ولكنه لا يفقد مرحه وسرد طرائفه بعد ان تؤدي الفودكا مفعولها السحري في فتح ابواب النفس وانطلاقة اللسان وفي نهاية الجلسة العامرة بالكؤوس والاطعمة اللذيذة التي يجيد احمد اعدادها ، يطلب منه ان يملأ بالفودكا قنينة دواء فارغة يحملها غائب ليأخذها معه الى الدار بعيدا عن عيني إينا زوجته التي تستعد للسفر بعد يومين -دون رفقته- للاستجمام لمدة شهر على شواطيء البحر الاسود.. يرفض احمد ذلك وهو يحتضنه بحرارة مداعبا.. يستدير غائب ليغادر .. يقول عبارة تحببه المعهودة لأحمد .. " من عابثْ لكْ هاالوجِه" ، ويكون هذا لقاءهما الاخير.
.بعد يومين من هذا اللقاء يرحل غائب بعيدا ويغيب في مجاهل اللاعودة .

رسالة من الجواهري الى غائب :
أخي الحبيب ابا سمير
لوتعلم كما انا حزين عليك، آسف على فقدانك حتى لاكاد استمحيك العذر في ان استبق بهذا كل الحزينين عليك، بلدك الحبيب الشامخ امامك حتى الرمق الاخير، وكل الموهوبين والملهمين الذين يشاركون اليوم في ندوة تكريمك ومن هنا وهناك وممن تعرفوا عليك، خلال ابداعاتك وانجازاتك والواحك الملونة والاصيلة ومنها (نخلتك وجيرانك) . ولا ادري من منا كان قد استبق الاخر، فلربما قد ذكّرتني ولربما ذكّرتك، وانا اناغي ايضا نخلتي وجيراني ، عندما اقول :
وسدرةٌ نضدها خُضرٌ وساقيةٌ وباسق (النخل) معقوف العراجينِ
حبيبي الغائب ..
يا ابا سمير هذه لوعة من القلب وعلى الورق، لم اردها ان تكون برقية يتآكل البرق من الخاطب الكثير من وجهها وحرارتها . وانما اردت منها مجرد الاشارة الى أنني

انتظر بلهفة اليوم بل الساعة التي يسعفني بها الزمن وانا غير مرهق ولا مثقل بالهموم وغيابك في الصميم منها، بل ولا انا عاجز ان اضع القاريء في الصورة منها، من بعضها، من واحدة منها .
وفي ذلك اليوم وفي تلك الساعة ساكون سعيدا انني عرفتك فناناً وانساناً وطفلاً بريئاً، وهذه (الماسات) الثلاثة المقدسة التي اعرف ويعرف كل قاريء كم هي الكثرة الكاثرة التي تحمل المزيف منها والمصنوع والمقَلد، ولكنني لا اعرف ولا المنجم يعرف، من هم وكم هم الذين يجرؤون أن يقول الواحد للاخر او الآخر انني أحملها انني امتلكها، انني استحقها، انني انا الفنان، انا الانسان، انا الطفل البريء .
يا ابا سمير لقد طوت العصور الف بساط وبساط من اثمار السلاطين والفراعين والمترفين، ولكنها لم تُقدِر ولم تَقدَ ر ان تسحب بساطا واحدا من تحت اقدام فنان اصيل . ولا ان تمحو اسماءهم وثمارهم ولا فرحهم ومرحهم (وهم يحملون همومهم على منكب وهم سواهم على منكب) ولا انهم يستعجلون الموت حبا منهم بالحياة، وبساطك الاخضر الساهر والسامر واحد منها .
أخي غائب
إن مدى حبي لك هو قصوري وتقصيري معاً في أن أعبر عنه، أما مدى حبك لي فهو نـفَس من انفاسك الكريمة والاثيرة والاخيرة .
اخوك محمد مهدي الجواهري

الجيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن

الجيلي عبد الرحمن

تاج السر الحسن

يرن جرس الهاتف ..بدالة المستشفى ..
-آلو ، صباح الخير دكتور .. لحظة رجاءً .. وزا رة الاعلام معك على الخط
"العياذ بالله من هذا الصباح المشؤوم ..لابد انها دعوة للمشاركة في معرض القادسية العظمى .."
-آلو .. صباح الخير دكتور .. هنالك ضيوف من وفد سوداني مدعو من وزارة الاعلام يسألون عنك .. إنه الشاعر تاج السر الحسن ومدير الاذاعة والتلفزيون السوداني ..هم ينزلون ضيوفا في فندق بغداد

* * *

عادَ هتلر ! ..عادَ هتلر !
عادَ هتلر ، بثيابٍ عربيه وبخنجرْ
وخميسٌ في المحلةْ
رأسهُ من طرفِ الحبلِ تحدّ رْ
عادَ هتلر !

كان الصوت عميقا مجلجلا في القاعة الضخمة
- من هو هذا المارد الاسمر الجميل ؟ ، سألت صاحبي بصوت خافت
-إنه تاج السر الحسن

وكانت حقا ليلة مثيرة من عام 1960 في جامعة موسكو، ليلة تاج السر ، وحسب الشيخ جعفر والجيلي عبد الرحمن ، ومعرض ماهود وفلاح والنعمان وسلمنصوري ، ذلك المعرض الذي اغلق ساعة افتتاحه لتعارضه مع مسار الواقعية الاشتراكية الحديثة .
.. ثم جاء(زلوني دو م) ، حيث القسم الداخلي لمعهد غوركي للادباء لصق قسمنا الداخلي ، وانتظمت فيه مجموعة فوضوية صاخية نواتها الجيلي وحسب وماهود وا نا ، المجموعة ذاتها التي احترمت ، رغم عبثيتها ، خصوصية تاج السر ولم تخترق معبده الوادع ، واكتفت بمحبته الصامتة في زيارات قصيرة اليه في غرفته المتواضعة في القسم الداخلي .

.. نتفق ، ونلتقي ، ونتآمر ، و نتسلل كاللصوص من غرفة حسب على رؤوس اصابعنا ، خشية ان يحسّ الجيلي بخروجنا .. نفرح حين نعبر بوابة القسم الداخلي المعتم الى رحبة الساحة المقابلة المضيئة .. نقف في انتظار الباص التالي داعكين اكفنا تلمّساً للدفأ ..اسمع صوت حسب اليائس " ها قد خسرنا صيد الصبايا هذا اليوم " .. من زاوية بناية القسم ، يبرز شبح بجبته العتيقة السوداء ، والتي اسميناها مجازا معطف غوغول ، بشعر منفوش كعش لقلق .. يسرع بخطواته المتمايلة وتبان ابتسامة منتصرة على وجهه غيرالحليق ، ويبان بياض الساد في عينه اليسرى كغمامة صغيرة تتأرجح كالبندول شمالا ويمينا في حدقته الدامعة على الدوام .. إنه الجيلي ولا احد غيره .
- إنكما لن تستطيعا الافلات مني .. لقد تابعت تهامسكما امس ، وايقنت انكما خارجان لصيد طازج عند الصباح . .كنت اتسمع دبيبكما ، وتيقنت حين ابصرتكما من نافذتي ، تعبران الساحة الى موقف الباص كلصين .. إنكما حقا نذلان صغيران .. لن تهربا مني ابدا .
نسلم انا وحسب امرنا الى الله ونجلس ثلاثتنا بعد ساعة جلسة عزباء ، في ركننا من مقهى الشباب بشارع غوركي ، وينظم الينا في الموعد ماهود واحمد النعمان وجرجيس ..
.. نكتفي من امرنا بالنظر الفتيات عن بعد ، الى ما كان يمكن ان يصبح صيدا يسيرا ..
.. نتبادل النظر انا وحسب ، .. " قل لايصيبكم إلا ما كتب الله لكم " .. نتبادل الحسرات .
.. تمر الايام .
.. ياتينا الجيلي صباحا وعلى وجهه المنبهر فرح مهووس :
- اخيرا ، اتتني دعوة الى القاهرة من اتحاد الادباء المصري .. قاهرتي الحبيبة ، تلك التي منعت عن لقياها بامر المباحث.. لقد حجزت على اول طائرة الى هناك بعد يومين .
فرحنا لجذله .. وودعناه في المطار بعد يومين وعيناه مغرورقتان بهزة الشوق والفرح ..
.. عدنا ساهمين الى غرفتينا .

.. اسمع طرقا على باب غرفتي ..
.. الساعة تشير الى الثالثة بعد منتصف الليل ..
.. افتح الباب .. حسب يقف صامتا منكس الرأس امام العتبه ..
- شبح ! .. شبح ! والله لقد زارني قبل ساعة شبح .. يهمس حسب باذني .
- تزعزعُ نومي القلق اصلا ، بمزاحك الثقيل هذا .. والله انك لبطران !
- انا لا امزح .. لقد زارني قبل ساعتين شبح جيلي .
- وهل مات جيلي كي ترى شبحه ؟
حسب ياخذ انفاسه قبل ان يواصل قصته :

- ".. افيق من نومي عل طرق خفيف .. على صوت مختنق اجش يخترق العتمة من وراء الباب ينادي ..حسب ! ..حسب ! .. افتح ! .. دا أنا بعرض النبي .. افتح يا حسب .. ايقنت أن صديقنا جيلي المسكين قد مات .. وهذا صوت شبحه يهوم بممرات القسم الداخلي " .. يصمت الصوت لحظة ويعاود الهمس بذات الوتيرة ..
" اتجاوز خوفي واتوجه الى مصدر الصوت .. افتح الباب برعب وحذر ..
.. في عتمة الممر الطويل يقف شبح جيلي كاملا ، بشعره المنفوش وجبته المعطفية الغوغلية ..
.. يدفعني الشبح جانبا .. يدخل ويتهالك على الكرسي ويضع رأسه المتهدل بين كفيه
إنه الجيلي حيا بشحمه ولحمه وجبته المعطفية العريقة يتحدث الي شاكيا :"
- " عملوها معاي الخَوالات .. عملوها خَـوالات عبد الناصر .. شالوني زي الزكيبة من باب الممطا ر ورموني زي الكلب داخل الطائرة اللي وصلتُ عليها الى القاهرة .."
.. استمر حسب يروي قصة الشبح
- "صببت للجيلي قدحا من الفودكا واحضرت ما تيسر للأكل وتركته لحظة استدعيت فيها تاج السر من غرفته المجـاو ر ة
.. بقينا انا وتاج السر نهون عليه ، حتى اضحى بكائه دموعا فرادى دون شهقات ..
احتضناه وقدناه الى غرفته .. ارقدناه في سريره ،
.. وها قد حضرت اليك الآن بعد ان جافاني النوم تماما ."

بين الضحك والالم ، بقينا وحسب نعاود المشهد المتخيل مع الجيلي في مطار القاهرة حتى تباشير الفجر..
.. واتفقنا انا وحسب على برنامج للغد.
.. بعد الظهيرة طرقنا الباب عليه ، كان قد صحى لتوه .. جلسنا مطرقين برأسينا في مواساة وألم لفترة .
خاطبه حسب بلهجة عطوفة :
- ياصاحبنا الجيلي العزيزالغالي ، لو تعلم عمق تفاعل حدثك المأساوي في نفسينا .. ارجوك حاول ان تنسى ، .. ندعوك الى جلسة تطرّيها الفودكا ونعمر فيها بطوننا بالمقدد الشهي الذي تحبه .. الموعد في غرفة فلاح هذا المساء . بعد اتمام القاء خطاب الدعوة ، قبّل حسب وجنة جيلي الخشنة الملتحية .

حضر الى غرفتي وعلى غير عادته حليق الوجه ..
بدأنا انا وحسب باعداد ترتيبات المائدة ..
..جلسنا نعيد معه تفاصيل مشهد المطار و العودة الشبحية الكئيبة ..
.. سقيناه ما حسبناه كافيا لبدء الخطوة التالية من مرحلة ترحيبنا التعاطفي معه ..
- ها قد عرفت الآن يا جيلي مدى تاثير قصتك المأساوية فينا .. بل ولقد كان لعمق الحدث اثره في ابيات وجدانية نظمناهـا من وحي الحدث ..
- والله يا اخوانا انا عاجز عن الشكر .. والله .. والله انتما نعم الصديقين .. والله ..
صمت مطرقا في انتظار الابيات ..
- الابيات يا عزيزنا استوحيناها من قصيدتك الرائعة (عودة الغريب) .. وخصوصا تلك الصورة التي تتخيل فيها نفسك عائدا غريبا مجهولا الى بلدك بعد عقود من السنين و قد انهكتك مرارة الغربة الطويلة و استعنا بمطلع قصيدتك الرائع .." على التلال لا تلوّحوا " ..

بدأت انا بقراءة القصيدة بما يتناسب وجلال الموقف الحزين

على التلالِ لا تلوّحوا ..

هز جيلي رأسه مشاركا نغم الايقاع ..
على التلالِ لا تلوحوا
فالعائـدُ المسكين
منهوكُ القوى مبرّحُ
وطـيـ . هُ مُـقـرّحُ
وشر . هُ مُـقـيـّحُ
.. هب جيلي على قدميه صارخاً " عملتوها يا خوالات .. يا اولا د الاحبة ..عملتوها يا انذال .. امسك حسب به من كتفيه ضاحكا واجلسه على الكرسي وقبله و واصلت انا قرائتي الجادة لابيات القصيدة التي ما تركتْ عو رة و عضوا فيه إلا وامتهنتهْ بعهرفاضح .
شربنا وضحكنا بعدها حتى دمعت اعيننا .. وكان جيلي يعيد الاتهام بين الفينة والاخرى مزمجرا " مُقيّحُ .. مقرّحُ .. دا كلام اطباء ملعونين ..دا مش كلامك انت يا حسب ! "

انحسرت ايام العز تلك ، ودخلنا بعودتنا الى اوطاننا معتركا جديدا شائكا .
تزوج حسب وترهبن ردحا في صومعته العائلية .
عاقبت نفسي بزيجة خرقاء وغرقت في محنتها .
تزوج تاج السر .. حصل على دكتوراه الاداب ..كانت زيجة تاج السر رخية وادعة كالحلم مثله .. انقطعت عني اخبارتاج السر بعدها .

التقيت حسب وغائب طعمة فرمان في السبعينات في احد مهرجانات المربد وسألت غائب عن الجيلي ..
- لقد حضر معي بلهفة .. وما أن حطت بنا الطائرة في مطار بغداد ، إلا وكانت سيارة الاسعاف تنقله من هناك اثر أزمة قلبية الى مدينة الطب .. عاد بعد ايام ، كعودته الشبحية السابقة المعهودة ، الى موسكو وقبع هناك .
(.. عاد الجيلي الى مصر بعد سنين وبعد حصوله دكتوراه الاداب ، الى قاهرته الحبيبة الى (عبري) قرية طفولته .
.. احتفت به الاوساط الادبية من جديد .. عمل في صحافتها ..نشر دواوين شعره هناك ..
..القدر يحاربه من جديد ..
..لفتّت الامراض الجيلي بشباكها وابعدته عن المشهد ..
..رحل عنا عام 1990 بكاه عشاق ادبه في مصر ..بكاه احبته في السودان ومناضلوه ..بكيناه معهم بحرقة .)
- وما اخبار تاج السر يا غائب ؟
- جذل بعودته وزوجته لوطنه الى السودان .. مستقر وسعيد في عمله وبين أهله ومحبيه .

مرت اعوام اخرى ، وغرقت انا في البصرة في مأساة حياتي ، في ظل اضطهادين احدهما شخصي اقترفته يداي والاخر اقترفته يد سفاح العراق الكبيرواغرقتني والملايين من الناس في بحر دماء حرب شرسة قذرة .
..معانات البصره كادت تضاهي معانات جريمة الانفال سيئة الفعل والصيت..انتقلت الى بغداد

* * *

كانا في انتظاري في بهو فندق بغداد
.. لقد توّج الشيب رأس العملاق الاسمر طيب الوجه والقلب .
تعانقنا وسرى دفء حنانه الى الجسد المتعب والروح المنهكة .. دمعت اعيننا .
- والله زمان يا راجل .. والله وكان احلى زمان .. كانت امنية ان اشوف العراق لاجل ان اشوف الحبيب الكبير ، كنت تواقا للزيارة المقدسة هذه ، ولو تعلم مدى حزني حين أ خبروني ان دجلة الخير تفتقد حاديها ، وانه غادرها غضبا .. هل يعقل ان لا تضم احضان بغداد شاعرها مثلما تضم دجلتها .. عوضي في لقياك انت ايها الحبيب .. دعني اشم رائحته فيك ، واحتضنني من جديد ..
-اخذنا الشوق عن أن اعرفك بصديقي مدير اذاعة وتلفزيون الخرطوم الاستاذ..استطرد تاج السر ..اقترحت عليهما تقضية المساء في ركن هاديء من بغداد ..
- هل يمكن لصديق قديم ان يطلب طلبا من صديق الايام العذبة .. ارجو ان لايثقل طلبي عليك .
قالها تاج بصوت يقرب الى الاستعطاف
- انت تأمر وانا اقول شبيك لبيك .
- اريد زيارة بيت الجواهري ..لابد انك تعيش فيه الآن .
كانت الوحشة تهوّم في البيت .. الجواهري ارغم مرة اخرى واخيرة على مغادرته ، وكانت زوجتي قد غادرته ، انا ، وبعد ضيم مرير طويل ، عدت اعزبا حرا من جديد .. ابناءي غادروني معها .
.. لم يكن في البيت من اثاث ، الا المقاعد شبه البالية لغرفة الاستقبال التي كان الجواهري يجلس فيها ، مع الوفرة من الصحاب في مرحلة المهادنة ، واقفار المكان منهم ايام المحنة .

* * *

..ادخل بهدوء وخشوع الى محرابه المقفر ، اقبله من رأسه و اجلس على المقعد المجاور لمقعده يضع كتابه وعويناته جانبا .. امامه قدح صغير وقنينة فودكا خفيفة التركيز.
اصمت منتشيا بوداعة قربه ..
- الله بالخير دكتورنا !
- الله بالخير !
ينظر اليّ بابتسامة مشاكسة .. يقوم ويحضر من الخزانة الزجاجية القريبة قدحا صغيرا كقدحه ..
.. يضع القدح امامي .. يعدل من طاقيته وينظر اليّ بابتسامة مشاكسة اكبر .. يهز رأسه ويقول ممازحا :
- " ومن نعمـّره في الارض ننكسه " .. هل اصب لك معي قدحا ؟..
ينظر من جديد متسائلا مازحا مترددا والقنينة بيده ، وكانه يوشك ان يصب في قدحي
- صب استاذ جواهري !
.. اجيب على ابتسامته بابتسامة ..
- والدين الذي انت غارق فيه هذه الايام ؟ .. والحلال والحرام شيخنا الدكتور؟
- صب ! الحرام ان يعصى احد كلمة الجواهري ، كل ما يقوله الجواهري كلام منزّل و مقدس
- صحتك شيخنا الدكتور! يرفع كأسه .
غمرتني بعد لحظات معه سعادة قدسية.. ها قداستطعت اضفاء بسمة على المنبوذ المحاصر والمعتكف في غربته .
- تدري ابني ؟ .. تدري انت تحيرني مرات عديدة .. سبحان من جمع فيك كل تلك النقائض ، من انطلاقة وعربدة وانفلاته غجرية ، الى ديانه وغيبيات .. ما الذي جمع هذا على ذاك ؟ ، انت والدين كجا مرحبا ؟
- انه تعلق الغريق في القشة .. اجيبه رافعا كأسي في صحته .

* * *

ترجل تاج السر وزميله من السيارة .. سارا في ممشى الحديقة ورائي .. اقتربنا من مدخليّ الدار.. استوقفني تاج السر ممسكا بذراعي برفق قبل ان ادخل :
- خبرني يا صاحبي اي الغرفتين ، و عبر اي المدخلين كان الجواهري يجلس معظم الوقت ؟
- عبر هذا الباب حيث كنبته الفردية ، هنا ! في صالة الضيوف . واشرت الى بابها .
- اي ان دخول الزائر له يكون عبر هذا الباب العتيق الحائل اللون ؟
هززت راسي بالايجاب
تقدمنا الى الباب المترب ..
وقف تاج السر امام الباب خاشعا بصمت ، حتى اننا وقفنا ورائه دون حراك ، وقد اخذتنا لحظة الخشوع الصامت المتأمل تلك ..
اقترب من الباب اكثر .. مس اطاره الغليظ ..مشى بكفه برفق على حواشيه ..
.. مسح بكفيه اجزاء الضلفتين المقفلتين ..
..اقترب اكثر ووسّد خده الايمن على اوسط احداها باسطاً ذراعيه على و سعيهما ليمسكا بالاطار الجانبي ..
كان تاج السر في تلك الصورة مصلوبا على الباب ..
..اخذتني هزة وقشعريرة ..
بقي فوق صليبه فترة غير قصيرة .
.. غامت عيناي بالدمع الفياض ..
تحرك ليبدل وجنته اليمنى بيسراها فوق اللوح الخشبي ..
.. بقي مصلوبا على الباب فترة اخرى ..
.. ابتعد بعد حين عن الباب ووقف مطأطي الرأس امامه وكأنه يتمتم في سره ادعية وآيات ..
.. بقي منتظراً لحظات .
أيقنت أن قد حان وقت فتح الباب ..
.. بدا جزء من الصالة نصف المعتمة امامنا ..
- تفضل ! قلتها وانتظرت
- اشكر ك ، ولكن ارجوك ، اشر على بالمكان الذي كان يعتا د الجلوس فيه !
أشرت الى الكنبة الاحادية التي تواجه الباب .
.. نزع حذائيه و وضعهما جانبا خارج عتبة الصالة .
دخل فدلفنا خلفه .. وقف بصمت .. وقفنا بصمت خلفه ..
.. امسك بمسندي الكنبة الخشبيين ، قبّل الاول واتبعه بتقبيل المسند الاخر برقة ..
أشرت عليه بالجلوس على الكنبة ذاتها .. هز راسه بصمت رافضا .. اشار اليّ بلطف للجلوس في ذلك المكان ذاته
- تحملُ انت معالم منه ، اريد ان اتخيله فيك ، هل تلبي لي هذا الطلب ؟!

اثناء استماعنا بعض الاشرطة الصوتية ، مع الفودكا ، و بتلك الاقداح الصغيرة ذاتها التي كان الجواهري يستعملها ويقدمها بيده لضيوفه ، كانت عينا ه تزوغ لتهوّم في ارجاء المكان ..
.. تاج السر يسترجع صدى صوت الجواهري الحي في الغرفة .
.. حين خرج تاج السر ونحن من خلفه ، مارس الطقوس ذاتها من الداخل هذه المرة ..
.. ذرع الحديقة جيئة وذهابا مرات عديدة ، ذكرتني حركته تلك بالجواهري يذر ع الحديقة بخطواته الوسيعة على عجل في حركة مكوكية ، حين يشغل باله شيء يقلقه .
ركبنا السيارة ، وحال خروجنا من بوابة الحديقة ، طلب مني تاج السر ان اقف برهة .
.. نزل من السيارة ووقف يتأمل الدار ومدخل غرفة الضيوف ، ثم صعد وجلس بجواري ومال عليّ آخذا رأسي بين يديه وقبّله..
- اشكرك ايها الحبيب .. الآن فقط ايقنت انني قد زرت بغداد .. لقد زرت بفضلك اقدس ما فيها .

الجيلي يرثي عبد الخاق محجوب (مقاطع من القصيدة)

وانتظرناك على الشوك
طويلا
ولهثنا في حقول القيظ
سنطا ونخيلا
كنت تزهو في ذراع الثائر المهدي
سيفا
وعبابا من جماهير
تغني للنسائم
كيف سال الحزن مهراقا
على زغب الحمائم
وامتشقت الراية الشماء
غضبان جسورا
قبضة السيف تقاسى
هزها الشعب فقاما
وادخرناك نشيدا
في شغاف القلب وسدناك
سهما وحساما

عم مساءا ..
اوغل الليل فنم
وانتظرناك على الشوك المدمى
مثلما يشتاق في الظلمة أعمى
ياعريس الشهداء
قد فداك الشعب دوما

مقاطع من (اغنيات الجيلي الى لوممبا)

وردة حمرا كقلبك
ارعشتها الريح
في موحل دربك
مثل حد الشمس ذابت
فيك انفاس المروج
عدت للشعب تغني
غنوة الشوق الممض

" ياعيون الطير ارضي ..أنت ارضي "
أجهش المذياع.." لوممبا أسير "
في ظلام المعتقل
فمشى الحزن على حاراتنا
قلباً فقلبا
والجحيم المر
في الاوصال شبا
فرّت الدمعة
والحزن هطلْ

تاج السر الحسن (نشيد باندونغ)

عندما أعزف يا قلبي
الاناشيد القديمة
ويطل الفجر في قلبي
على أجنح غيمة
سأغني آخر المقطع
للارض الحميمة
للظلال الزرق
في غابات كينيا
والملايو
ولباندونغ الفتية
لليالي الفرح الخضراء
في الصين الجديدة
والتي اعزف في قلبي لها
الف قصيدة
فلقد لنا الايدي الصديقة

مقاطع منقصيدة (كردفان)

يا كردفان
يا ازاهرا تضوع
كم خضّر الخريف
في وديانك الجذوع
لا تحسبونا نحهل الايام
والاخوان
فقد رسمنا في قلوبنا
سهول كردفان

شخوص ومطبات في اذاعة موسكو
(1) نجيب سرور

غرفته كانت قريبة مني ..ازوره فيرحب بي في كل مرة بالعبارة ذاتها " أهلا يابن الكَواهري..أهلا يابن الكَواهري " ..استمتع بحديثه المطعم بالدعابة وبالفوضى التي تعم غرفته، بالكتب المكدسة هنا وهناك، بالصحون واقداح الشاي التي لم تغسل بعد، والاوراق المبعثرة بينها وتلك المتناثرة فوق سريره ..
يسحب دائما ورقة من بين هذا النثار- بعد بحث غير قليل - ليقرأ طقطوقة شعرية قصيرة ..كثيرا ما تكون من مشروعه المسرحي ياسين وبهية " قرية نبهوت حيث ياسين ومحبوبته بهية وحيث الفلاحين المعدمين والباشا الاقطاعي الظالم..ياسين الذي يحاول ان يستنهظ همة المظلومين للتصدي للاقطاعي الظالم " يوجز موضوعها قبل أن يقرأ بصوته الدافيء العميق الساخر :
.. فيه ناسْ بِتشرب عسلْ
.. وناسْ بِتشرب خلْ
.. وناسْ تِنامْ علْ السريرْ
.. وناسْ تِنامْ عل التلْ
نجيب القادم الى موسكو في بعثة الدولة للدراسات في الاخراج المسرحي يعيش هذا الوقت من مرحلته الجميلة (الهدوء قبل العاصفة) مرحلة التطلعات العظيمة مرحلة الامل المشرق مرحلة اللاعذاب..

اتصل بي مسرور كتانة ليطلعني على حاجة القسم العربي في اذاعة موسكو لمذيعين بعد خطة انفتاحها الاوسع على مستمعي العالم العربي ..
بعد بضعة ايام على اختبارمجموعة من المتقدمين في الإلقاء الاذاعي والصوت والاختبار اللغوي ، تم الاتصال بي ..كنت الوحيد الذي تم قبوله .. كان هنالك عرضان الاول العمل كمذيع دائم بامتيازات العقود مع الاجانب من الخارج (اي براتب مغر بالعملة الصعبة وتوفير سكن لائق واجازة سنوية براتب كامل) والعرض الثاني العمل وفق ساعات مسائية محددة براتب جيد بالروبل .
.. أن تكون مذيعا يسمعك العالم العربي كله وأن يعرف اسمك على الخارطة الواسعة كمشتاق طالب الذي سبقك قبل وقت قصير الى اذاعة موسكو او كسليم المعروف صديقك في الصغر..أن تستمتع بشقة فارهة وراتب مغر بالعملة الصعبة لتكمل به جولاتك السندبادية ومغامراتك ..كان شيئا مثيرا حقا .. كان القرار شبه جازم بقبول العرض الاول لولا تدخل مسروركتانة (رحمه الله)
- قارن بين مستقبلك كطبيب وبلدك الذي بأمس الحاجة اليه ومذيع يرتبط وجوده بالبث..لست مذيعا اذا حرمتك السلطة من المايكروفون .. انت لست مذيعا لو قطعت الكهرباء انت لست مذيعا في بلد آخر .. لكنك ستظل طبيبا في كل الظروف وكل الامكنة ولن يستطيع احد ان يسلبك علمك وخبرتك .. اضف الى أن رغبتك في ان يسمعك العالم

كمذيع سيوفره العرض الثاني بساعات من العمل الليلي الذي قد لا يتعارض مع برنامجك الدراسي ومتى ما تعارض معها يمكنك ان تترك الاذاعة .. اعتبرني كاخيك الكبير والقرار لك .
.. أخذت بنصيحة اخي الكبير مسرور ونفذته .
يرأس القسم العربي في اذاعة موسكو يفغيني بريماكوف (رئيس الوزراء السوفياتي ووسيط المحن العربية لاحقا)
.. يتكون قسم البث الاذاعي من أربعة من المذيعين الدائمين .. مشتاق طالب (موفد من قبل الاذاعة العراقية) مسرور كتانة (شيوعي يهودي هارب من سجون العراق) فؤاد حبيب (مصري) هراير ماردوسيان(ارمني سوري) وأنا الوحيد في حينه بساعات عمل ليلية..مع غيورغي تاراسوفيج المخرج الاذاعي الموهوب .
استمتعت كثيرا بالعمل في القسم وكنت مكلفا بقراءة التعليق الاذاعي بعد الاخبار وعلى الهواء مباشرة مع قراءة نصوص ادبية او علمية .
..لم يمض وقت طويل حتى كان لي برنامجا اذاعيا اسبوعيا اكتبه ويبث بعد تسجيله واخراجه (بالطبع بعد أن يترجم الى الروسية ويفحص مضمونه بدقة من قسم المراقبة الاذاعية) وكان عنوانه (يوميات طالب عربي في الاتحاد السوفياتي) وفي حقيقة الامر كنت اروي فيه ما دار ويدور في العراق بوجه خاص العالم العربي بوجه عام، وكان على هيئة ريبورتاج قصصي يخرجه غيورغي تراسوفيج مع المؤثرات الموسيقية والصوتية الاخرى ..أراه امامي الآن من وراء الحاجز الزجاجي اشيب الرأس بجمسه الضخم المترهل وهو يعطي الاشارة كما قائد الفرقة الموسيقية ، بالبدء في القراءة بعد المقدمة الموسيقية، بالنبرة العالية او المنخفضة او المتلاشية او اشارة لحظة الصمت ليفسح للمؤثرات الصوتية بالانفراد ..
كل كان يسير بشكل يعجبني ويعجب الآخرين ..
.. كنت يوماً أذيع على الهواء مباشرة التعليق الاخباري وكان عن القواعد العسكرية المتزايدة للغرب ذات الطابع المعادي للاتحاد السوفياتي
" .. لقد اخذت القواعد العسكرية للغرب تتزايد في انحاء العالم وبخاصة في افريقيا ففي الشمال حيث الصحراء الليبية و الصحراءالجزائرية والمغربية .." ..ما أن نطقت بالكلمة الاخيرة حتى فوجئت وانا ارى من وراء الحاجز الزجاجي المتتبع الروسي للنص الاذاعي وهو يقفز مرتعبا ويعطي اشارة التوقف عن الالقاء ثم يبدء بث فاصل موسيقي إذاعي ..اتوقف منبهتا مستاءً ومرتبكا .
يبدو أن استرسالي في تعداد دول الغرب الافريقي قادني فوضعت كلمة (المغرب) غير الموجودة في النص الذي امامي وامام متتبع النص ..
..خرجت من غرفة البث المصمتة لأجد ان الهرج قد دب بين صفوف المذيعين والمراقبين والمخرج ومساعديه .
.. كان الاتحاد السوفياتي قد بدء قبل وقت قصير في توطيد علاقات جديدة طيبة مع المغرب ..اشراك المغرب في معاداته للاتحاد السوفياتي اذاعياً شيء كبير ولابد وان تترتب عليه عواقب دبلوماسية وسياسية غير مأمونة الجانب .

وصل الامر على الفور الى أعلى سلطة اذاعية ..الى يفغيني بريماكوف..الكل واجم بانتظار ما ستؤول اليه الامور..المراقب الروسي والمخرج ومساعديه فزعين من أن يفقدوا وظائفهم على اقل تقدير جراء الاهمال ..
..ساعتان من القلق والترقب والكل ينظر اليّ بعتاب مرير..أنا صامت واجم للورطة التي اوقعت بها زملائي الطيبين، أكثر مما انا واجم لما ساواجهه أنا شخصيا ..
..رن جرس الهاتف قرب المخرج رفعه بتوجس وهو منتصب على قدميه ..دقيقة لا أكثر حتى ابتسم وتنفس الصعداء .
.. الصحراء المغربية كانت آنذاك تحت الاستعمار الاسباني ولإسبانيا قواعد عسكرية فيها .
..لا شك ان الامربعد هذه الهفوة قد تجاوز الاذاعة وبسرعة ليصل الى المخابرات والى العسكرية منها ليعود منها بالمعلومات الاكيدة .. ومنذ تلك الساعة ولربما الى يومنا هذا لم ولن يذاع اي تعليق او نص اذاعي ما لم يسجل اولاً ويدقق ويمحص قبل بثه فيما عدا النشرة الاخبارية والتي تراقب فيها كل كلمة وحرف واشارة قبل البث .
توسع القسم العربي أكثر واكثر ..قدِم صادق الجلاد من العراق بعقد دائم .. يصل مذيع اردني ميسور الحال ومذيعة مصرية جميلة (لم يدم وجودهما كثيرا بعد ان ارسل كيوبيد سهامه فسقطا صرعى الزواج .. ولم يعودا من اجازة العسل في لبنان الى موسكو ..اصبح الزوج تاجرا ناجحا في بيروت)
أمل بورتر اتت بعقد عمل مسائي ..فنانة عراقية جميلة الوجه خريجة معهد الفنون ببغداد .. الفنان التشكيلي ماهود احمد وأحمد النعمان والمخرج محسن سعدون يحدثوني حين اخبرتهم بوجودها معي في الاذاعة، أنهم كانو قد شكلوا حولها جماعة (فرسان الامل) اثناء زمالتهم لها في المعهد ببغداد ..لم تربط على رمح اي فارس منهم منديلها، إلا بعد خمسة وثلاثين عاما..كان الفارس الفائز بقلبها ومنديلها أحمد النعمان .
الدكتور-الطبيب- نبيه أرشيدات مع مذيع آخر وهوأديب سوري يساري معروف ، أتيا هاربين من اضطهاد المخابرات المصرية الذي امتد بعد الوحدة الى سوريا، التي لم تعرف حتى عهد الوحدة معنى الاضطهاد السياسي والمعتقلات والسجون ..لم يبقيا كثيرا وقفزا فرحا وهما في ممرات الاذاعة لسماعهم نبأ تنفيذ انقلاب العقيد النحلاوي وانفصام الوحدة وقدوم حكومة الكزبري..لم أعرف وهما يعانقان الجميع بغبطة تحديد مشاعري، أنا من عاش ردحا في نور ديقراطية سوريا منتصف الخمسينات ، والمولع في الوقت ذاته بعبد الناصر وبالوحدة المنشودة .. أنا الذي شهد زلزال المطالبة بها في دمشق .. أأنا حزين لمأساة الانفصام ام أنا فرح لزوال الاضطهاد السياسي وتعقب المخابرات وفتح ابواب السجون لكل رأي آخر في سوريا ! ..
.. غادر ارشيدات والمذيع الاديب الاذاعة الليلة ذاتها مودعين زملائهم..عادا بعد يومين الى دمشق.
.. اقتحمت زوبعة نجيب سرور المحفل الاذاعي بعقد ساعات عمل ليلية معه ..
.. زوبعة عاتية بوجه غضوب في غالب الاوقات ..لقد تبدل كثيرا خلال السنتين الاخيرتين.. و تبدلت الامور معه ايضا..
..تم فصله من بعثة الدولة بعد رفعه راية الإحتجاج لمحاربة اليسار وسياسة كم الافواه في مصر في مطلع الستينات .. تزوج من طالبة روسية وسمى ولده منها (شهدي) تيمناً وذكرى

للناشط النقابي العمالي (شهدي) الذي قتله الامن المصري في اضرابات (المحلة الكبرى) في منتصف الخمسينات .

.. دمُ شهدي يتقطرْ
.. وخميسٌ في المحلةْ
.. رأسهُ من طرفِ الحبل تحدرْ
.. عاد هتلر..عاد هتلرْ
.. بلباسٍ عربي وبخنجرْ

كان نجيب سرور يردد بين حين وآخر هذا المقطع من قصيدة للصديق المشترك (تاج السر الحسن) ..

..غضبُ نجيب لم ينحصر في سوء مجريات الامور في مصر آنذاك ..لقد رفع سيف غضبه على اي وضع غير صحيح في كل مكان ، وعلى كل شخص يعتقد أنه غير منصف او غير صريح في مواقفه ..لقد شمل غضبه حتى الوضع (المائل) في الاتحاد السوفياتي " دي حيطه مايله مش حتدوم كثير " ..

.. بدأ بالصدام الكلامي الغضوب مع زملاء العمل في الاذاعة اثناء النقاشات العابرة حين ياتي احيانا وهوثمل.. لقد اصبح في الآونة الاخيرة مفرطا في الخمرة والجنس وكان يتباهى بذلك بسرد تفاصيل صريحة عن علاقاته العابرة والتي تغيظ العديدين ممن حوله ..

لبى دعوتي الى غرفتي في السكن الطلابي (خارج فندق جامعة موسكو ذي الخمسة نجوم)

.. كنت فرحا لقدومه وقد هيأت مائدة تماشي ذوقه اكلا وشرابا ..

.. كان مزاجه رائقا حين دخل..اعجب بمرسمي داخل الغرفة المتواضعة الصغيرة وباللوحات المعلقة على الجدران والمرصوفة على الارض.. تحدثنا عن الفن والفنانين والمسرح الروسي العريق..عن بعض الصحاب في عمارة سكن الادباء الملاصق لعمارتنا .

.. بدأت بملء الاقداح منتظرا انفتاح القلب واللسان معه ومعها ..

- يابن الكَـواهري! .. يا بن الكَواهري !

سبق وأن ناداني بها أكثر من عشر مرات خلال النصف ساعة من قدومه دون ذكر اسمي

.. قلت له بلهجة ودودة ممازحة :

- سنتين مرت يا نجيب على صداقنا وكم كنت اود ان تناديني ولو مرة واحدة (يا فلاح)..

- إنت إيه بتستعر من اسم الكَـواهري .. ولّه إيه ؟

قالها بلهجة ساخرة وقد احتدّ قليلا .

- بل أفخر بالاسم العظيم ، ولكن لا احب أن أُلغى او أُهمش يا صديقي ..ولّه إيه؟ ..قلتها بمرح واضح وانا اضع امامه قدح الفودكا ..

.. نهض وقد جحضت عيناه من الغضب ..ضرب المائدة بجمع كفه فانكفأ الكاس بمحتواه وقال بما يشبه الصراخ :

- بربك !؟ بدينك!؟ .. انت مش تكره الكَـواهري!؟ ..أنت مش بتغار من الكَـواهري ..دانته ما بتطيئش اسم الكَـواهري !..

- سامحك الله يا صديقي ..أنت غلطان كث..

قبل أن أكمل عبارتي كان نجيب يخطو صوب الباب وهي يزمجر

" بلا غلطان بلا نيله يا شيخ.." واغلق الباب وراءه بعنف .

لم يدم بقاءه طويلا في اذاعة موسكو فقد اصطدم مع الجميع بما فيهم (غيورغي تارسوفيج) المخرج الكبير الطيب وهو يسب الاوضاع والنظام " الحيطة المايلة " ..أُخرج من الاذاعة ولم تمض الا ايام معدودة ليخرجوه عن الاتحاد السوفياتي كله ..وضعوه في القطار بتأشيرة خروج على وثيقة (تعبانة) من وريقات مختومة ..كانت الحكومة المصرية قد اسقطت عنه جواز سفره قبل حين ..هو الآن دون وجهة معينة .
رأفت به الحكومة الهنغارية أثناء عبوره حدودها وهو في تيه سفره غير المعلوم الوجهة، فابقته حينا من الزمن .. قدّم التماسا من هنغاريا الى عبد الناصر للعودة الى الوطن ..قُبل التماسه على الفور.. رحب به الجميع، اوساط مصر الثقافية وسلطاتها ..فُتحت له ابواب النشر والمسارح كالمسرح الحر ومسرح الجيب ..عُين استاذا في أكاديمية الفنون رغم أن السوفيات لم يطيقوا صبراً لبقاءه لاكمال اطروحته .
.. (طربة العرس) هذه لم تدم طويلا لقد رفع الفارس سيفه من جديد .

ذكرتني مواقف نجيب العنيفة ونتائجها بصدامات رشيد ياسين .. فقد وضع رشيد على الحدود البلغارية ودفع به خارجا، ثم وضع من جديد بعد سنتين على الحدود السورية اللبنانية ودفع به وطفليه الصغيرين خارجا ..ولكن ..ولكن ..
..صدامات رشيد ياسين غالبا ما تكون مع الضعيف او من لا سند له .
..طرد رشيد من بلغاريا لاعتدائه بالضرب على بائعة مخزن في صوفيا..طرد من سوريا بعدها لاعتدائه بالضرب على زوجته فهبّ واحد من متنفذي النظام من اقاربها فوضعه على الحدود .
رشيد ليس كنجيب فهولا يمانع من ان يجاري التيار .. لقد اشاد بالحرب الدامية مع ايران ومجد قائدها التأريخي- الجغرافي .
..نجيب لا يهادن فهو يكره سلطات (الحيطة المائلة) .. يكره أنظمة كمْ الافواه والقسر واجهزة مخابراتها ..يكره كل من يمالئها ..يصرخ بكرهه معلنا وشاهرا سيفه المكسور ضد جيش الظلم الدارع .

* * *

ها انذا من جديد في قاهرتي الحبيبة ..أنا في مكتبة (علي الشاعر) في (سور الازبكية للكتاب) في العتبة ..آلاف الكتب تكتض بها الرفوف المتواضعة، والارض والزوايا وحتى الطاولة التي يجلس ورائها (الشاعر) ..يبحث فيجد لي (الشهنامة).. يجد (البستان العطر) ..(برومثيوس طليقاً) ..يقدم لي كتابا بغلاف كارتوني خفيف اسود مغبر بلا عنوان فوق غلافه ..افتحه لاجد العنوان مختفيا وراءه (كُسمّيات) وتحتها اسم المؤلف (نجيب سرور) ..
كنت قد قرات قبل زمن في احدى الصحف نداء زوجته الروسية أم شهدي، تناشد فيه رفع الحيف عن زوجها المغدور وذكراه، وجمع تراثه ونشره ..
..كيف تريد ايها الصامد حتى الرمق الاخير أن يرحموك ، وابنك اسمه اسميته شهدي..أن ينصفوك وانت في معركة مع كل (حيطة مايلة)..معركة مع الظلم والقمع ونهب الجياع وهو اساس (حيطتنا الخربة) ..معركة مع المنتفعين والممالئين وسلطات انظمتهم ، بل لقد وسعت ميدان معركتك لتشمل الصامتين من رفاقك القدامى ممن آثروا ان يرفعوا الراية

البيضاء بعد أن يأسوا من كسب معاركهم بسيوف الحق المكسورة ليعيشوا في أمان ودعة بقية عمرهم..كيف يمكن ان يرحموك وانت تطلق صرخة النزع الاخيرة (كُسمّيات) ..
.. اودعوك حبس المجانين والمعارضين (مستشفاهم كما يدعونه) لتلفظ انفاسك الاخيرة هناك ..حرموك حتى من الموت كبشر، وليهرب بعد ذلك ولدك (شهدي) بعد أن طبع ونشر صرخة النزع الاخيرة بين الملأ الى مكان آمن ..الى امه في موسكو .

فِيهْ ناسْ بتشربْ عسلْ
وِناسْ بِتشربْ خلْ
وِناس تِنامْ عَلْ السِريرْ
وِناسْ تِنامْ عَلْ التلْ
وِناسْ بِتلبِسْ حريرْ
وِناسْ بِتلبِس فَلْ
وِناسْ بِتحكمْ على الحرِ الاصيلْ بِنذّلْ
يعني نِصبحْ علْ الحديدةْ
أيوهْ لكنْ فِيه عِبادْ
عايشهْ تنهبْ في العِبادْ
دايرهْ تِخطفْ مِننا
رزقْ جايبُه ربِنا
بُكرةْ ربكْ بِنتِقمْ

ربِنا قالْ العَزيمةْ
قبلِ مايقولْ إتكالْ
طَبْ وِناويْ تِعمِلْ إيهْ ؟
أعمِلْ إيهْ ؟!!
دِيبْ وِجايْ هاجمْ عليا
يبقى يا اقتِلْ يا إنقِتِلْ
قصدكْ إيهْ ؟!!
نِقتِل الباشا
ومالهُ
أهوْ قتلْ الدِيبْ حرام؟!!

وها انت ايها الشاعر الجريح المتعب تضع لحنك الجنائزي الاخير وتوصي بأن ينقش على " الصخر الاصم " فوق قبرك في قريتك المنسية .

قد آنَ يا كيخوت للقلب الجريحْ
أن يستريحْ
فأحفرْ هنا قبراً ونمْ

وأنقشْ على الصخرِ الاصمْ
يا نابشاً قبري حنانكَ
ها هنا قلبٌ ينامْ
لافرقَ من عامٍ ينامْ
والفَ عامْ
هذي عظامي
حصادُ ايامي
فرفقاً بالعظامْ

شخوص ومطبات في اذاعة موسكو
(2) مسرور كتانة (قطّان) - اليهودي التائه

ثم يلقى وهناً على قدرٍ لرهين التراب والحفرِ فلاح الجواهري معرض الأرق

.. مسرور وشاهين (اليهوديان العراقيان الشيوعيان الهاربان) كانا اكثر العراقيين الموجودين آنذاك احتضانا ورعاية لي في ايامي الاولى في موسكو ، الشيء الذي لن انساه ما حييت .. انا ابن الجواهري ..اذاً (أنا العراق) ، أنا النسمة الطرية التي تخفف عنهما ألم الحنين ومرارة الغربة ..
غرفة شاهين في جامعة موسكو والذي يعد اطروحة الدكتوراة في القانون الجنائي وزوجته نتاشا (الفلاحة الروسية البسيطة الطيبة) كما يصفها لي، كانت بيتي الثاني خلال سكني في القسم الداخلي غير البعيد عنهما .. تجيد نتاشا اعداد الدولمة والمحشي وكباب العروق كامهر النساء العراقيات .. علمها شاهين كل فنون الطبخ العراقي..
حين ينصرف شاهين الى اوراقه ومراجعه .. تجلس نتاشا الى جواري حول منضدة صغيرة قرب النافذة..لتراجع معي حصص اليوم في اللغة الروسية .. بالابتسامة او الضحكة الفرحة للكنتي الروسية المضحكة تقضي معي ساعة او ساعتين ..احيانا حين لا تريد ان تشغل زوجها عن العمل على الاطروحة ، تستعير مفتاح غرفة فارغة لاحدى صديقاتها في بناية الجامعة لنستمر هناك في المراجعة .
مسرور يدعوني مرارا الى شقته الصغيرة حيث يعيش مع غالا .. لا أطفال لديهما رغم السنين العشرة من الزواج ..يتجولان معي لشراء احتياجات شتاء موسكو القاسي من مخازن موسكو ويطمئنان على كل قطعة ارتديها ..
.. نصيحة مسرور لاثنائي عن قراري بأن اصبح مذيعا (دائميا) في اذاعة موسكو ، بدلت مسار حياتي .

اوضاع العالم العربي تأخذ مركز الصدارة في الاحداث وخصوصا مصر وتطلعات الرئيس عبد الناصر في الوحدة ومناهضته للقوى الاستعمارية والصهيونية في الشرق والتفاف الجماهير حوله وما اعقب الوحدة من احداث في مصر وسوريا واليمن .. يتصاعد الشعور القومي لدى الغالبية العظمى في بلداننا العربية ..مع هذه التبدلات تجري تبدلات في توجهات اذاعة موسكو ايضا ، في المواضيع التي تبث وفي هيكل القسم العربي كله واهمه القسم الاذاعي ..مع هذا التوسع والتطور يسقط ضحايا ..
.. بعد التخلي عن صديقي (كاكه) عز الدين مصطفى رسول، للكنته الاذاعية الكردية كأول ضحية للمد القومي..يحوّل مسرور كتانة - وهو من قدامى مذيعي القسم العربي، كضحية اخرى - الى قسم الترجمة..لا يجوز ان يبقى اسم يهودي في البث الاذاعي العربي .
.. يزداد وجه مسرور الحزين حزنا .. تصبح علبة السجائر في اليوم علبتين ..يزداد صمتا .. يقبله الجميع بمودة كبيرة وباحتضان دافيء في اليوم المقرر لبدء عمله في قسم الترجمة غير البعيد .

مع برنامجي الجديد (يوميات طالب عربي في الاتحاد السوفياتي) الذي اعده واذيعه تكثر زياراتي لقسم الترجمة ولمسرور بالذات .. يدقق معي ترجمة النص الى الروسية .. يُقارن النصان العربي والروسي بعد ذلك من قبل مسؤول روسي يجيد العربية قبل السماح ببثه.. يحدثني مسرور عن ألمه وحزنه عن فقدان مركزه كمذيع ..عن اولئك قصيري النظر في الادارة العليا وعن حساسيتهم المفرطة تجاه اليهود في الاذاعة كلها وعن عدائهم للسامية .. لاتنفع معه محاولاتي لتهدئته والتخفيف عن المه الذي يغور في اعماقه ، ولا ان البعض مما يقوله محض تصورات وهمية نتيجة التغيير الذي حصل على مهامه .
ازوره بين حين وآخر في شقته الصغيرة ..هو لايتمتع بامتيازات عقود الاجانب للعمل في الاذاعة .. مربع صغير هو صالة البيت ، مائدة صغيرة باربعة كراسي ولا مكان لخامس حتى لو تواجد..تلفزيون صغير بشاشة بحجم كف اليد، امامها عدسة مكبرة ضخمة تمكّن الجالس حول الطاولة على بعد مترين من مشاهدة البرامج بزاوية جلوس معينة ..غرفة ضاقت بسرير لشخصين..مع هذا الضيق في المساحة ، إلا أن مثل هذا السكن شيء مميز يحصل عليه من يعمل في الاعلام والفنون .
..رغم هذه (الحصرة) يسعى مسرور لاستضافة من حوله في العمل وعلى الاخص العراقيين منهم شرط ان لايزيد عدد الضيوف القادمين على اثنين وكحد اقصى ثلاثة .. آنذاك لا مكان لـغالا زوجته غير المطبخ وغرفة النوم .
..بعد حين اصبحت ازوره أنا ولودميلا (لوسي) ..

- " أنت تحب الشعر .. وانا أحبه " ، كانت لوسي تلتصق بجنبي على احد مصاطب حديقة غوركي المشرفة على النهر .." انت تحب المسرح والموسيقى وانا كذلك..انت تحب الرسم وتمارسه وتهوى معارضه وانا اعشق الرسم والمعارض ..انت تحب الجميلات وانا وكما يصفني الآخرون جميلة..انت لا تستطيع العيش دون إمرأة وانا وكما ترى امرأة .. لديك اثنا عشر مترا للسكن ، اي ما يمكن تسجيله لاثنين.. سارعاك كزوجة متفانية ".. واصلت لوسي حديثها بين فكاهة الحزن المفتعل وبين الجد .. مدت اناملها وحولت وجهي تجاهها وبذلك الحزن الممازح المفتعل .." تخيل قطتك الصغيرة مدماة شائهة بين انياب ذئب سيبيري او ممزقة تحت مخالب الدب الروسي البني الضخم ..هلو! ..هلو! ..انظر اليّ !.. انظر الى هذا الوجه الذي تحبه ..أنظر وتخيل! الن يؤنبك ضميرك بعد موتي ..هه؟ ..هه ؟! "
- ولكني لست باق في موسكو ..انت تعلمين اني عائد الى العراق حال تخرجي ..أنا لا استطيع البقاء في موسكو..وانت تموتين لو غادرتيها، اليست هذه مقولتك .
- " تعود انت وابقى انا ,وإن اردت ينتهي حينها عقد الزواج المكتوب بيننا ..من يعلم ربما تحنّ يوما فتعود اليّ من جديد .."
- وماذا سيقول عني الآخرون " تركها النذل وهرب "
- " لا اعرفك تعير اهتماما لما يقوله الآخرون ..ثم انك لن تسمع ذلك وانت على بُعد الآف الكيلومترات .. فكر فقط وتخيل !! هل يمكنك ان ترضى لـ"قطتك الصغيرة " أن يفترسها الذئب او يعلكها الدب في غابات سيبيريا ..او أن تتحول الى تمثال بلوري

من الجليد لخمسين مئوية تحت الصفر في (كمجاتكا)..تمعن! انظر الى هذا الوجه الرقيق ! ..لا تضحك! ..فقط.. تخيل !، تخيل !!

.. لم تبق الا اسابيع على تخرج لودميلا (الاوكرانية) من نفس المعهد الذي ادرس فيه كطبيبة للاطفال..ستجلس امام لجان تعيين قادمة من اطراف مختلفة من شتى اطراف روسيا المتباعدة من القطب وحتى القفقاس ..هي وحظها في العروض المقدمة للخريجين من اطباء المعهد ..قد تعين في قرية وسط غابة سيبيرية قصية او مستشفى في مدينة لا تبعد إلا بضع مئات من الكيلومترات عن موسكو.. لن تكون العاصمة باي حال من الاحوال مكانا للتعيين ..للسكن في موسكو عليك ان تحصل على عمل فيها..للحصول على عمل يجب ان تكون لك مساحة سكنية (مسجلة) فيها ، من ستة امتار مربعة او أكثر ..حلقة مفرغة لا عمل بدون مساحة سكنية مسجلة..ولا مساحة سكنية مسجلة دون عمل .
قلت ضاحكا :
- لالا.. أن ياكلك الذئب ويمزقك الدب ! ..لالا لن ارضى ذلك .. انه منظر مرعب ..طيب أنا موافق ولكن ..قبل ان اكمل (..ولكن بالشروط التي حددتيها) ، قفزت من مكانها بفرح ودارت شبه راقصة ..أحتضنتني بشدة وغمرت وجهي بالقبل (شيء غير مستساغ في المحلات العامة بموسكو) .. هورا ..هوررررا ..هوررررا ، اطلقت صرخة الانتصار الروسي الشهيرة بصوت عال جلب انظار كل من حولنا في المتنزه ..
- لا تقبليني! ..شدي اولا على يدي بقوة ..اتفاق وعهد شرف !..قولي(جيسنيا سلوفا) ..شدت على يدي بفرحة كبيرة وكررت ورائي (جيسنيا سلوفا) ..
بعد بضعة ايام وقفنا امام قاضي مكتب الزواج وحين سألها عن اي لقب تختارين بعد الزواج أجابت " الجواهري" ..لم تكن هنالك زفة وبدلة بيضاء واكليل ..شاهدان فقط هما أحمد النعمان ومحسن سعدون .
..يمكن تسمية هذ ه الزيجة بين الاخريات المتعددة بانها (زيجة الشفقة) .

مسرور يزداد حزنه ..يصبح وجهه النحيل الطويل اكثر ذبولا ..صمته وسرحاته يطولان حتى وانا اجلس معه في قسم الترجمة .
- في اي بلد عربي تتصور انه يمكن قبولي ؟ ..هل تتصور انه يمكنني العودة الى العراق ؟.. نحن الآن في عهد الجمهورية وللحزب الشيوعي مكانة كبيرة ..لا يزال هنالك عوائل يهودية معدودة باقية هناك ..كيف بقت لا اعرف لكنها موجودة .. سرح ببصره بعيدا خارج غرفة الترجمة الكبيرة ..خارج ضجيج آلات الطابعة والاحاديث المتشابكة .. واصل احلامه :
- كم هو مؤسف ان الجواهري قد غادر العراق غاضبا وان علاقته بالزعيم انتهت ..لقد كان بالامكان ان تتدخل يا فلاح لتوصل التماسا اقدمه الى الزعيم عبد الكريم عن طريق والدك المقرب اليه.. آه لو انني لم أكن احمق وسارعت في الاشهر الاولى للجمهورية واستعنت بك لايصال الالتماس ..

وصل مسرور الى اليونان بعد خروجه من السجن وبعد مؤامرة اسقاط الجنسية عن اليهود لدفعهم - وبتخطيط دولي- الى اسرائيل ..وصل أثينا وكان امامه خياران ..توصية الحزب الشيوعي لدخوله الاراضي السوفياتية .. والباب المفتوح الى اسرائيل ..الخيار الاخير معناه خيانة لقناعاته الماركسية الوطنية بأن الكيان الصهيوني عصاة موسى الاستعمارية للإستحواذ على الشرق الاوسط .. أضف الى انه طعنة للوطن الذي احبه وضحى في سبيله ..لم يطعنه الوطن في ظهره ولا ناسه الطيبون ، انما طعنه من تآمر على العراق ومن خانه ..
.. لم يطل مسرور التفكير في الخيارين ..توجه في اليوم التالي الى السفارة السوفياتية ومعه رسالة توصية الحزب الشيوعي العراقي ..ايام ويدخل مسرور الى العالم الاشتراكي المسحور ..مطمح الشعوب .
قبل بكل الاوضاع الصعبة في البداية واقنع نفسه بكل مبررات وجودها ..وجدوا له عملا كمذيع في اذاعة موسكو ..تزوج من غالا وهي روسية تعمل في وكالة الانباء (نوفستسي)..كل شيء بدا مقبولا حتى حلت نكبة الازاحة عن البث الاذاعي .

احداث كثيرة تتوالى وشخوص يمرون عابرين على حياتي في تلك الاونة ..بعضهم يترك أثرا .
..يُنحى عبد الوهاب البياتي عن منصبه كملحق ثقافي ، لعدم قدرته على التوفيق بين مهامه الوظيفية، وخصوصا مع آلاف الطلبة الذين قدموا، وبين مهامه كشاعر.. يريد الشاعر ان يكون له حضورا متميزا في المحافل الادبية .
..يتنحى عنه اهتمام السوفيت كثيرا ..يخسر شقة الملحق الفارهة.. يسكن في غرفة في فندق موسكو ..ينفّض عنه الكثيرون .. التقي به مرارا وغالبا في الطابق العشرين من الفندق على مائدة الغداء في المطعم الكبير او على فنجان قهوة في البهو .

..يصل محمود صبري فتهيء له شقة بمرسم وسيع بمنطقة شبه مقفرة غير بعيد عن سكني ..بالطبع يضع الروس له مرافقة جميلة لا يتجاوز عمرها السادسة عشر ..تعرف بضعة كلمات انكليزية ..ازوره مرارا أجده احيانا في ازمة مع الوحي الفني.." الضوء شحيح عبر النوافذ الصغيرة " .." الثلج في الخارج يجمد العواطف في الداخل " .. "ارتفاع المرسم غير كاف لحجم اللوحات الكبيرة " ..
.. اضف الى كل ما اشتكى منه، هنالك دلع الصبية (الفرفورة) الجميلة ..اراقبها بنشوة وهي تتغنج بزعلها عليه ، رغم معطف الفرو الثمين الذي ترتديه، المقدم كعربون للصلح ..اكون في مرات عديدة وسيط صلح بينهما ، هذا اضافة الى الترجمة التي اقوم بها لما يريد احدهما ان يقول للاخر.
..سرعان ما يختنق محمود صبري .. يطلب تدخل الحزب ليهيء له مكانا في براغ .

..مسرور يدعونا انا والبياتي الى عشاء في شقته ..

..لاول مرة ارى مسرور مسروراً بحق وحقيقة .. يهل وجه بالبشر والترحاب وهو يفتح لنا الباب ..حتى غالا زوجته المتأنقة، تعلو وجهها المحافظ ابتسامة مشرقة وهي تهيء انواعا عديدة من اطايب المأكولات الروسية ..نجلس اربعتنا حول المائدة الصغيرة بمربع الشقة الصغير ومع اقداح الفودكا نتناول العشاء كعادة الروس على المائدة والاحاديث تجري بسلاسة من موضوع الى آخر ..كل شيء كأحلى مايكون .. على فنجان قهوة بعد العشاء ..يدور الحديث، السياسة من صلبه ..الاتحاد السوفياتي والانشقاق الصيني وتأثيره على الاحزاب الشيوعية في بلدان العالم وعلى احزاب الشرق الاوسط بشكل خاص ..دور هذه الاحزاب والقضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني داخل البلد المغتصب ..يبحث مسرور بين الادراج ويخرج بضعة اوراق ..يعرض على البياتي جريدة الحزب الشيوعي الاسرائيلي وبيانه لمناصرة الفلسطينين داخل الارض المحتلة ..رفيق في الحزب يعرضها على رفيق آخر ..
يصمت البياتي للحظة..يخرج علبة سجائره ..يولع احداها ..يأخذ نفسا عميقا وينفث الدخان بقوة وهو ينظر الى السقف ..
- .. ما أنت إلا صهيوني لعين ..بل وعميل وجاسوس قذر ! يصرخ بوجه مسرور .
يصاب مسرور بالهلع ويرتجف ..تسقط الاوراق من يديه ..يمتقع وجه فجأة ويتهدل جسمه ..يسقط عن كرسيه .. نهرع انا وغالا اليه .. اطلب اليها ان تأتي بقدح ماء بسرعة ..افتح ازرار قميصه واتناول دورق خل صغير من فوق المائدة ..ادلك وجهه وصدره بالخل وأرش وجهه من قدح الماء الذي احضرته غالا الباكية ..يفتح عينيه ويحاول النهوض .. البياتي يجلس دون تململ وينفث بضعة انفاس من دخان سجارته بشدة في الهواء ..ينهض ويتوجه الى باب الشقة ..يفتحها ..يقف في انتظار المصعد .. اتوجه اليه ..
- لماذا يا ابا علي ..لماذا بالله عليك .. أهذا جزاء هذا المسكين الذي طيرّه الفرح بقدومك ؟!
- إنه يهودي لعين ..صهيوني قذر!
..فتح باب المصعد وغادر ..عدت الى الشقة الحزينة .
بعد ثلاثة اسابيع .. نشر البياتي في احدى الصحف المصرية قصيدة (الثلج الاسود) لاعنا فيها كل شيء وكل ماعاشه في بلد الثلج الاسود .
.. انتهت المرحلة العقائدية الاولى، مرحلة (الشيوعي) ، من حياة البياتي و كانت قد بدأت بـ :
ألا ياقطار الشمال البعيدْ
الى شرق برلين عجّـل بنا
كان ذلك القطار يعجل آنذاك ، عام 1954 ، بنخبة من شيوعي العراق الى مهرجان الشبيبة العالمي شرق برلين .

لم يعد مسرور الى وضعه السابق ابدا بعد ذلك ، حتى الى وضعه الحزين الصموت بعد (نكبة) فقدان مركزه كمذيع .. يشرد بذهنه اثناء العمل حتى يضطر رفاقه في العمل الى تنبيهه ليعود فيكمل ترجمة المادة التي تحت يديه ..لا يدخل في حديث او

حوار مع الاخرين ، بل يجيب بما يسأل عنه او ما تقتضيه ضروف المجاملة القصوى ..امتنع عن دعوة الآخرين الى بيته بل عن اية دعوة يوجهها او توجه له ..زاد وجهه الحزين الطويل الممتقع حزنا وطولا وامتقاعا ..استحال الى مدخنة للسجائر .. ازوره فيقوم بما هو ضروري في مراجعة الترجمة دون حديث خاص ..

أزدادت المهام الدراسية بتقدم سنواتها واصبحت ساعات الاذاعة الليلية عائقا عن اتمام بعض التحضيرات الدراسية والواجبات المسائية .. تركت العمل في الاذاعة واكتفيت بترجمة بعض النصوص التي اقوم بها لوكالة (نوفستي) للانباء كمدخول اضافي مساعد .. لم أر مسرور إلا قبل يومين من مغادرتي الاتحاد السوفياتي بعد التخرج لاودعه ..بكى بصمت وهو يحتضنني ودمدم بأصوات غير مميزة لكنها كانت كافية لتبكيني .

* * *

مع موجة هجرة اليهود السوفيات في مطلع السبعينات (الى ارض الميعاد) ، ولاختناق مسرور حتى الموت في عالم الاشتراكية (السعيد) ، او ان هذا الاختناق لم يكن إلا globus hystericus (لقمة الاختناق الهستيرية) ، فقد ركب موجة (الخلاص المنشود) تاركا الاتحاد السوفياتي وحط بركابه في اسرائيل ..
..لم ترافقه زوجته غالا .

..انت يا مسرور!! عربي عراقي بهجرة روسية ، أنت لا تعرف العبرية ! ..انت حتى لوكنت في بلدك الأم ولا تعرف لغتها فأنت اذا غريب منكوب ..
..مسرور ! لا انت روسي فيقبلك الحشد الروسي المهاجر ، وهم اكثر الناس في الارض تطرفا في العداء لكل ما هو عربي سياسيا كان أم اجتماعيا ، وانت يا مسرور عربي عراقي .. ينظر هؤلاء اليهود الروس اليك باحتقار ..
..لست يامسرور ممن يتقبلون الغرب المستوطن بافكاره الراسمالية ..أنت يا مسرور ماركسي آمن وضحى في سبيل عقيدته ، بل لعلك اصدق ماركسية من منظري السوفيات الجدد ..لاتتقبلهم ولا هم يتقبلوك .
.. العراقيون القدامي من ملتك يا مسرور ، غبت عنهم أكثر من عشرين عاما وهم رغم حنينهم الى الوطن الذي رموا بعيدا عنه، ورغم اللغة العربية المشتركة معك ، لهم همومهم واتجاهاتهم وتجمعاتهم الجديدة التي نزلت الى مستوى التسوية والمهادنة بكل شيء، بالعقيدة ، بالانتماء الاجتماعي، وحتى بالانشطة الثقافية والفكرية ليعيشوا عالمهم الجديد بسلام .. انت يا مسرور لا تعرف المهادنة .. غريب انت بينهم .
.. لا عمل يا مسرور وانت من وضع العمل أحد اركان وجودك ..أنت ضائع يا مسرور .

..سكن متواضع لا حضن دافيء فيه .. اين انت يا غالا ! ..اين انسجام العشرة الطويلة ! .. ذلك الانسجام العميق في الحزن قبل الفرحة ..اين أنتِ ايتها الحبيبة ؟! ..اين دفأ السرير والطعام والرعاية !..أين الحب الذي ضاع في هذه الهجرة اللعينة .
.. بعد اقل من شهر بدأ سفرك المكوكي بين يافا وتل ابيب حيث السفارة السوفياتية وبدأ تقديم الالتماسات طلبا للعودة الى موسكو ..رفضٌ اول ..رفضٌ ثان ..
تذهب وتعود الى يافا بخفّي حنين .. عبارة (التماسك مرفوض) تحرق روحك وما تبقى من جسمك الذاوي الذي اضحى خيالا ..ليس الالتماس وحده هو المرفوض ..انت مرفوض يا مسرور اينما حللت واينما توجهت ..
.. بدأتَ برساءل التوسل الباكي لكل من تعرفه في (الفردوس المفقود) ..زوجتك تبكي لرسائلك وتبذل كل مساعيها حتى لقد ضحت ببعض من ساعات عملها وبالبيت والراحة ..
.. تمر الاشهر وكلمة (التماسك مرفوض) تتكرر ..تمر سنة واكثر و(التماسك مرفوض) تفقدك صوابك ، او ما تبقى منه .
.. حتى توسلك بـ(يفغيني بريماكوف) رئيسك في الاذاعة سابقا والذي امتدت سلطاته ابعد بكثير من الاذاعة ليكون محورا مرموقا في السياسة الداخلية والخارجية، لم تثمر رسائل توسلك اليه إلا وعداً قد لا يتعدى حدود المجاملة او الشفقة ..
محاولة اخيرة تبذلها وقد قاربت سنتان على عذاب تغربك وشقاءك .. (صادق الجلاد) !! زميلك الاذاعي السابق والذي تربطه علاقة أكثر من متينة مع بريماكوف ..
.." انقذني يا صديقي!! " ، كانت هذه مناشدتك الاخيرة .
.. صادق وهو من عائلة عشائرية في الفرات الاوسط ، تأخذه فورة النخوة .. ينشط في مسعاه حتى الحصار الخانق على صديقه بريماكوف..
.. كنت يا مسرور وقد أُنهكتك المساعي المكوكية حتى الرقدة المرضية في الفراش ، قد كلفت زميلك في السكن بمتابعة المراجعات في السفارة السوفياتية .
.. تسترخي انت في غرفتك الصغيرة على مقعد استراحة .. تنصت الى صوت مفتاح الباب الخارجي يدور ..صوت اقدام تعبر صوبك ..
.." بشرى .. بشرى يا مسرور ..لقد قُبل التماسك .. لقد قُبل .."
.. قفزت انت يا مسرور من كرسيك وصرخت بفرح هستيري " صِدُكَ ! ..صِدُكَ ! "..
..أمسكت بصدرك بشدة يا مسرور وسقطت ميتاً .

رسالة لم ولن تصل الى يوسف العاني

يوسف العاني ..من فلم سعيد افندي

عاد الجواهري من منتجعات البحر الاسود تصحبه مرافقته سفتلانا .. رشيقة مليحة الوجه بتعبيره المحافظ ..كنت قد تعرفت عليها في لقاءات عابرة أثناء عملي الليلي في اذاعة موسكو العربية..هي في قسم الندوات الاذاعية..
يبدو من طبيعة التعامل بين الجواهري و سفتلانا انه لم يحقق معها انتصارا حاسما تحت سماء ليالي الجنوب المزدانة بجواهر السماء البارقة المتلامعة .
..يجلس الجواهري مع الرفقة المحببة من الوفد السوري، مع الشاعر شوقي بغدادي و الشاعر محمد الحريري (فيل الوفد كما يدعوه شوقي) ..تدخل (نِعمةْ) الجميلة الباسقة بامتلاءاتها (الكافرة) متأبطة ذراع اسماعيل بحرارة (اسماعيل لا مكان له في المؤتمر الا كونه أخاً لقائد الحزب)..يسير الزوج السمين المترهل خلفهما لاهثا متعرقا محملاً بعلب المشتريات الانيقة من اسواق موسكو (غوم) و(سوم) الضخمة ..
حين تلمح نِعمة الجواهري وهي تجتاز مدخل فندق موسكو ، جالسا مع رفقته السورية ، تنضم الى حلقتهم ..تحتضن الجواهري ممازحة من الخلف، قبل أن تجلس امامه بمرح وحيوية هازة شعرها العاتم وتخرج علبة سكائرها الذهبية ..يسارع الجواهري بولاعته ليوقد سيجارتها ..تضع ساقا فوق ساق ..ينظر بمرح الى الفخذين الممتلئين، هازا رأسه بحركة تنبيه ممازحة، ضاربا كفه على فخذه مرددا " حسبي الله ونِعمة الوكيل، حسبي الله ونعِمة الوكيل " ..نِعمة لا تبدل وضعية جلوسها ، مخاطبة اياه " اكعد راحة ابو فرات..تاليها وياك ! "
.. من مكان جلوسي معه المح (سفتلانا) من بعيد وهي تسير بجانب يوسف العاني متجهين الى المصعد..غرفة العاني غير بعيدة عن غرفة الجواهري في الطابق العاشر.. المحها مرة وانا متجه في الممر الى غرفة نوم والدي وهي تتسلل الى غرفة العاني .
..بضع فتيات جميلات يتجولن بين مجالس الوفود ،حاملات اوتوغرفات صغيرة
..يقفن بقرب (فيل المؤتمر) محمد الحريري ..
- ما هو دورك في المهرجان يا استاذ ؟
..يبرز اليهن ذراعه الضخمة ، مشيرا الى ان يلمسن عضلاته ويجيب :
- أنا مصارع ياباني قادم للمشاركة في عروض مباريات اثناء المؤتمر.

يبدو ان الجواهري كان قد رأى نفس مشهد تسلل سفيتلانا في يوم آخر، أو أن قوة حدسه قد قادته الى معرفة العلاقة بين الاثنين..
..يطلب ابدال المرافقة بحجة صعوبة فهم نطقها للعربية .
..(سالافيّ)- (البلبل) يصبح مرافق الجواهري البديل ..سالافيّ شاعر مجدد متقن للعربية في الثلاثينات من عمره ..
..يبدأ الجواهري باظهار انزعاجه بشكل اكبر من تواجد "هذا المدعو..أفندي سعيد؟!
..سعيد افندي؟! افندي يوسف؟! .. او يوسف افندي ؟! " يرددها في مجالسه .

..يوسف العاني ولسبب لا اعرفه (ليس في جبتي)..اولم استطع هضمه في حينه.
..لاحقا أُدرك وانا استعيد شريط الذاكرة أن السبب كان انزعاج الجواهري منه والذي انتقلت عدواه اليّ وليس لاي سبب منطقي آخر .

نغادر أنا ومحمد مجلس الكبار-الجواهري وصحبه- ونتجه الى قاعة الوفود .
..في المصعد بين زحمة الواقفين نرى سارتر بوجهه المدور وعينيه المحولّتين المتقافزتين في الاتجاهات الاربعة بقامته القصيرة وبالسترة المهلهلة والبنطال الفضفاض ..يعلق محمد هامسا في اذني " بربك لو رايته في احياء بغداد العتيقة ألن تقول أن هذا (المهتلف) عربجي من باب الشيخ ".
..ننطلق انا ومحمد بين مجالس الشباب، حيث نجيب سرور زميلي في السكن بجامعة موسكو، والجيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن..نلتصق بيوسف ادريس حين نراه وندعوه الى مقهانا-مقهى الشباب في شارع غوركي..
في ركننا المعهود من المقهى..يوسف سيد الجلسة يتحدث بحماس عن الحركة الناهضة الجديدة في مصر..عن حركة السلام بين الشباب هناك (كان يوسف ادريس احد نشطائها البارزين) .
حين يتحدث ،كل شيء ينطق في وجهه الاسمر الباسم، بالعينين العسليتين التي تنفذ في مستمعها الى الاعماق، يده التي تتحدث باناملها، جسده الضخم حين يميل بوجهه نحوك بين حين وآخر..يمغنطك..بقوة جاذبية تفوق كل ما نعرفه، وفوق كل هذا يخجلك بتواضعه حين يضعك مقام الند للند بالحديث والحوار ..
كم ستنزل بك الخيبة والاحباط الى الحضيض بعد خمسة وعشرين عاما ويغمرك الحزن حتى الاختناق بالعبرات وانت ترى هذا المارد الادبي الجميل، عملاق القصة القصيرة، يتحدث في لقاء تلفزيزني ببغداد عن مزايا الحر ب العراقية الايرانية الايجابية والعراق كله تغمره مخاضة الدم الرهيبة، وكيف انها توحد الامة وراء اهدافها و قائدها .. كان يوسف ادريس -ويا للاسف- واحدا من عشرات من ادباء الارتزاق الذين قدموا ليستجدوا البطل التأريخي -الجغرافي، بطل الحفر الاسطوري .
لقد لطخ هولاء اسمهاءهم الادبية بدماء مئات الالوف الابرياء االمساقين الى الموت .
..هاانذا اعيد المشهد واراه اليوم امامي كما البارحة ، وكما يقول الجواهري عني مستغربا ومعنفا في كثير من الاحيان " أأنت محامي البشرية كلها؟! "..اجد لهذاالاديب العظيم، الخالد، الذي اعشقه عذر المحب المعجب، انه كان نزيل مستشفى الامراض العقلية قبل قدومه بمدة (او مثلما كان هو يناشد الآخرين ليسندوه أنه ادخل اليها قسرا)..اضف الى ذلك تصوري خيبة امله الممضة وضياع كل القيم بعد نكبة حزيران وتضحيات الشعب المصري المكافح، وبطولة الجندي المصري الفريدة في العبورالعظيم ومن ثم نهايتها المأساوية بـ(اتفاقية الكيلو 101) .
..ولكن ماذا عن مئات الآخرين الذين مجدوا (بطل الحفر) المنتصر ابدا رغم هزائمه، أكانو كلهم قد اودعوا مستشفيات المجانين ليروا بعدها الشمس والقمر والهواء والشجر وحتى الله سبحانه في وجه القائد الضرورة .

* * *

كنت منشغلا في تحضير بعض المواد الاذاعية وترتيب الاوراق، واضعاً اشاراتاً وخطوطا لمواقع التوقف اثناء قراءة السطور امام المايكروفون وكان الى جواري مسرور كتانة ومشتاق طالب وكوزيتا (عانس الاذاعة الاوزبيكية) .
..نهضت كوزيتا مرحبة بسفتلانا المتوجهة نحونا .
..لم اعرها اهتماما كبيرا، غير انها انحنت هامسة في اذني :
- اريدك في كلمة سريعة !
- بكل ترحاب ولكن بعد ان اكمل قراءة النص الاذاعي لوسمحتِ ..لن يستغرق ذلك اكثر من ثلث ساعة .
..حين خرجتُ من غرفة البث الاذاعي المصمتة بادرتني :
- هل لي ان ادعوك الى فنجان قهوة في مقهى الاذاعة ؟
- بل ساكون شاكرا خصوصا بعد صداع غرفة الصمت المطلق تلك .
اختارت مكانا منزويا من المقهى..صمتت قليلا وبصوت مرتجف خافت حزين وقد ابتلت عيناها بالدمع :
- لقد تركني!..تركني بعد وعود كثيرة..كنت احسب اني سأرحل معه الى العراق..تعرف من أعني !؟
- لا ابداً ..قلت ذلك متظاهرا بجهلي من المقصود .
- ومَن غير يوسف العاني..لا اتصورك تجهل ذلك ، لقد كنت احس من ايام فندق موسكو ، بأن الامر لم يفتك فانت ابن ابيك .
- شيء مؤسف يا سفيتا ..مؤسف حقاً
- لكني اقصدك الآن بطلب غير صعب لكنه مهم عندي.
- من عيني هذه لعيني تلك واشرت الى الواحدة بعد الاخرى .
- لقد علمت من كوزيتا انك طلبت اجازة من عملك المسائي وانك متوجه بعد غد الى فيينا لحضور مهرجان الشبيبة .
- هذا صحيح .. لعشرة ايام فقط .
-لقد عرفت من مصادر موثوقة ان يوسف العاني سيكون ضمن الوفد العراقي القادم الى المهرجان ..رجاءي ان توصل اليه هذه الرسالة ..سلمتني الرسالة واخرجت منديلا من حقيبتها الصغيرة لتجفف عينيها الدامعتين .
- سابذل جهدي كي اوصلها اليه ..هذا فيما لوكان قادما فعلا الى فيينا .

كان مقعدي وسريري، في القطار الفخم المتجه الى فيينا عبر دول اوربية، مع الوفد الفنلندي ..رفقتي كانت في معظم الوقت مع فتاة حمراء، حمراء الشعر، حمراء الخدين، حمراء القميص، حمراء الحذاء، حمراء الانتماء وحمراء الليالي بعد ان تكرع نبيذها الاحمر في مطعم القطار .
يقف القطار في مدن صغيرة.. نجد مهرجانات صغيرة بانتظارنا على الرصيف بموائد عامرة بالاطعمة المحلية والنبيذ والجعة وبفرق الموسيقى والرقص الشعبي.. بضع صبايا في المدينة المجرية الصغيرة يتقدمن بوجوه خجلة مرحة محمرة صوب

الشاب السنغالي المرافق لنا في العربة..تطلب احداهن ان تتلمس فرشاة الشعر المجعد المعثكل الخشن ..تمرر كفها الصغيرة فوق رأسه الذي قام باحنائه قليلاً وتقفز بعدها بفرحة المنتصر الذي حقق امنية عزيزة بفوزه ..الاخرى تسأله بخجل عن امكانية تقبيله من خده..يدير لها وجهه المبتسم ..تستدير بعد القبلة لتحتضن احدى رفيقاتها بفرح.
ها نحن قد وصلنا الى فيينا..أجد مكاناً في سرادقات النوم غير بعيد عن الوفد العراقي واقرب الى الفنلندي، حيث الحمراء .
في سماء المدينة الجميلة ترفرف فوقنا في كثير من الاحيان، لافتات طويلة تمتد وراء طائرات التدريب الصغيرة وقد خط عليها " تذكّر إنتفاضة المجر عام 56 !! ".. " تذكّر مذابح بودابست!! " .." تذكّر من ذبحهم الشيوعيون في كاتين !! "
..يقف فوق رصيف الشارع المؤدي الى معسكر سكن الوفود ستة من الرجال الضخام ..اثنان يحملان لافتة مكتوب عليها " لانريد الشيوعيين في بلادنا " والبقية تحمل رزم كتب ومنشورات مناهضة للمهرجان ..
احاول تجاوزهم والوصول الى باب المعسكر ..يتصدون لي ويعرض أحدهم باستفزاز أخذ منشور وأحد الكتب ..أرفض ..يحيطني ثلاثة منهم غاضبين مهددين ..قبل ان يبادروا بالاعتداء علي اسمع صوت إمرأة عجوز تصرخ بغضب والمحها تركض حاملة مظلتها عالياً مهوّشة بها صوب المجموعة .. اميز كلمة " فاشست " بين بقية الكلمات الالمانية .. تنفض عني المجموعة التي تحوطني ..تقف السيدة العجوز بمظلتها واناقتها المميزة الى جانبي واقدّر أنها لا تقل عمراً عن الثمانين ..تتحدث معي بانكليزية طليقة " لا عليك من هذه الحثالة .. للأسف لايزال عندنا الكثير منهم في مدينتنا الجميلة ..هل شاهدت نصب شتراوس وتمثال بتهوفن..هل زرت المتحف حيث كليمت و يوجين شيل والكاتدرائية العريقة.. فيينا مدينة جميلة وفيها الكثرة من الناس الطيبين ..ارجوك اقبل اعتذاري ومرحبا بك في مدينتنا " .. ارفع كفها المعروقة وانحني فأقبل اناملها ..تقف منتظرة حتى ابتعد قليلا عن المجموعة في طريقي الى بوابة المعسكر..أستدير وانحني تحية لها واواصل سيري .

تبدأ عروض افتتاح المهرجان باستعراضات الوفود في شوارع فيينا المزدانة التي لا تزال رسمياً تحت الهيمنة الامريكية والروسية..لا تلحظ هذه الهيمنة على حياة المدينة الفخمة.
كل الوفود قاطبة من كل ارجاء المعمورة تتقدمهم الموسيقى والراقصون والمهرجون وحشود السائرين التي تصخب بالابواق والمزامير والطبول والاغاني المرحة والبدلات الشعبية الزاهية الالوان .. إلا الوفد العراقي فهو يسير بوقار تتقدمه نخبة من الرفاق القياديين بالوجوه الرسمية وفي الطليعة يمشي (أبو الهُبْ) اخطر شقاة بغداد العتاة المرهوبين، لقد فاق صيته المرعب في ظلمة ازقة بغداد العتيقة، صيت الشقي الشهير (ابن عَبدَكه) و الشقي الآخر (ابن الحجية)..أبو الهُب يسير بوقار السلاطين بكرشه الضخم و(دشداشته) الطويلة وسترة الجوخ السوداء فوقها ..سبحة الكهرب الطويلة تتدلى من اصابع يديه وهوصامت مبتسم بهيبة ووراه حشد شباب

الوفد يرددون بصوت رتيب ممل " هله بيها !..هله بيها آآآه ..آآآه جمهورية، جمهورية آآآه..ديقراطية شعبية ..إيه شعبية..إيه شعبية آآآه .."
كاكه فاضل القادم معي من موسكويخزني بكوعه كي نبتعد عن مجموعة (هلا بيها)

..أنطلق انا ومصورة المانية ببنطالها الكشفي القصير..تعلق فوق رقبتها كاميرتين وبضع مرشحات للضوء.. نجوب الازقة العتيقة في مدينة الخمور القريبة وضفاف الدانوب .. احاول مغازلتها هنا فأجد نفسي سخيفا فهي منشغلة عني بعالمها الخاص .. بالطحلب الاخضر فوق جذع شجرة عملاقة، باعواد مكسرة وقش واوراق اشجار عتيقة ازاحها التيار فوق كومة من احجار الضفة ..بحزم الضوء المهشم وهوينفذ من خلال اغصان كثيفة متراقصة ..اترك محاولات التقرب الصبيانية وابدء بمصاحبتها بصمت مستمتعا بمراقبتها وهي تقفز كالطفل فرحا وتسير مسرعة منبهرة صوب اكتشاف جديد .

..على سطح قاعدة عالية لاحد التماثيل الرائعة في اكبر ساحات فينا يقف العملاق الاسود بشموخ.. تخفت الاصوات ويسود الصمت فوق رؤوس عشرات الآف من شباب العالم ونصف قاطني فيينا ومعهم القادمون من التيرول أو جنيف او من المانيا ليستمعوا وليروا عن كثب اسطورة الغناء بول روبسون ..
..(جماعة هله بيها تختار مكانا آخر لترديد اهزوجتها الفريدة) .
حين انطلق الصوت الجهوري العميق الدافيئ :
I dreamed I saw Joe Hill last night,
Alive as you and me
حتى هلل الحشد والارض والسماء وكل مافي الساحة فرحاً واستحسانا للأغنية المختارة ورأيت هذا العملاق الاسود يتطاول ليقارب رأسه السحاب العابر فوقه .
..صمت الحشد بسرعة ليواصل المغني الاسطوري سمفونيته

أجد الجواهري اخيرا في الطابق الثالث من فندق صغير ..أسلمه رسالة سفتلانا المعنوَنة الى يوسف العاني كي يوصلها اليه ..
..كنت واثقا حين غادرته بعد حين أن مصيرها سيكون اقرب سلة للازبال يراها .

* * *

" في هذه المراحل الانتقالية من تاريخ العراق وفي زحمة انشغالي بترتيب امور اتحاد الادباء ونقابة الصحفيين تأتي زيارتي الى الاتحاد السوفياتي للمشاركة في

مؤتمر اتحاد الكتاب السوفييت بدعوة خاصة منهم، وكان ذلك في فترة الاهتزازات والمفارقات والنكسات التي تطفو على سطح علاقات نقابة الصحفيين..
وبينما انا اهيء حقائبي للرحيل واذا بجريدة الحزب الشيوعي العراقي (اتحاد الشعب) تنشر نبأ يقول: ان وفداً - بالحرف الواحد - وفداً..فلان وفلان سيغادر الى موسكو ..
الحقيقة انني تألمت جدا حين قرأت هذا النبأ لانني اعرف من يكون فلان هذا..اعرف انه بعرف المقاييس الادبية لايستطيع ان يكمل بيتا شعريا واحدا واعرف أنه بعيد كل البعد عن اية علاقات ادبية وترشيحه معي بغض النظر عما فيه من مساس لكرامتي، فتخريب او ما يشبه التخريب للدعوة الخاصة بي والموجهة اليّ شخصيا .
غريبة هي امور اخواني الشيوعيين، لماذا لم يختاروا من بين كل اعضائهم إلا هذا الرجل الذي لاعلاقة له بي بأي وجه من الوجوه .
ولم يكتفي صاحبي هذا بذلك، وكان قد عُين لنا مرافقا روسيا في تجوالنا وتصريف امورنا، واذا بهذا (الموفَد) يستولي عليه بدعاباته واحاديثه المضحكة ولأبقى وحيداً سجين غرفتي ليوم اواكثر حيث شاء الحظ أن يتصل بي (جورج تللو) وهو من الطلائع الخيرة من الحزب الشيوعي، ولا يخلو كل حزب من طلائع خيرة وشباب واعٍ ويسألني عن حالي ووضعي .. حين اخبرته بواقع الحال اتصل مباشرة بمؤسسة الشبيبة (الكومسومول) الآمرة الناهية وقتذاك، فينقلب الواقع من حال الى حال وتكون الضارة نافعة بل ونافعة جدا..ولقد كان من تأثير المسؤليين في الشبيبة السوفياتية بل ومن غضبهم على هذه المفارقة البغيضة بأن لم يكتفوا باراحتي من هذا المرافق الثقيل بل وبعزل المسؤول الموكل بنا .
لقد جاءتني هذه الساحرة لتجري معي حديثا لاذاعة موسكو ولكم تمنيت وقد فتنت بها لاول لحظة ان تبقى الى جانبي ولو ساعات قصارا..وما لبثت هذه الامنية أن اصبحت واقعاً ومن صميم تكريمهم قرروا ان تكون هذه الرائعة.مرافقة لي.
بقينا في موسكو ليومين او ثلاثة وبعدها اريد لي ولا اقول لها ، أن تكون مرافقتي الى المصح في (سوجي)على البحر الاسود ..
قلت انها عالقة بدمي لانني حتى هذه اللحظات التي يتسنى لي بها سماع اذاعة موسكو فاذكر غنجها ورقتها،اذكر عذوبتها، اذكر صلابتها وقوة ارادتها، اذكر رقتها وكبرياء مواقفها الى الدرجة التي اربكتني واوقعتني في القلق وانا بين ايدي الاطباء، متساءلا : كيف تنتصر ارادة الموقف في مقاومة احساس شاعر يطمح حتى بلمسة من يدها ..
..تعافيت تماما في ذلك المصح، وكان اول شاهد على ذلك ولدي الدكتور فلاح الذي كان يدرس الطب في موسكو، حيث يكاد لا يتعرف علي لا بسبب الطاقية، بل بسبب ماطرأ على صحتي من تحسن ..
عدت الى موسكو وفيها تلقيت الدعوة الى هنغاريا..بلغاريا..ثم الى المانيا الشرقية واخيرا فيبينا .. ولبيت هذه الدعوات كلها . "

محمد مهدي الجواهري (ذكرياتي)

ثلاث رسائل من الجواهري

الرسالة الاولى :

خالد محي الدين

جمال عبد الناصر، عبد الحكيم عامر وخالد محي الدين

لم يكن في وداعي في مطار شيرميتيفا غير (لودا) الباكية
.. اقبلها من عينيها الدامعتين ..
- بالطبع ياحبيبتي ساستدعيك الى السودان ..بالطبع ، بل ستكونين مساعدتي في علاج المرضى هناك في عمق الادغال ..بالطبع ستكونين برفقتي ونحن نجوب مجاهل افريقيا حيث الاسود والنمور والفيلة ، وحيث رقص افراد القبيلة نصف العراة الترحيبي حولنا..- كونيجنا - بالطبع، - مايا مالينكايا- يا صغيرتي- بالطبع .. بالطبع - كونيجنا !!
حطت الطائرة في براغ وهي المحطة الاولى في الرحلة الطويلة المزمعة .
في المساء كنا جميعا - جواهريو براغ (الجواهري وأم نجاح ونجاح وظلال وانا) نجلس حول مائدة الشاي التوديعية ، فأم نجاح قد قررت العودة الى العراق وبصحبتها اختنا الاصغر ظلال .. الجواهري منشرح يمازح الجميع ويشتكي من وحشة البيت ووحدته الآتية ..أم نجاح تنظر اليه بعينين ساخرتين وكأنها تقول " لن تطول وحدتك فالحبيبة جاهزة لتطرق الباب بعد ساعات من مغادرتنا " ..
- تعال معنا الى العراق يا فلاح ودعك من مغامرة السودان .
- ياليت والف يا ليت ولكن ! انتما امرأتان وبعيدتان كل البعد عن اي نشاط سياسي لن تُحسبان على الجواهري ..أما انا فصوفتي موسكوفية حمراء ..
في صباح اليوم التالي غادرتا عائدتين الى العراق .
لم أبق إلا ايام معدودات ، كان الجواهري لا يغادر البيت الا في المساء فهو في انتظار رنة الهاتف او جرس الباب التي طال غيابهما .
لا صدى هاتفٍ يرنّ ولا الجرسُ مُعلِنا
ننحدر سوية عند الغروب مشيا من تلال (بتجيني) حيث شقتنا اللطيفة صوب (سلافنسكي دوم) -البيت السلافي ، وهي مسافة تقرب من خمسة كيلومترات ..يجلس هناك في مكانه المفضل وسط زحمة رواد البار القديم ويجيل البصر في وجوه حسان براغ المنتشيات وراء اقداح البيرة الكثيرة المرصوفة على الموائد الطويلة ..يمازح نادلات البار بأزيائهن الجديدة (الميني جوب) .. يرصد كل زاوية من المكان وحين

تتسع الابتسامة على وجهه اعرف انه قد راى وجها متميز الجمال ..ادير وجهي صوب ذلك المكان فاتأكد انني لم أكن مخطئا ..يعدل من جلسته ويضع كفه على طاقيته الكردية ويحني رأسه انحناءة خفيفة محييا ذلك الوجه الصبوح ..تُرد التحية بابتسامة جذلة .. يستدير مزهواً بعد ان يعدّل من طاقيته ليواجهني ..
- اذاً وجهتك السودان دكتورنا .. لم السودان تحديدا ؟
- الحاجة هناك أمس من غيره لطبيب ، والبلد يمر بتجربة جديدة اريد أن أشهدها ..وربما من هناك بعد عام اوعامين الى عمق افريقيا حيث الحاجة أمس.

في الليلة السابقة لمغادرتي وبعد عشاء احتفالي اعده الوالد من سمك الكابري ، سلمني الجواهري ثلاث رسائل بإسم (لجنة الدفاع عن الشعب العراقي) التي يرأسها والتي كانت تلفظ انفاسها الاخيرة ..

وصلت الى القاهرة في المساء ودلني سائق التاكسي الى بنسيون صغير في شارع محمد علي وسط القاهرة ..على طاولة عشاء البنسيون تجاذبنا الحديث انا ومعلمة عراقية شابة قدمت كسائحة في اجازتها الصيفية .. بضع عبارات وبدأت تشكو لي من الوحدة القاسية في العاصمة المثيرة .. دعتني الى جولة في الغد بين اهرامات الجيزة .. ابديت موافقتي .
كنت استرخي على احد المقاعد في بلكونة غرفتي ..شاهدتها على شرفة غرفتها تقف في رداء منزلي فضفاض ..لوّحت لي بيدها ، فلوّحت ..أشارت بكفها اشارة لم افهم مغزاها او تعمدت عدم فهمها .. دخلتْ الى غرفتها وانارت ضوئها .. بعد دقائق سمعت طرقا خفيفا على الباب .. خادم البنسيون الكهل يحمل بيده رسالة بمظروف صغير .." أدعوك الى فنجان قهوة في غرفتي ..هناء " ..طلبت من الخادم الانتظار .. تحت سطور الرسالة اعربت عن شكري واعتذاري عن الدعوة لاني منهك اثر السفر الطويل وساخلد الى النوم ، وكتبت في النهاية "في الغد ملتقانا لجولة الاهرامات " ..منحت الخادم عشرة قروش وأعدت اليه الرسالة لايصالها .
.. في الصباح الباكر وقبل ان يصحو الآخرون كنت قد غادرت البنسيون دون افطار.
.. حين وصلت الى شقة محمد المشرفة على ساحة التحرير .. لامني كثيرا لضياع فرصة الليلة الماضية .
يحتل نائل -صديق الصبا- الغرفة الثانية من الشقة ..
بدأت جولاتنا انا ومحمد في الاماسي بعد ان يعود من عمله الصحفي التدريبي في مؤسسة اخبار اليوم .. نرتاد بعض مقاهي القاهرة القديمة .. نتنزه على رصيف شارع النيل المطل على النهر الوسيع وبايدينا كيس (الترمس) او (كوز) الذرة المشوية او قدح من شراب عرق سوس .. نسترجع ذكريات موسكو ..نخطط لمشاريع قاهرية .. نبحر في احلام مستقبلية .
عند اول يوم لوصولي الى العمارة ، يستقبلني عم عبدو البواب بـ" اهلا يا باشا" ..بعد أيام من تكرار جلب طلبات الفول والطعمية الى الشقة ، بدلا من الكباب والفراخ

اصبح يستقبلني اثناء دخولي بـ" اهلا يا بيه " .. حين لم اتعد الخمسة قروش كبقشيش لجلبه عشاء الفول التقليدي اصبح استقباله لدخولي باب العمارة " اهلا يا افندم " .. ايام تمضي ويتشاغل عم عبدو بعدها عني عند دخولي بترتيب كرسيه او النظر بحثا عن شيء يفتقده في زوايا المدخل . .
حين تكون لمحمد خفارات ليلية في الجريدة يكون نائل في غرفته بصحبة احدى (الشراميط) اللواتي يدلهن عم عبدو على الشقة بعمولة من الطرفين ..احيانا حين لا يكون منغمسا في الجنس او ثملا في بار قريب ، يأتي بقدحه ويجلس الى جانبي في البلكونة المشتركة ليسترجع الذكريات عن ايامنا في مدرسة الغربية المتوسطة او زياراتي له في دارهم في الوزيرية ..
نائل من عائلة بغدادية موسرة معروفة .. والده احد اكبر رجالات التعليم في الثلاثينات والاربعينات ومن اقدرهم ..اديب معروف وله صداقة متينة بالجواهري ..نائل ابنه الوحيد .
اشتركنا كثيرا بروايات الجيب في بداية المتوسطة ، بـ(أرسين لوبين) وشرلوك هولمز و روايات اجاثا كريستي ولويس ستيفنسون واسكندر دوماس الابن ومغامرات روكامبول وبالطبع عنترة وزيد الهلالي ..اختلفنا في الثانوية فـ(كفاحي) كان كتابه المقدس وكل قراءاته حينها لا تتعدى ما يتعلق بسيرة هتلر، وحين كان يحدثني عن بطولات القائد الحديدي يحمر وجهه من الحماس في ترديده قول هتلر ".. واني سارسل الى الحديد والنار بخيرة شباب المانيا في سبيل مجد المانيا وعظمة الرايخ الثالث " .. انا كنت في تلك الفترة غارقا بين صفحات (الأم) و(طفولتي) لمكسيم غوركي وسراب نجيب محفوظ وجسر على نهر درينا ..
حين التقيته في موسكو في مطلع الستينات قادما للدراسات العليا في المحاماة مع زوجته الجميلة ابنة جارهم في الوزيرية ، كان قد انتقل الى مرحلة جديدة .. الإندفاع الثوري للماركسية اللينينية الحماسية .. لم يمض وقت طويل حتى كان قد انتقل الى مبدأ جديد آخر ابحر فيه ، وغرق في بحر ايمانه واصبح احد مبشريه الصادقين الورعين : " الجنس! .. الجنس هو الحياة .. الجنس هو الاصل والغاية "
..طرد من المعهد الذي يدرس فيه لقصوره الدراسي ، بعد ان قام هو قبلها بطرد زوجته واعادتها لاهلها في بغداد..قدم الى القاهرة مقنعا اباه انه سيكمل دكتوراه في مصر..حين عرض عليّ ساقه في القاهرة بورمته الصمغية الضخمة كان مبدأه الجديد قد وصل به الى اعلى مراحل الايمان المعتنق ..الى الدرجة النيرفانية العليا .. السفلسية الثالثة .
.. يحضر والده لزيارته فاجلس معه على شرفة الشقة .. يشكي لي همه المرير .." لقد انهكنا انا والمسكينة امه نفسيا وماليا ..ارسل له شهريا ستين جنيها، اي ما يعادل اربعة اضعاف راتب الطبيب المصري المتخرج حديثا وهو يستدين فوق ذلك من الآخرين ..لابد وانه استدان منك ايضا .. يا لفرحة الجواهري بك يا ولدي ، ها انت تشق دربك الواعي في الحياة " ..لم اطلعه انني اضطررت فعلا الى الاستغناء عن بضعة من جنيهاتي المعدودة بعد توسله ، وكنت احوج ما اكون اليها في رحلتي الى السودان .

التقيت في مقهى ريش بعبد الوهاب البياتي بعد غيبة تزيد على سنتين .. اتصل بأم علي فأعدت لنا الكوسا المحشية على الطريقة المصرية ..كانت شقتة في منطقة (الدقي) متواضعة جداً .. اخذنا نلتقي في مقهى ريش كل يوم تقريبا ..لم يكن لأبي علي وظيفة رسمية او غير رسمية معينة.. كان ضجراً الى ابعد الحدود واصبح مفرطا في التدخين ..بعد ان نقضي ساعة او ساعتين في المقهى العريق ، نجد مطعما مناسبا باسعاره وبه طاولات معدودة على الرصيف نتناول غدائنا - الرز بمرقة الخضار (من غير لحمة) وهذا ارخص بكثير .. من البيت الذي يسكنه ومن المطاعم التي يرتادها امكنني ان اعرف ان البياتي لم يكن في بحبوحة من العيش في القاهرة .. "لكنها مستورة والحمد لله " .. مرتين ذهبنا الى السينما وكان هو من يختار الفلم وبعد الخروج من دار السينما يعلق على التمثيل والاخراج وموضوع الفلم ..آخر فلم معه كان مليون سنة قبل الميلاد لراكيل ويلش .. " وهكذا يناضل الانسان ليزرع حياته من جديد بعد اي كارثة او دمار " كان تعليقه بعد المشاهدة .. احتضنته وقبلته قبل ان اغادره بعد منتصف الليل فقد كانت تلك آخر ليلة لي في القاهرة قبل أن اواصل رحلتي الى السودان .

..كان موعد المقابلة مع خالد محي الدين هو الثانية بعد الظهر من يوم غد وكان محمد قد رتبّ الموعد من خلال عمله في دار اخبار اليوم .. سألته :
- كيف تراه انت وما الذي يقوله فيه الآخرون من زملائك في دار اخبار اليوم .
- الجميع يقول عنه وانا اولهم .. " خالد ! دي آخر حلاوة "..
.. إذاً ساقابل احد الاربعة الأوائل من الضباط الاحرار ، رفاق عبد الناصر ، احد اولئك الذين غيروا مصير الامة العربية كلها ..(الصاغ الاحمر) كما يدعوه عبد الناصر .. اليساري الديمقراطي الذي طالب عبد الناصر وقادة الثورة العسكريين عام 54 بالعودة الى ثكناتهم لافساح المجال لانتخابات ديمقراطية نزيهة لكي يقول الشعب المصري كلمته دون وصاية من الجيش ..كان هذا اول الخلاف مع عبد الناصر ورفاقه .. ابتعد عن المعترك السياسي لفترة ثم عاد كأحد مؤسسي حركة السلم العالمي في مصر .. دخل معترك الصحافة ليصدر اول جريدة مسائية ، ثم ليتولى بعدها ادارة دار اخبار اليوم ، اكبر مؤسسة اعلامية في مصر .
.. قبل الموعد بدقائق كنت امام استعلامات الدار في فسحة المدخل الوسيعة ..قدّمت نفسي و اخبرتهم عن موعدي معه .. رفعوا سماعة التلفون ثم تحدثوا بعبارتين ..هبّ واحد من موظفي الاستعلامات ليرافقني ..صعدنا السلالم العريضة امام المدخل .. " ما شكل هذا الرجل المهم ؟! .. فاتني أن اسأل محمد عن ذلك .. هل هو بملابس عسكرية مزينة بالنجوم والنياشين ؟! .. هل ساستعد امامه ؟! ارفعُ يدي امامه بتحية عسكرية ؟! ..لا تكن سخيفا يا هذا ! وهل انت ضابط او مجند ! .. هل أجده ببدلة رسمية كحلية ورباط عنق ضخم متجهم الوجه مطرقا ينظر في كومة من البيانات واشرطة التلغرافات من حوله .. احييه فلا يجيب ثم سيشير برأسه ان اضع الرسالة وانصرف ؟!..هل سيدعني انتظر في مكتب السكرتارية وبعد ساعة او اكثر ستخبرني مسؤولة المكتب أن اسلمها الرسالة وانصرف .."

فتح موظف الاستعلامات بابا كبيرا من الساج الى جانبه لوحة نحاسية خط عليها (مكتب الادارة)..غرفة واسعة يجلس بضعة افراد على الكراسي الكثيرة المرصوفة على اليمين واليسار " اذاً هذه غرفة الانتظار .. هنا ساجلس .." .. استمر الموظف المرافق ففتح بابا آخر على غرفة فسيحة تجلس بها سيدة انيقة جميلة وراء مكتب كبير بعدد من الهواتف فوقه .. نهضتْ مرحبة فاحنيت رأسي بتحية جوابية ..ادارت أكرة الباب غير البعيد عن مكتبها وفتحته ووقفت جانبا لادخل وبابتسامة حلوة " تفضل يا افندم " ..

.. كانت الغرفة وسيعة جدا باثاث فاخر ..وراء مكتب ضخم من الماهكوني يجلس رجل في العقد الخامس من عمره بقميص ابيض بياقة مفتوحة .. المسافة بيني وبين المكتب الذي اتجه اليه غير قليلة .. تقدمت (بشجاعة) وانا حائر كيف وما هي التحية التي سالقيها على الرجل الهام .. وقبل ان اصل الى نصف المسافة سمعت صوته العميق من وراء المكتب " أهلا بابن الكَـواهري ..اهلاً بابن الشاعر الكبير .." اضطربت اكثر فقد ضاعت مني التحية التي كنت قد توصلت اليها .. مد كفه الضخمة لاصافحه وتوضحت ابتسامته الترحيبية اكثر ..لم يرفع نفسه او يميل تجاهي اثناء المصافحة..اشار اليّ للجلوس على مقعد مجاور للمكتب ..جلست وحين ادار بوجهه صوبي قال مرحبا بتحفظ " اهلا أهلا " .. استطعت ان اقولها اخيرا واجيب بصوت واضح غير مضطرب " لي الشرف الكبير ان التقي بسيادتكم "

- بتشرب إيه ؟ ومد يده وضغط على احد الازرار ففتح الباب على الفور عن رجل ضخم ، يبدو من هيئته أنه حارس شخصي ، ووقف قرب المدخل منتظرا الاشارة .

- بتشربهاعالريحةْ ولّه سكّر زيادة ؟ سألني خالد محي الدين بابتسامة خفيفة .

ادرت راسي صوب الرجل الضخم عندالباب وخاطبته " على الريحة لوسمحت "

- وازاي الوالد ؟ ، كنا التقينا من زمن قريب في مؤتمر للسلام .

- بخير ويبعث اليكم بتحايا حارة ورسالة احملها لسيادتكم .. اخرجت الرسالة من محفظة اوراق صغيرة ..وقفت وقدمتها اليه .

بعد أن اكمل قراءة الرسالة ادار وجهه صوبي وقال

- نحن - وانا بالذات قبل غيري كما يعلم الجواهري - نحرص على قضية الشعب العراقي قبل حكوماته .. بلّغه سلامي ، ثم واصل ، انت طبيب حديث التخرج كما تقول الرسالة .. هل تنوي البقاء هنا في مصر؟ ، علي ان أُعلمك ان راتب الطبيب المتدرب في مستشفى القصر العيني لا يتجاوز الخمسة عشر جنيها .

- اشكر سيادتكم وكلي فخر ان اخدم في بلدي مصر ، لقد كنت طالبا هنا في حلوان في مطلع الخمسينات وما احب تلك الايام اليّ ، لكني متوجه الى البلد الشقيق السودان .. اكرر شكري .

احسست ان المقابلة اتت على نهايتها فاستأذنت للمغادرة .. حين وصلت الى باب الغرفة وقبل ان اغادر استدرت وانحنيت محيياً .. اجاب التحية بابتسامة .

ثلاث رسائل من الجواهري

الرحلة

مساحة الارض المزروعة الخضراء على جانبي النيل قد ضاقت والكثبان الرملية الزاحفة قد رسمت حدودها بخط واضح و امتدت موازية لضفتي النيل الى ابعد مدى تسمح به الرؤية ..هنا يتجسد صراع الانسان الذي لا يقهر مع جبروت الطبيعة .. كل شبر من الارض بين الرمال الحمراء وضفتي النهر العظيم قد زرع .. شريطان ضيقان من الخضرة الزاهية .. هنا ينهض الفلاح المصري عند الفجر ويشد منديله على جبينه ويرفع اذيال جلابيته عن ساقيه ليربطها بحزامه .. يحمل مجرفته على كتفه يعزق من الصباح حتى المساء ليزيح كل شبر من جيش الرمال الزاحف تعدى على زروعه ..يقف دوما حارسا يقظا .
.. صراع امتد آلاف السنين حتى من قبل اجداده الفراعنة الاولين .
.. القطار على مبعدة بضع ساعات عن اسوان .. ارقب مطلع الشمس وعشرات القرى النموذجية البيضاء الجديدة التي شيدها عبد الناصر لاستيعاب عوائل النوبة الذين هجرّهم السد العالي وبحيرة ناصر الذي يرتفع منسوب مياهها يوما بعد يوم كلما تقدم العمل في السد العظيم .
عند الظهيرة توقف القطار في آخر نقطة له غير بعيد عن المرفأ .. نزل بضع عشرات من السودانيين وانا معهم وتبعتهم في وجهتهم ..
.. انتظرنا جميعا ونحن نجلس في العراء تحت الشمس الحارقة فتح باب نقطة تفتيش المعبر .. اخيرا فتحت باب القش والقصب .. دخلنا تحت سقيفة القش الطويلة .. بضع طاولات يقف ورائها بضع عساكر .. أحدهم متجهم الوجه يصرخ بين الحين والآخر .. " خلّيك عَندكْ في الطابورْ! ..خلّيكْ عَندكْ في الطابورْ ! " ..ننتظر اكثر من ساعة قدوم ضابط التفتيش .. يحضر اخيرا ..يضع المسافرون حقائبهم الكبيرة واكياسهم وصررهم على الطاولة الخشبية الطويلة امام الضابط .. يفتح احد العساكر حقيبة بعد اخرى ويبعثر محتوياتها .. يخرج رزمة من القماش اوحزمة من النعال أو شدة من الشالات والمناديل .. يضعها على طاولة وراءه .. الضابط يأمر بصوت عال " يلّا احشر حاجاتك في الشنطة وامشي " .. تبدء توسلات المسافر وهو في الغالب في جلابية وعمة سودانية بالاحتجاج اولا ثم بالرجاء واخيرا بالتوسل الشديد " والله .. وعرض النبي دول هدايا للاهل والعِيال ..مش حرام يابيه .. الله يخليك " .. تنتهي الحكاية في الغالب بأن يأخذ العسكري من كل رزمة قطعة ويعرضها على الضابط ..يهز الضابط راسه بالايجاب ..يضع العسكري هدايا الضابط على الطاولة ورائه ..
.. وضعتُ حقيبتي اليدوية على الطاولة .. فتحت سحابها عن المحتويات
- فين بقية الشنط ؟ سأل العسكري ..
- دول كل حاجة يا فندم . أجبت .
- ليه دا انته مسافرللسودان ولا رايح للجامعة ..
.. كتاب (ميرك) الطبي ..اباء وبنون .. دفتر تخطيطات صغير وبضعة اقلام ، واحد منها (باركر 21) هدية غائب في جلستنا التوديعية .. سروال داخلي وفانيلا ، دشداشة بوبلين ، ادوات حلاقة ، فرشاة اسنان وسماعة طبية ..
- انت بتقرأ سنسكريتي .. وله ده كلام هندي ؟!

- لا ده روسي يا فندم
- وكمان روسي! .. روسي !
كانت الهدية المخصصة للضابط من (مضبوطاتي) قلم باركر 21 ..
انحدرت وراء المسافرين الذين لا يزيدون عن ثلاثين فردا كلهم من السودانيين غالبيتهم من الطبقات الكادحة .. اربعة او خمسة يشير زيهم وسمات وجوههم الى انهم من طبقة اعلى بقليل .
على الضفة اسفل منحدر نقطة التفتيش ترسو ثلاثة مراكب نقل حديدية (دوبة) يرتبط كل منها بقاربين بمحركين ، قارب كبير وآخر صغير .. فوق الجزء الامامي من مركب النقل الحديدي سقيفة خشبية وكشك صغير وزيرٌ للماء في المقدمة .
..انتظرت مع الاخرين .. الحمالون ينقلون البضائع ومعظمها اكياس مواد غذائية ، ارز ،وطحين وحبوب وبقليات وصفائح دهن وبالات كبيرة مرزومة باحزمة معدنية..
اجلت البصر في اطراف الضفة الاخرى بحثا عن سفينة نقل الركاب التي ساصعد على متنها مع الاخرين فلم اجد الا بضعة قوارب صيد صغيرة راسية على الضفة .." سنتأخر قليلا حتى تظهر السفينة .. ستقترب سفينة الركاب ثم ترسو غير بعيد عنا .. لا مناص من الانتظار في هذه الشمس الحارقة .." ..
بعد ما أكمل الحمالون نقل كافة البضائع الى عنابر المراكب (الدوب) .. صعد نوبيان وازالا الاتربة عن السطح الحديدي ورشاه بالماء ..
سألت من يقف الى جواري على الضفة ..
- متى تعتقد أن سفينة الركاب التي ستنقلنا الى السودان سترسو ؟
- ها هي المراكب التي ستنقلنا امامك.. لحظات ويسمح لنا بصعودها .
.." اين اذاً مراكب اجاثا كرستي الجميلة في(موت فوق النيل) ! .. اين مراكب (بوستة الخديوي) التي كنت اتابع صور رحلاتها في الخمسينات !.. لقد خدعني موظف مكتب السياحة في القاهرة حين حجز لي تذاكر السفر(قاهرة - خرطوم) ..واوجز تفاصيل الرحلة بكلمات غامضة .. اذا هي (دوبة !) ..اذاً انت الآن (فلاح فوق سطح صفيح ساخن)..؟؟! "
- كم ستدوم الرحلة بتصورك على ظهر هذا الحديد الملتهب ؟
- ثلاث ليال واربعة ايام ، اذا سار كل شيء على مايرام بمشيئة الله .. اجاب رفيق السفر السوداني .
..تأخرت عن البقية لعل وعسى ان يكون صاحبي مخطئا .. قد تظهر سفينة (اجاثا كرستي) اخيرا.. لم تظهر اية سفينة اخرى فصعدت .. " ما الذي يميزك عن هؤلاء البسطاء الطيبين .. توكل على الله يارجل " .. كنت آخر من صعد فكانت حصتي المركب الاخير الثالث .. الكل أخذ مكانا ظليلا تحت السقيفة ..لا مكان لي في الظل..نزلت الى (عنبر الدوبة)الملتهب حيث اكياس الرز والطحين والبقول وبالات الاقمشة وصفائح الدهن .. لقد كان اقل جحيما من السطح الحديدي الملتهب بالشمس العمودية فوقه ..

خلعت سترتي ووضعت حقيبتي اليدوية تحت راسي واستلقيت فوق كيس كبير للرز .. كنت اسبح بالعرق حين غفوت . صحوت على شيء يداعب صدري برقة .. كالحالم مددت يدي لاتلمسه .. لقد كان ملمس شعر خشن لجسم بحجم هر سمين .. انتفضت جالسا .. قفز الهر من فوق صدري ..فتحت عينيّ لاجد ان الهر لم يكن إلا جرذاً ضخما يركض فوق الاكياس ليقفز ويلتحق بصف من رفاقه الموسوسين باصواتهم وهم يدبون في حزم الضوء النافذ فوق حاشية حديدية عالية من العنبر ..مسحت وجهي وصدري المتعرقين ثم عدت من جديد الى سطح المركب .
كانت الشمس قد انحدرت لتلامس التلال العالية على الضفة الغربية للنيل .. انسام عذبة تهب بين الحين والحين من فوق النهر العظيم المرتفع الذي تتلاطم امواجه على جانبي المركب الذي يشق سطحه الطامي .. ابتسمت .. انتشيت وانا ارقب التلال الرملية على الضفتين .. ارتديت (الدشداشة) ولففت بدلتي وبقيطانيّ حذائي حولتها الى وسادة .. كان هنالك بعض السودانيين يتجمعون حول (عم ابراهيم) الذي جلس على حصيرته وراء منقلة باباريق للشاي واسياخ لحم يشوى .. توجهت الى مقدمة المركب حيث زير الماء .. اخذت حذري من السطح الزلق بالماء والطمي ..هنالك دلو مربوط بحبل الى جانب الزير لاغتراف الماء من النيل ،ومغرفة من الخوص للشرب .. اغترفت من الماء الذي ترسّب طميه وشربت حتى ارتويت.. اشتريت قدحا للشاي ..جلست على حافة المركب بعيدا عن الجمع ، مدليا ساقيّ صوب الموج المتلاطم .. أرتشفت من قدح الشاي .. سحتُ مع الشمس وهي تنحدر وراء التلال تاركة وراءها خصل شعرها الذهبية الحمراء البنفسجية المتحركة تداعب صفحة السماء ..الله ، الله!! هذا هو النعيم .. هذا هو الترف !!

النيل في موسم فيضانه وبحيرة ناصر التي بدأت بالاتساع اغرقت معالم كثيرة .. هامات نخيل تلامس سطح الماء .. تيجان اعمدة واعالي صروح حجرية لمعابد تسبح في طمي النيل .. كوشة من الحجارة والاتربة هي كل ماظهر من رؤوس كثبان رملية غارقة على الضفتين .. قمم مخاريط ابراج الحمام في بضعة بيوت غارقة لا تزال تنتظر دورها في الانغمار تحت سطح الماء ..
بدأ الظلام يحل سريعا ..رست المراكب الثلاثة على الضفة الغربية ..لا يسمح لأي مسافر بالنزول الى البر.. حذرونا من الكلاب البرّية المفترسة التي ترتاد الشواطيء .
تسلقت أعمدة السقيفة لاصعد فوقها ..لم تكن لي حصيرة كالآخرين فاستلقيت فوق اخشابها ..بدلتي المطوية كانت وسادتي ..لم أخشَ ان اتدحرج اثناء نومي الى اعماق النيل .. في ساعة متأخرة من الليل وبعد سرحات طويلة بأخيلة وذكريات عبرت امامي على شاشة الحلكة العاتمة وتحت قبة الليل المزدانة بقلائد جمان النجوم التي يزداد بريقها في سماء البوادي ، هدهدني الموج المتلاطم بجدران المركب المتأرجح برقة ، غفوت لاصحو والمركب يمخر النيل من جديد عند الفجر .
.. حاولت ان اتقرب لمن معي في السفر بجرهم الى حديث عابر اوالى رفقة طريق .. لم افلح كانوا يتحاشوني بادب صامت .

من بعيد بدت فوق التلال المتقاربة اثار فرعونية .. لم تكن هذه الاثار الفرعونية المتراصة ببعضها حين وصلنا الى تلالها غير بيوت طينية لقرية نوبية مهجورة طليت واجهاتها بالكلس الملون .. يا ربي الرحيم ! اي جمال لهذه الالوان والاشكال والرموز الفرعونية التي نقشت فوق جدرانها .. الابواب الخِشبية الصغيرة مداخل لمعابد الاجداد الفراعنة الاوائل .. ادركتُ لِمَ يرفض النوبي ان يهجر تماما هذا الفردوس الطيني الرابض في جحيم الصحراء المقفرة .. حتى ضفاف النيل تحتها نوع من احجار جهنم تلهث بسوادها اللامع متراكمة فوق بعضها لا تسمح لاي نبتة دخيلة ان تنمو بينها حتى ولوكان النهر العظيم على بعد اشبار منها ..محرّم حتى للشوك ان ينبت هنا .. هنا مكان اجرد للتأمل و العبادة فقط .
النوبيون رجالا يسافرون الى مدن مصر العامرة ..هم لا يهاجرون ..هم يعملون هناك بوابين وخدم وحراس ابنية .. يكدحون ليرسلوا الى عوائلهم كل ثلاثة اشهر رزقهم وملبسهم ومصوغاتهم .. وكلما سنحت الفرصة يعود النوبي الى نعيم جنته وعائلته ردحا من الزمن ثم يعود بعدها الى البيه او الست الهانم ارباب رزقه بعد اجازته في النوبة ..يعود ولا تثنيه كل مباهج المدينة وغرائبها عن موطنه ، عن بقاء ارتباطه الازلي بالمكان والتأريخ .
..لقد فشل عبد الناصر في اقناع عوائل النوبة الى الانتقال الى القرى النموذجية في الصعيد الاعلى ، التي شيدت كجزء من مشروع السد العالي .. وجد عجزا عن تحريكهم بالاقناع كي يتركوا اماكنهم في التلال التي لابد من غرقها ، فعما قريب سيرتفع منسوب بحيرة ناصر ليغمرها الى الابد .. لقد استعان بالجيش لاجبارهم على المغادرة الى مساكن وقرى هي اكثر رقيا ورفاها واعتناءا وامانا..
.. ناديت سائق القارب ذو المحرك الذي يدفع المركب (الدوبة) .. توسلت اليه ان يقف ساعة اوبعض ساعة لاجيل البصر بامعان في كل تفصيل فرعوني أخّـاذ امامي فلم يعرني انتباها ..تابعت المنظر المتباعد وانا اركض على حاشية المركب الخطرة لاقف عند مؤخرته وأرى من هناك مغيب الفردوس النوبي المتباعد .

.. ها قد مرت ليلتان .. الشمس قد مالت نحو الغرب ، لقد تجاوزنا الظهيرة وماهي الا ساعتين ونصل الى معبد ابوسمبل ..انتظر ذلك بفرح غامر .
كنت متكئا على جدار الكشك الخشبي منغمسا في قراءة الكتاب .. سمعت صرخة اعقبتها صرخات من المركب الا ول ثم من المركب الثاني الذي يسبقنا " غريق ! ..غريق ياناس ! .. غريق ! " .. قفزت على قدميّ وقبل ان اركز بصري على صفحة الماء كانت كتلة سوداء تشبه الرأس قد مرقت مع تيار المياه السريعة الى جوار مركبنا الثالث وتجاوزته.. لا اعرف هل هي ثانية او اكثر ودون اي تفكير او مراجعة كنت قد نضوت دشداشتي عن جسدي والقيت بنفسي الى النيل .. سبحت مع التيار المسرع .. اجتزت المركب بثوان معدودة .. رفعت رأسي عن الماء وانا اواصل مد الذراع تلو الذراع سابحا .. ارفع رأسي من جديد ..أرى موقع الكتلة السوداء التي توضحت عن رأس يرتفع الى مستوى الرقبة فوق سطح مياه الطمي المسرعة ..

.. لم اتمكن من تمييز ملامح الوجه الاسمر لبعد المسافة بيننا ، إلا ان الرأس كان ثابتا في مستواه ، وجهه ثابت مسمّر صوب الضفة الغربية .. الريح تصفر بشدة في اذنيّ ..اغمر وجهي في الماء واواصل السباحة صوب الرأس الطافي ..ها قد اخذت المسافة بيننا تقصر .. اصبحت لا تتجاوز بضع عشرات من الامتار.. رفعت رأسي مرة اخرى وانا اواصل السباحة .. ميزت بعض معالم الوجه الطافي ..لقد كان خاليا من اي تعبير .. العينان تحدقان في فضاء مجهول وكأنهما في حالة ذهول او ضياع .. لا يزال الرأس يطفو بثبات فوق سطح الماء كقطعة خشب ثقيلة .. اغمر وجهي في الماء واواصل السباحة ..

.. ارفع رأسي.. امسح سطح الماء ..لا اجد شيئا .. اتباطأ في العوم .. اتوقف عن السباحة .. اعيد مسح صفحة الماء الطامي ..لاشيء فوقه .

.. يتوقف صفير الريح فجأة .. صمت مطبق .. يتسع النهر الكبير وتتباعد ضفتاه .. تتضبب تلال الضفاف .. تتجمد زرقة السماء وحزم الضوء التي كانت تتلامع قبل قليل فوق صفحة الماء .. تتجمد مشاعري ..لا اعرف اين ولِمَ اتواجد هنا في هذا الفضاء اللامتناهي ، في هذا الصمت الازلي .. كل شيء فقد معنى وجوده ومغزاه .. لامشاعر عندي .. فجأة وفي لحظة لا تحسب انتقل الى حالة من الهلع المجنون ..انا في كون غريب .. وحدي في الفلك الواسع المجهول .. استرد بعض انسانيتي حين اسمع اصواتا تأتي من بعيد ويصل صدى همهماتها من خلفي .. ادير رأسي فوق سطح الماء صوب الاصوات .. ارى على مسافة غير قليلة عني اجساما تسبح صوبي .. المركب يكاد لا يرى ولكن هنالك قارب يتقدم صوبنا .. القارب يلتقط السابحين ورائي .. اسمع اصواتا لمن في القارب .. " ادي حنوصَلكْ .. حنوصَلكْ ..حنوصَلكْ خليكْ ثابت " .. الاصوات وهدير محرك القارب يهدّء روعي .. أحس بالضياع .. الحزن يغمرني ..فترة تمرّ وانا لا أعرف تحديد مشاعري .. موجة حزن اخرى تطغى على كل شيء .. إذاً أنا حزين .

.. اذرع تمتد الينا ..

حين سُحبنا الى سطح المركب .. احاط بي لفيف من رفقة السفر .. يربت بعضهم على كتفي .. احدهم عانقني بحرارة " بارك الله فيك يا اخينا " .." المقدّر مقدّر ومكتوب ..لك أجرعند الله انك حاولت " .. " والله راجل من وِلد رجالة ..ماتزعلش إسمته المسكين كده " ..عبارات ترددت من حولي.. عم ابراهيم قدم لي قدحا من الشاي ..

كانت المراكب قد انزلت مراسيها وفُك ارتباط القوارب الصغيرة عن قارب الدفع الكبير ..انطلقت القوارب عائدة مع التيار لا في محاولة للانقاذ بل لأمل ضعيف في اكتشاف جثة الغريق وانتشالها ..توقفت المحاولة العقيمة بعد اقل من ساعة ، فقد كان تيار النيل المرتفع على اشده على الاخص هنا بين تلال النوبة حيث يضيق النهر .

..واصلت المراكب الثلاثة تحركها .

.. الغريق طالب بعثة تخرج بامتياز من كلية التجارة في جامعة القاهرة قبل شهر واحد ..أبدل تذكرة الطائرة المخصصة له للعودة بتذكرة للسفر على ظهر المركب ، ليستفيد من فارق السعر الكبيرفي شراء وشحن مئات الكتب الادبية معه .

.. كان الغريق كاتب قصة واعد .. نشر بضعا من اقاصيصه في الصحف السودانية .. سباح ماهر ..عطش فتوجه الى زير الماء في مقدمة المركب .. انزلق فوق السطح الرطب بالماء والطمي قرب الزير ..ارتطم رأسه بسطح المركب الحديدي قبل ان يسقط في الماء .

رسست المراكب امام معبد ابي سمبل .. اصطف المسافرون على حافة المركب المواجهة للمعبد .. تم تحذيرنا من محاولة النزول .. المنطقة كلها محظورة حتى على السائحين فهي منطقة اعمال آثارية .
.. أُنزلت بضع بالات الى الشاطيء وهرع بعض حمالي الموقع لنقلها الى مكان مناسب .
تنتشر هنا وهناك امام المعبد بضع خيم كبيرة منصوبة ومعدات وآلات كبيرة .. مستوى الماء لا يزال بعيدا عن مدخله .. هنالك بضعة افراد ببناطيل قصيرة وقبعات تتجول فوق الرمال حول المعدات والخيم .
.. رمسيس الثاني قد قُطّعت اوصاله .. رؤوسه الضخمة مدحرجة غير بعيد عن مدخل المعبد المحفور في باطن الجبل .. اجساد رمسيس مقطعة كل منها الى جزأين ..واحد من الكتفين وحتى مستوى الوركين والثاني من الوركين حتى اسفل قدميه المضمومتين الى بعض .
..احد رؤوس رمسيس ينام على خده فوق الرمال يحدّق فيّ بثبات وعتاب .. " صدقني.. لستُ انا من قطّع اوصالك ! "
لقد تجاوبتْ دول العالم مع نداء مصر لمساعدتها لانقاذ المعبد ، الغارق لا محالة بارتفاع منسوب بحيرة ناصرالممتدة وراء السد العالي .
.. رصدت الأمم المتحدة 60 مليونا من الدولارات (ما يعادل الآن ستة مليارات)، لانقاذ هذا الاثر البشري الفريد .
..كان العالم لا يزال بعد متحضرا ..
..سيقطّع المعبد ، بتماثيل رمسيس الهائلة ونافارتاري زوجته وابناءه ، وبجدران المعبد في عمق الجبل بلوحاتها الفرعونية العجائبية .. سيضعون جهودهم حتى في محاولة وضع منافذ الضوء كسابقاتها ، ذلك الضوء التي تسقط حزم منه لعدة ساعات كل ستة اشهر لتضيء تماثيل الفرعون العظيم في باطن المعبد .
..تُقطّع الكتل ثم ترفع (وفيها ما يزن اكثر من عشرين طنا) ليعاد نصبها وتشييدها على علو اكثر من ستين مترا فوق المعبد الاصلي الغارق .
.
بدأت الظلمة تزحف من الجبل فوق الرمال لتصل الى رؤوس رمسيس المتناثرة.. عينا رمسيس لاتزالان تحدقان بي بعتاب شديد ..في العتمة بدا الحزن فيهما اكثر من ذي قبل ..
كرروا تحذيراتهم بالنزول الى الشاطيء.. هذه الليلة كان التحذير هو صلاحية اطلاق النار على الغريب الذي يحاول الاقتراب من الاثار النفيسة المقطّعة .
.. تسلقت سقف المركب كما الليلتين السابقتين لاستلقي فوقه وابحر في افلاك السماء

.. كنت فوق نفس مكاني السابق .. بريق النجوم هذه الليلة قد بهت ، لقد بدا لي كالدمع البارق في زوايا الاعين الباكية .. صفحة السماء الحالكة ترتدي الآن زي حدادها الاسود .. ..تحولت خيالات رؤوس رمسيس المرمية المبعثرة على الرمال وعتاب عينيه المحدقتين بي باصرار ، الى اشباح جريمة وموت يسود الشاطيء والنهر .
.. النهر .. النهرالمظلم الاسود وحش يبتلع الابرياء والمساكين .
.. كلما اغمضت عينيّ في محاولة للإغفاء ، يبرزمن اعماق خيالات النهر ، رأس الغريق الطافي على سطحه .. الرأس يغوص في الاعماق السوداء ..تنهشه الاسماك الجائعة ..وجهه الممزق لا انف فيه ولا شفتين.. عظام الوجنين قد برزتا من بين نتف اللحم العالق حولهما.. المحجران الاجوفان ينظران بظلمتيهما اليّ بحزن وعتاب ..النهر الوحش سينهشني لو تدحرجت في نومي الى اعماقه ..أقفز مرتعبا على قدميّ .. التقط بدلتي-وسادتي واسرع بالتدلي من سقف السفينة الى سطحها .. أجد فسحة بين المسافرين الغافين .. استلقي قرب احدهم .. ارتاح الى شخير البعض منهم والى انفاس من بجواري .. اغمض عيني في محاولة جديدة للنوم .

ثلاث رسائل من الجواهري
(2) التجاني الماحي

التجاني الماحي –في الوسط – اثناء زيارة الملكة اليزابيث للسودان عام 1965

يعوم مركب البضائع (الدوبة) براكبيه فوق مدينة وادي حلفا ..
نحن فوق (اطلنطيد) غارق.. فوق المدينة الصغيرة العريقة المغمورة بمياه بحيرة النوبة (امتداد بحيرة ناصر) ..
.. بضعة رؤوس لنخيل متباعدة تسبح في الماء الطامي .. برج كنيسة وعلى مسافة منه رأس مأذنة بيضاء ، لم يكن عندي اجمل من هذا الرمز العظيم .. هذا كل ما هو مرئي من مدينة وادي حلفا ..
رسى المركب عند مساحة رملية منبسطة .. وضعت الواح لنزولنا .. وضع كل احماله فوق الاتربة .. انا مع حقيبتي اليدوية التحقت بالآخرين منتظرا الخطوة القادمة ، التي لا اعرف ماهيتها بالتحديد .. تقدم نحوي ثلاثة من زملاء الرحلة وقادوني معهم الى حيث يتجمع بقية الركاب العشرة .. لقد تبدلت علاقة الجميع معي بعد حادثة الغريق اصبحت محل رعايتهم وصداقتهم .
تنتشر فوق الاتربة اكشاك معدودة لخدمات اساسية للمسافرين ..كشك لاعداد الشاي .. آخر لبعض الاكلات البسيطة .. كشك للتلغراف ..
.. توجه اثنان من مجموعتنا الى تجمعات المسافرين الاخرين ..عادا بعد قرابة الساعة ليخبرونا انهم ارسلوا برقيتين : الاولى برقية احتجاج لنشرها في الصحف السودانية والمصرية عن انعدام وسائل واحتياطات السلامة الاولية على ظهر المراكب الثلاثة .. البرقية الثانية نعي للغريق .
المدينة الغارقة كانت مركزا تجاريا هاما بين مصر والسودان .. تم تهجير سكانها الى شرق السودان من قبل الحكومة السودانية ، الى منطقة(خشم القربة) ، حيث اعدت لهم مساكن مناسبة ووزعت اراض زراعية لفلاحيها بديلا عن تلك الغارقة او التي تركت اضطرارا نتيجة ارتفاع مياه مشروع السد العالي ، كانت عملية مماثلة لتلك التي حدثت في مصر حين تم تهجير ساكني النوبة الى مناطق قرب اسوان .
..لم يبق من سكان حلفا الا نفر قليل ليمارسوا خدمات المسافرين القادمين من مصر او الذاهبين اليها .
بنى هؤلاء الباقون لانفسهم عششا من القش والخوص هي مكان اقامتهم ومركز خدماتهم .
كان علينا انتظار القطار القادم من الخرطوم حتى مساء اليوم التالي ..القطار يصل مرتين في الاسبوع الى بادية وادي حلفا لينقل المسافرين الى اسوان وليعود بالبضائع وبالمسافرين القادمين منها .
.. حل المساء وعذبت نسمات البادية من حولنا .. فرشت الحصائر ووضعت حقائب السفر وصررها حولنا .. كل اخذ وضعه المريح ..من استلقى ومن جلس ومن وضع صرة كبيرة وراءه واخذ يجيل البصر ببقايا المدينة الغارقة ..
.. من كشك قريب قدم صاحب المقهى بصينية تحمل اقداحا للشاي ..
.. كنت لا ازال محرجا من رفاق سفري ، فمن معبد ابي سمبل وحتى وصولنا الى حلفا ، لم يسمحوا لي بدفع ثمن اقداح الشاي او الشواء الذي كان يقدمه (العم ابراهيم) على ظهر المركب ، رغم ممانعتي الشديدة في البدء والتي اضطررت الى تجاهلها بعد فترة .. كنت ومنذ ذاك الحين في ضيافة الجمع السوداني .

في الليل عاد تاج الدين فرحا بعد ان اختفى في الظلام ساعة او بعضها .. عاد وبيد واحدة فانوس ، و بالاخرى زجاجتي ويسكي .. الفانوس استعاره من احدى العشش القليلة المتناثرة حولنا في البادية .. الوسكي قايضه بجنيهين مصريين من احد المتعاملين في البضائع المهربة كالسجائر والمشروبات والعطور واقراط الذهب وما شابه ..
لم تمض الا دقائق حتى بان خيال احدهم في الظلام مقتربا منا وكنا قد اخذنا وضع حلقة سمر دائرية .. كان القادم عامل كشك المقهى والمأكولات وقد حمل بيده صينية وبها عدد من صحون المكسرات والمخلل وبزر البطيخ المجفف وعددا من الاقداح الفارغة .
قام تاج الدين بصب الوسكي في بضعة اقداح .. هنالك دورق من الماء العكر لمن يريد .. آخرون امتنعوا شاكرين ..
.. كثرت النوادر والحكايا السودانية الظريفة .. طلب احدهم من (شرف) ان يمتعهم بصوته ..لحظات وكان الجميع يغنون معه .. آخرون يصفقون النغم المصاحب ككورس منسجم ..
.. استمرت جلسة السمر حتى ساعة متأخرة من الليل .. قفز تاج الدين وتوجه من جديد صوب بصيص ضوء احدى العشش وأختفى في الظلمة .. عاد ومعه شخص آخر يحملان صينية كبيرة .. وضعاها وسط دائرة السامرين .. كانت فتة كوارع (باجة) هلل لأبخرتها ولحمها وثريدها الكل بفرح وانبهار .." ينصر دينك يا تاج " " يا اعظم رجل في العالم ! " .. " يا تاج الدين والدنيا ، يا تاج الملوك .. " " يا تاج راسنا ! " ترددت اصوات ثناء الجميع على مفاجئة تاج الدين المثيرة .
.. لم نبق في الصينية إلا العظام .. اولمناها لكلبين ربضا من بدء الجلسة قربنا وشاركانا بما رزق الله .
نهض مصطفى واختفى في الظلمة ليعود بعد قليل بحصيرة ووسادة .. فرش الحصيرة فوق الرمل ووضع الوسادة عند طرفها " أهو ياسيدي فرشتك الملوكي " ..
اغفى الجميع فيما عداي .. تجولت على حافة المياه التي التحفت بحلكة السماء .. عدت صوب بصيص فوانيس العشش المتناثرة .. بعض المسافرين استلقوا على تخوت المقهى .. البعض منهم استلقى فوق حصائر التخوت بعد فرشها على الارض .. الحقائب والرزم والصرر متناثرة هنا وهناك ..
.. اكملت جولتي كحارس للمنطقة .. عدت فاستلقيت على فراشي الملوكي .. لحظات وضقت ذرعا بالحصيرة الملكية .. تركتها لاستلقي على الرملة الباردة واسيح في السماء الصافية بافلاكها المتشابكة .. تتبعت وهج المجرة المضبب ، الذي يبدو وكأنه وشاح جرجرت حواشيه آلاف الانجم حوله ..
لم افق إلا ووهج الشمس يبهر عينيّ في الصباح .
.. عصراً سمعنا من بعيد صوت انفاس القطار القادم ، ثم صفيره المتقطع كاشارة عن قرب وصوله ..لملم المسافرون حاجياتهم ووضعوها قرب السكة الحديدية .. لم تكن هنالك محطة .. هذه سكة حديد جديدة فوق تلال حلفا الغارقة .

كانت العربات والقاطرة ذاتها قديمة جدا ولعلها نفس القاطرة الاولى من ايام حكم غوردون نهاية القرن التاسع عشر .
أخذنا اماكننا على المقاعد الخشبية في العربة بعد ان كنا قد تزودنا بالماء وببعض الاطعمة الضرورية ..عند الغروب تحرك القطار وبدأ اهتزاز العربات على الجانبين يتزايد ، كذلك تزايدت نفخات الغبار الآتية من بين شقوق الواح ارضية العربات التي كانت تسمح برؤية الحصا والتراب بين السكتين التي يدّب عليهما القطار .
حين احسست بالتعب والنعاس في ساعة متأخرة من الليل لم أجد احسن من الاستلقاء فوق الواح ارضية العربة تحت المقعد الذي نجلس عليه ، رغم ما كان من حركة الالواح صعودا ونزولا ورغم نفخات الاتربة القادمة من بينها .. كانت اغفاءاتي متقطعة ، لكنها كانت كافية لان استعيد بعض نشاطي عند شروق الشمس .
.. ازداد عدد المسافرين بشكل كبير خلال الليل وعند الفجر .. لا تزال هنالك امكنة فارغة كثيرة للجلوس في العربة .. توقف القطار لفترة تزيد على الساعة في (بو حمد) لملء صهريج القاطرة بالماء امكننا خلالها من النزول لغسل وجوهنا ولنأكل الشواء ونشرب الشاي في مقهى عند زقاق قريب بين الابنية الطينية الواطئة .
..لم يواصل القطار جر عرباته العديدة بتثاقل و بطء لفترة طويلة حتى توقف دون ان تكون هنالك قرية او محطة مرئية .. نزل عدد كبير من المسافرين يستقصون سبب التوقف ..كان سائق القاطرة ومساعده يقرفصان قرب احد انابيب القاطرة التي أخذت تنفث البخار بشدة من فتحة غير صغيرة فيها .. السائق يلعن كل شيء في الارض والسماء .. يروح ويجيء محملقا في الانبوبة المخرومة ويعود ليواصل صب لعناته .. كانت تلك احدى انابيب الدفع البخاري الاربعة ، ومالم تستبدل بواحدة اخرى فلن تستطيع القاطرة مواصلة السير .
لا مكتب للتلغراف او التلفون الا على مبعدة لا تقل عن خمسين كيلومترا ..حتى لو تم الاتصال بالخرطوم وهو المركز الوحيد الذي ستصل منه النجدة فسيستغرق الامر يوما وليلة او حتى يومين لانجاز ابدال الانبوبة .
.. انتشر الركاب بين نخيلات معدودة طلبا للظل ولنسمات طرية تهب من النيل القريب .. جلس آخرون حول السائق يتشاورون .. هب سائق القاطرة فجأة وسأل من حوله عن قطعة جلدية عريضة ..لم يطل التفكير فقد سارع احد المسافرين الى افراغ حقيبته الجلدية في العربة وجلبها الى السائق .. قام سائق القاطرة بتقطيع الحقيبة الى اشرطة جلدية عريضة .. لف الانبوبة المخرومة بشريط جلدي وربطه باسلاك اخرجها من صندوق عدد القاطرة .. لفّ شريط جلدي آخر وثبته باسلاك اخرى .. اعاد العملية مرتين اخريين .. صعد الى القاطرة ورفع يديه بدعاء الى السماء .. نفثت القاطرة انفاسها ودخانها بقوة من جديد .. تحركت ببطء ساحبة ورائها العربات العديدة القديمة المغبرة .. هلل الجميع .. اطلق السائق صافرة القاطرة عدة مرات .. عاد الجميع الى عرباتهم
..عند المساء كنا في عطبرة .

دخلنافي زقاق بين البيوت الطينية المحاذية للخط الحديدي .. هنالك ساحة ترابية صغيرة حولها عدة دكاكين جلست عند مداخلها نسوة مترهلات ..اكثرهن كان ينفث دخان النارجيلة التي امامهن .. كان هذا هو سوق محطة عطبرة .
جلسنا - جماعة تاج الدين - مصطفى وشرف وانا ، في مقهى صغير يعد المشويات في صدر السوق وكان السائق ومساعده ضيوف الشرف عندنا.
عند حلول الظلام تحركت القاطرة ببطء وحذر من جديد ..قرابة منتصف الليل اخذت مكاني السابق لاستلقي تحت المقاعد ..لم تكن نفخات الاتربة وحركة الالواح الخشبية لارضية العربة هي وحدها التي جعلت الاغفاء عسيرا ، كانت الارجل الكثيرة المتزاحمة من جانبي المقعدين الملتصقين ببعضهما يميني ويساري هي السبب الاكبر ..لقد اكتضت العربات بالمسافرين .
.. ظهيرة اليوم التالي كنا قد وصلنا الخرطوم .
..لم ينفع اصرار تاج الدين ومصطفى وشرف في ان اذهب الى بيت واحد منهم.
..شاهدت لوحة كتب عليها (فندق النور) غير بعيد عن المحطة التي كنا نقف عند مخرجها ..
- اشكركم يا اخوان.. ساقيم هنا وسنلتقي كثيرا فيما بعد ..
- والله ده شيء مش صحيح .. كمان دي منطقة مش ولابد .. قريبة من حي المومسات ..
لم تنفع محاولاتهم لاثنائي .. تحركوا معي صوب الفندق .. تقدم تاج الدين الى حيث يجلس صاحب الفندق في فسحة صغيرة عند المدخل وهمس في اذنه ببضع عبارات .. رحب الرجل بي واشار الى خادم الفندق ليوصلني الى غرفتي ..عانقت تاج الدين ومن ثم مصطفى وشرف ..اوصلتهم الى المدخل وعدت لاذهب مع خادم الفندق الى غرفتي .
.. سارعت لاسأل عن موقع الحمام .. كان في الفضاء الخلفي للفندق .
..فتحت الدُوش فانصب ماء صاف منه .. وقفت تحت الماء الصافي المنعش .. ظل سيل من الطمي ينحدر من رأسي وجسمي على ارضية الحمام لفترة غير قصيرة وانا انظر اليه باستغراب شديد ..ها قد حملت معي اتربة اسوان والنوبة وشمال السودان .
القيت بنفسي على السرير وغفوت بعمق ..صحوت قبل الغروب بقليل ..نزلت وتناولت الشاي في فناء الفندق وخرجت بعدها استقصي معالم المنطقة التي انا فيها ..
.. بعد بضع مئات من الامتار كان هنالك حي متواضع ببيوت طينية واطئة وبيت او بيتين من الطين وآلاجر ..هنا وهناك نسوة يقفن عند الابواب .. فندق من طابقين بواجهة ضيقة يحمل لافتة (فندق النيل الازرق) ..عند باب الفندق تقف إمرأتان في اوسط العمر احداهما مليحة الوجه .. كلتاهما متبرجتان .. النسوة جميعهن في رداء (الثوب) السوداني المحتشم ..الوان اثوابهن ونقوشها واضحة وفرحة ..واصلت سيري مخترقا الحي ..عند وصولي باب فندق النيل الازرق ، سألتني مليحة الوجه بابتسامة لطيفة :
- مش عايز ونس ؟! .. عيب تكون لوحدك في المسا .

- شكرا يا حلوتي .. للاسف ! والله انا على موعد مع صديق ، رددت عليها بابتسامة مماثلة وواصلت السير ببطء .. لم يطل تجوالي في الحي .. عدت الى فندقي ..
.. قرب طاولة مسؤول الفندق كان في انتظاري تاج الدين وبصحبته شاب آخر وقد وضع امامه حقيبتي اليدوية وبدلتي فوقها.. عرفني تاج الدين بأخيه اسماعيل .. مددت يدي لادفع لصاحب الفندق فقال لي " لما تبات عندينا في الفندق وقتيها راح تدفع " .
كان بيت تاج الدين في حي متواضع اغلب بيوته من الطين .. البعض منها من قسمين الخلفي من الآجر والامامي من الطين .
البيت الطيني لتاج الدين الجزء الامامي منه ،هو(البراني) ، وهو لضيوف الدار من الرجال .. باحة واسعة مكشوفة بها اربعة اسرة حديدية ، وغرفة طويلة تؤدي من الامام الى الباحة ومن الخلف الى (الدخلاني) من الدار حيث الاهل من النسوة والاطفال .. الباب الخارجي لا يُحكّم بالقفل او الترباس ..جاهز ابدا لأن يُدفع ليدخل ضيف او زائر من المعارف او الاصدقاء او ممن يوصي بهم هؤلاء .. منهم من يأتي من مدن اخرى ليبيت - وتقدم له كل واجبات الضيافة اللائقة المتواضعة الاخرى - حتى ينهي الزائر اشغاله الطارئة التي استدعت قدومه الى العاصمة .
.. كان الليل قد حل حين دخلنا باحة (البراني).. وضع حقيبتي داخل غرفة الضيوف ومنها اشار الى المرافق الصحية في طرفها والى شماعة لتعليق الملابس والى بضعة ازواج من النعال قرب المدخل .
تاج الدين في منتصف العشرينات ، لايزال اعزبا ، موظف في دائرة البريد ، له أخ ،هو اسماعيل في العشرين من عمره ..طالب جامعي ، واخت في السادسة عشرة .. الوالد قد توفي قبل عامين .. الام خياطة ملابس لأهل الحي والمعارف والاقرباء .
.. كان تاج في اجازته السنوية ، قضى معظمها في القاهرة ولم يبق منها إلا بضعة ايام سيعود بعدها الى عمله .
.. ادخل تاج الدين بدلتي وقميصي الى (الدخلاني) من الدار .. قام اسماعيل بفرش عدة حصائر في الباحة المكشوفة .. دخل تاج الدين بعد قليل حاملا صينية نحاسية فوقها صحون اطعمة واقداح من اللبن الزبادي والخبز ..
استلقينا على الاسرة .. دار الحديث ونحن نتكيء على الوسائد عن ايامنا السابقة ومشاريعنا اللاحقة .. عن السودان ووضعه الجديد بعد ثورة اكتوبر السلمية المبشرة بالخير ..عن اجواء الديقراطية التي تسود في البلد منذ قرابة العام .. كانت فرصة لي لافاتح تاج الدين بالرسالة التي احملها لرئيس مجلس رئاسة الدولة ، الدكتور التجاني الماحي .
اطلعني تاج الدين على ان المجلس الثلاثي الدوري التناوب ، قد انتهى وأن آخر دورة له كانت برئاسة التجاني الماحي .. الرئيس السوداني الحالي هو اسماعيل الازهري الذي انتخبه البرلمان للمنصب قبل فترة قصيرة .. سالته عن صعوبة مقابلة رأس الدولة السابق وعن كيفية ترتيب موعد للقائه ..
- لا موعد ولا هم يحزنون .. غدا سنذهب للقائه في داره ..ففي يوم الجمعة هذا ، يستقبل الكبار امثاله زوارهم .

- كيف ؟!.. رئيس دولة ! وشخصية ثقافية هامة ..لا في السودان وحسب بل العالم كله .. مسؤول تنظيمات الشباب والمستشار الاقليمي لمنظمة الصحة في الامم المتحدة ..لقد ابدت ملكة انكلترا اثناء زيارتها للسودان في فترة رئاسته ، اعجابها الشديد بثقافته .. لابد وانك تمزح يا تاج !
- نحن في السودان يا اخينا !! ..هنا من المعيب أن يغلق احد بابه ، موظفا بسيطا كان مثلي او رئيس دولة ، في وجه زائريه .
عند الضحى عادت اليّ البدلة والقميص نظيفة مكوية .. نضوت دشداشتي بعد ان لازمتني منذ (دوبة)اسوان والى ذلك اليوم .. ارتديت بدلتي وابدلت نعالي بحذاء .. احسست نفسي غريبا بعض الشيء .
كان الوقت ضحى حين وصلنا الى بيته في منطقة بحري (يقسم النيل الازرق والنيل الابيض العاصمة الى الخرطوم وبحري وأم درمان)
..بيت حديث متواضع من طابق واحد يذكرني ببيوت الطبقة العراقية المتوسطة في بغداد .. حديقة امامية صغيرة ومساحة حجرية مظللة بسقف (طارمة ..فارنده) فوقها طاولة دائرية ..هنالك بابان ..الجانبي تصورته يودي الى غرفة الضيوف ، والامامي الى (الدخلاني) حيث الأهل والعائلة .. بابا الحديقة مفتوحان على سعتهما .. ضغط تاج الدين على زر الجرس ..
.. فتح الباب الامامي ليخرج منه شاب في العشرينات فارع الرأس بجلابية بيضاء .. قدم الى باب الحديقة وعلى وجهه ابتسامة ترحيب .. بادره تاج الدين :
- صباح الخير .. أنا تاج الدين الحسن ، ومعي ضيف من العراكَ ، ممكن نكَابل الوالد الكريم .
رحب بنا وقادنا الى (الطارمة) .. استأذننا ودخل من الباب الامامي .. لحظات وخرج علينا رجل مربوع القامة في الخمسينات من عمره مشى وخط المشيب في فوديه ، بجلابية طويلة وعمة سودانية بيضاوين ..
- يا أهلا ومرحبا .. يا أهلا وسهلا.. مد يده فصافحنا ..
في هذه اللحظة فتح الشاب باب غرفة الضيوف حاملا كرسيين مطويين ، وفتحهما ..كان التجاني قد دخل من حيث خرج الشاب ليأتي بكرسي ثالث " يبدو اننا اول الزائرين " .. فتح الكرسي الثالث وكرر عبارته :
- يا أهلا .. يا أهلا .. اشار الينا بالجلوس .
كنت حائرا باية تحية سابادر هذا الرجل العظيم " سيادة الرئيس .."." سيادتكم .." " شرف أن أقابل معاليكم .. (مر ببالي خطفا ، اجتيازي الغرف الضخمة الثلاث والسكرتارية والحارس الشخصي في مصر وحيرتي وانا اجتازها في التحية المناسبة ، لاقابل خالد محي الدين) .. حل لغزي وحيرتي هذا تاج الدين حين سمعته يخاطب التجاني :
- مرحب بشوفتكم دكتور .. صباح السرور دكتور ..
وقف الابن الشاب وراء والده في انتظار اشارته ..
- صباح جميل اليوم ..لا رطوبة عالية ولا حر الاسبوع الماضي الخانق .

- إنشاالله يدوم ويبكَا كم يوم زيه الحال ده ..دكتور ! أنا تاج الدين الحسن .. اكَدملك ضيفي وصديقي دكتور فلاح الجواهري من العراكَ .. قالها تاج الدين بحرارة .
- وكيف حال البلد العزيز ، العراق ؟ .. سأل التجاني
- والله ..لايزال الوضع سيئا بعد الانقلاب البعثي الدموي عام 63..
.. قبل ان اواصل مناحتي.. قاطعني بلطف :
- بلدنا في الغربة نذكر خيره دائما .. التبدلات التي تحصل في الشعوب دليل حركتها وطموحها للتغيير ..عَيّنْ خير يا شاب ! .. انا اثق بحركات شعوبنا .. عندي أمل كبير وثقة فيها .
شعرت بالخجل ..بدأت مطالع سحابة كآبة ازاحها سؤال التجاني
- لك صلة بالشاعر الكبير الجواهري ؟
- أنا ابنه ..
- يا ميت مرحب ..يا ميت هلا ، لقد التقيت بالوالد مرات .. في مؤتمرات عديدة ، كان اولها مؤتمر المثقفين في القاهرة نهاية الاربعينات .. كيف حال الوالد الكريم ؟
- بخير والحمد لله ويهديكم شوقه وتحياته .. لقد حمّلني رسالة اليكم .
تململ تاج الدين وحاول النهوض والاستئذان بالمغادرة بحجة مهمات عليه ان ينجزها قبل عودته الى عمله الوظيفي ..
- مش كَبل ما تشرب حاجة .. التفت الى ولده وراءه .. ادرك الشاب مهامه فاختفى دقائق في الدار ليعود باقداح مثلجة من عصير المانجة .
.. بعد ان غادر تاج الدين فتح التجاني رسالة الجواهري ولم يعلق شيئا عليها ..
- بلّغ الوالد اطيب تحياتي .
كان التجاني بعدها سيد الحديث الشيق المتنوع ..
- هل تعرف ان لنا صلات نسب ودم مع العراق منذ ازمان بعيدة.. إن قبائل (العركيين) الكبيرة المنتشرة في ارجاء السودان ، ماهم إلا العراقيين الذين قدموا واستوطنوا السودان ، مع الزمن تحولت كلمة العراقيين (العراكَيين) بين الناس فاصبحت العركيين ..أنا مغرم بتتبع تأريخ العراق قديما وحديثا .. دعني اطلعك على سجل مصور للتأريخ اتابعه واهوى جمعه ..
..غاب لبضع دقائق ليعود حاملا البوما كبيرا ..قرّب كرسيه ليكون لصيقا بكرسيّ وفتح الألبوم ..كانت صفحاته مليئة باسطر من الطوابع المختلفة الاحجام والالوان والقدم ..
- أنظر ! هذا طابع من اندر ما يكون الآن ، إنه يؤرخ تتويج الملك فيصل الاول ..هذا طابع آخر له وهو يرتدي (الفيصلية) ! .. وهذا في زيه البدوي! ..انظر!! .. انظر! هذا طابع نادر آخر للامير غازي .. وهذا !، هذا !..ما اندر هذا الطابع !!..

ثلاث رسائل من الجواهري

(3) محمد أحمد محجوب

خرجنا نحن الثلاثة في الصباح أنا وتاج االدين وشرف، القادم من الجنوب لانهاء اعمال له في الخرطوم .. تاج االدين توجه الى مقر عمله في دائرة البريد ..افترقنا انا وشرف وسط المدينة بعد أن قام بارشادي الى الطريق المؤدي الى مكان رئاسة الوزراء .

.. كانت اشجار الكالبتوس الضخمة تظلل رصيف كورنيش النيل الازرق وانا اسير بخطى وئيدة حالمة سارحا بافكاري مرة بمرايا النهر العظيم المتلامعة ، واخرى بالمقابلة التي سيّرني اليها الجواهري .. "هل انا انت ياجواهري ؟! ، من تحسبني كي تضعني من حين لآخر امام جهابذة الفكر والسياسة ..تحرجني يا والدي كثيرا ،فلست ضليعا مثلك بالدنيا والناس .. قد يتلبسني الهلع .. قد يتلجلج ويتلعثم لساني او يصيبه العيّ اصلا .. رسائل من (لجنة الدفاع عن الشعب العراقي) التي تراسها .. رسائل ..كلمات ، كلمات ، كيف لها أن يثمر مضمونها وهي مجرد تراكيب حروف ، وقد ابتعد الحدث وبرد ..لم تعط اللجنة حتى في اوج تأسيسها ، و الحدث الدامي في العراق لا يزال ساخنا يهز ضمائر الشرفاء وانت تراس وفودها الى الدول ،لم تعط اثرا يذكر ، فكيف بكلمات عارية منها وقد هزلت ، قلت انت عنها قبل أمد قصير " أنها تلفظ انفاسها الاخيرة " .. من تحسبني لأدخل عرين احد قادة ثورة مصر خالد محي الدين مرة ، واخرى عالم التجاني الماحي العظيم ، المليء بخبايا الامم والنفوس ..وها انا على مشارف ابواب زعيم دولة وقائد مسيرتها .. موسوعة في العلم والادب ، اول مهندس سوداني في تأريخها الحديث ، احد كبار محاميها وقضاتها ، من اوائل الساسة المرموقين الساعين الى الرقي بالسودان الى مكانتها التي تستحقها بين الامم ..وزير مرة وثانية وثالثة ، رئيس وزراء سودان ثورة اكتوبر .. بأية لغة سأتحدث معه!! .. وهو فوق كل ذاك شاعر رقيق مرهف الحس جميل الصور " ..قرأت ديوانيه في براغ (قصة قلب) و(قلب وتجارب) الذين اهداهما اليك ..(الى شاعر العرب الاكبر .. اقبلوا مني ديواني المتواضع هذا تعبيراعن محبتي وتقديري البالغين وتواصلا بلغة الشعر التي انت عمودها) ..هذا ماكتبه بخط انيق على احديهما ..

بناية شرقية قديمة من طابقين تشبه البيوت البغدادية القديمة تشرف على النيل ..

.. لم ألحظ اي حرس او عساكر وانا اجتاز البوابة المشرعة الى الساحة الوسطية للدار المنفتحة على السماء والمشجرة حواشيها .

.. كانت هنالك في الساحة سيارة سوداء فارهة .

..ارتقيت السلم وتجاوزت في الممر المشرف على الساحة بضعة مكاتب لموظفي الشؤون الادارية ..

.. غرفة مشرعة النوافذ من الطرف المطل على النيل و المشرفة على الساحة من الجانب الآخر بلوحة نحاسية خط عليها (مكتب رئيس الوزراء)
..حييت سيدة تجلس وراء منضدة خشبية متواضعة كانت منشغلة بالحديث مع رجل كهل يحمل ملفات بيده – يبدو انها سكرتيرة المكتب – ..انتظرت حتى اكملتْ الحديث ووضع الرجل اوراقا وملفات امامها على المنضدة وغادر الغرفة ..تقدمت صوبها وحييتها من جديد :
-أنا من العراق وقد حملني صديق قديم لسيادة رئيس الوزراء ، الشاعر محمد مهدي الجواهري رسالة شخصية لسيادته ..
- سأوصل الرسالة اليه .
-هل بأمكاني ان اوصلها اليه شخصيا وفقما كلفت به ؟!
- اعتقد ان ذلك سيكون ممكنا يا استاذ ، لكن الرئيس في جولة ميدانية في بعض محافظات السودان وسيعود يوم الخميس القادم .. هل يناسبك الاثنين القادم الساعة العاشرة صباحا .
- سأكون شاكرا جدا ..هذا لطف كبير منك .
- الاسم الكريم ؟
- الدكتور فلاح الجواهري .
دوّنت الاسم في سجل المواعيد
- هل تقرب لصاحب الرسالة
- ابنه سيدتي
- اهلا وسهلا .. نراكم الاثين القادم انشاء الله
- انشاء الله واكرر شكري سيدتي الكريمة .

* * *

في ساعة متقدمة من الليل خرجنا انا وتاج الدين .. احد اصحابه المقربين يتزوج الليلة .

في جانب من حي البلدية الذي نقيم فيه ، وحيث البيوت اكثر حداثة وسعة تناهت الينا اصوات موسيقى وغناء ونحن نقترب من بيت العريس مصطفى .

الباب مشرع بظلفتيه .. في ساحة البيت المكشوف رصفت كراس من الخيزران على ثلاثة صفوف بشكل دائري سمح لمساحة فارغة واسعة في الوسط .

كان ثلاثة من الموسيقين بعود وطبلة وناي يأخذون اماكنهم في جانب منها ، ومغن يردد موالاته امامهم .

لم يكن الحضور من النساء والرجال كبيرا ، وتواجدت اماكن شاغرة كثيرة بين الصفوف .

النساء يجلسن في نصف دائرة تقابلها نصف دائرة الرجال ..

هرع مصطفى واخوه هاشم للقيانا..

اهلا بالدكتور .. دحنا زارنا النبي .. يا اهلا ومية مرحب (ايقنت ان تاج الدين قد ابلغه مسبقا باصطحابي) .. اهلا بيك يا صديقي العزيز تاج الدين..
شدّ واخوه على يدي بحرارة كبيرة ، في حين احتضن تاج الدين العريس بحرارة وقبله فوق وجنتيه .
توجه بنا الاخوان الى كرسيين شاغرين في الصف الاول على الساحة ..
.. وزعت لفائف مناديل الحرير المطرز بسكاكرها ، اعقبتها اقداح شراب البرتقال والليمون .. تزايد عدد الحاضرين حتى لم تتبق كراس شاغرة .
نهضت إمرأة في الخمسينات باللباس السوداني الجميل الالوان الملتف على جسدها بأناقة وبشال مزخرف ينسدل فوق رأسها " همس باذني تاج : هذه والدة العريس " .. مدت يدها لتأخذ بيد إمرأة في اواسط العمر لها نفس المظهر الجميل الانيق المحتشم الى وسط الفسحة الدائرية .." وهذه والدة العروس " .. همس تاج من جديد .
.. ألقت والدة العروس التي تقف في الساحة بوشاح رأسها الى الخلف على كتفيها ..في ذات الوقت نهض رجل كهل بجلابية سودانية .." وهذا والد العروس ..همس تاج " وتوجه الى رجل كهل يجلس في الصف الامامي .. وقف امامه مبتسما وانحنى فوق رأسه وطرق باصبعيه ، السبابة والوسطى ، بلحن بسيط .. " وهذا الجالس المدعو الى الرقص هو والد العريس .. همس تاج " .
.. والد العريس ووالدة العروس الآن يقفان وحدهما في الساحة ..يتقدم الرجل ، فيرفع شعرها الذي وخطه الشيب بوقار ليضعه فوق الوشاح الملقى على الكتفين ولينسرح الشعر على ظهرها
.. ترتفع الزغاريد .. ويزداد ايقاع الالحان ويعلو بحماس صوت المطرب .. يبدأ الاثنان يتمايلان مع الايقاع وجها لوجه في رقص محتشم جميل ..لا يلمس احدهما الآخر ، ولا يرفع اي منهما خلال الرقص بصره الى وجه رفيقه .
.. تزداد اشراقة الابتسامة على وجهيهما وهما ينسجمان أكثر وأكثر ويزداد تمايلهما مع ايقاعات الالحان ..يستمر الرقص الثناءي وسط الساحة لخمس دقائق او أكثر

وسط الزغاريد المتزايدة وتصفيق ايادي الجالسين بشكل يتماشى والحان الفرقة العازفة وترنيمات المغني ..
.. يتوقفان عن الرقص ، وينحني والد العريس باحترام وبابتسامة واسعة امام رفيقته
..تتجه والدة العروس الى إحدى الشابات الجالسات وتسحبها برقة الى وسط الساحة بدلا منها ، في الوقت الذي يطرق والد العريس المنسحب اصبعيه امام أحد الشباب داعيا اياه لأخذ دوره في الرقص .
.. يعيد الشاب نفس الحركات السابقة ليرفع برقة شعر رفيقته من وراء الوشاح ويرخيه منسدلا فوق ظهرها
..ياخذ الشابان نفس طقوس الراقصين السابقين .. الشاب يزهو بابتسامته ..الشابه يعتريها بعض الخجل في البدء ، سرعان ما يزول مع ارتفاع الزغاريد والالحان ..
.. يستمر الراقصون ثناءي يعقب ثناءي آخر في الساحة ..
.. وقف العريس أمامي طارقاً باصبعيه داعيا الى الرقص ..لم يفد إلحاحه (وللاسف) في سحبي الى الساحة ..
ودّعنا مصطفى قرب منتصف الليل ، بعد أن أقسم يمينا لحضورنا إفطار المقربين جدا صباحية العرس .
في الطريق حدثني تاج الدين عن أن كثيرا من الزيجات تترتب بدعوة الشاب والفتاة التي تعجبه الى ساحة الرقص ، بعد ان يطلب الشاب المغرم من اهل العريسين ترتيب هذا الامر .

في وقت متقدم من الصباح كنا قد دخلنا الدار وقادنا اخو العريس الى غرفة واسعة في (البراني) حيث وضعت مائدة مستديرة ،لا ترتفع إلا قليلا عن سجاد الغرفة .. نثرت حول المائدة وسائد للجلوس ..
حضر العريس ، نهضنا للقاءه .. قبله تاج الدين على وجنتيه محتضنا اياه ومباركا بحرارة ، وقمت بدوري واحتضنته وقبلته وباركت، وانا منتش بالعطر الشرقي الذي يعبق منه .
حضر والد العريس مع اخيه فأخذهما تاج وأنا من بعده بالاحضان مهنئين .
..امتلأ سطح المنضدة بشتى المأكولات
..ما أن دعينا الى الجلوس حولها ، حتى نهض العريس فجأة وانحنى فوقي محدثا ..
-دحنه زارنا النبي ..ميت هلا ومرحب .. سأرقّص لك العروس ..مافي صباحية احله من كده بوجودك ..شرف أن ترقص العروس في صباحيتها امامك .
تلعثمت وانا اترجاه أن لا يقدم على ذلك ، متخيلا اياها وهي متعبة من سهرة البارحة وليلتها ، وان تقوم من فراشها وتضع ملبسها وزينتها على مضض..
.. كررت رجاءي بشبه توسل حتى نزل مصطفى على ارادتي .

واصلنا افطارنا باحاديث مرحة غلبت عليها ممازحات تاج الدين لصديق عمره مصطفى، عن وقوعه اخيرا في القفص بعد اقناع طويل ، فيرد عليه الآخر بأنه سيحكم وضع خطط المؤامرة الكبرى بنفسه ليزج تاج الدين قريبا مخفورا في قفص مماثل محكم القضبان ، إنتقاما منه على مؤامرة إقناعه .

حين خرجنا كانت الدار قد امتلئت بالوافدين الواقفين وراء موائد الافطار المنصوبة حول باحة (البراني)..يخرج البعض ليدخل البعض الاخر .
-ماقصة ترقيص العروس يا تاج ؟
-غالبا في الاعراس ، وتكريما لاقرب المقربين من العريسين حول مائدة الصباحية ترقّص العروس .. لماذا رفضت بهذا الاصرار يارجل ..كنا انبسطنا تمامْ.. دانته والله نكد يا صاحبي..أما انك عراكَـي راسك ناشف بصحيح "
شد على كتفي ونحن نسير وضحك بصوت عال .
.. تستمر الافراح اسبوعا ودار العريس مفتوحة بموائدها وحفلاتها ليل نها ر .

* * *

في العاشرة من صبيحة يوم الاثنين كنت جالسا في مكتب السكرتارية منتظرا خروج السفير الامريكي من غرفة رئيس الوزراء .

اشارت اليّ السكرتيرة بعد خروجه بقليل بالدخول ..

حين فتحت الباب خلتُ ولوهلة خاطفة ، ان النهر العظيم والنخيل المتناءي وزرقة السماء قد غمرت الغرفة الواسعة امامي ..

.. شبابيك طولية هي جبهة الغرفة المطلة على النيل ، تمتد من السقف الى ارضية الغرفة .. طابوق فرشي عريض وحصيرة مدورة كبيرة متشابكة النقوش زاهية الالوان فوقه .

.. في صدر الغرفة مكتب ماهجوني غير ضخم فوقه ثلاثة هواتف وبضع اوراق ، ووجه ممتليء اسمر وراءه ينظر اليّ باسم الثغر والعينين بترحاب محافظ ..

.. زال عني الهلع الذي تملكني قبل فتح باب الغرفة بلحظات ..

.. غمرني سلام هاديء .

اشار الى مقعد قريب للجلوس .

-اهلا بأبن شاعرنا الكبير .. كيف حال الوالد انشاء الله بخير

- الحمد لله .. لقد حمّلني مع تحياته الحارة رسالة اليكم .

اخرجت الرسالة من محفظة صغيرة وأقتربت من المكتب وسلمتها اليه .

قرأ الرسالة ..صمت قليلا بعدها ..طوى الرسالة ووضعها فوق المكتب .

-هل تنظم الشعر ؟ سالني مبتسما .

-من يجد نفسه عند اقدام جبل شامخ صعب الارتقاء ، يمشي آمنا على السفح .

-وماحدود سفحك ؟

-رسام متواضع .

- هل لك من مقصد آخر في السودان غير الرسالة ؟

- أطمح ، سيادتكم، أن اضع خدمتي ، كطبيب حديث التخرج ، في بلدي هنا .

- أنت محظوظ فوزير الصحة على موعد معي بعد نصف ساعة .. يمكنك الانتظار عند فاطمة مديرة المكتب لو شئت ..

دخل السكرتارية كهل قصير القامة باسم الوجه وخط الشيب فوديه ..

-اشلونك حبيبتي فاطمة ..(انتبه الى وجودي) التفت صوبي ووا صل ..دي فاطمة ست وحبيبة الكل .

بسرعة وبشكل يكاد لا يلحظ ضغطت فاطمة احد ازرار الهاتف فلمظ فوقه ضوء اخضر .. نهضتْ وتقدمتْ الزائر ..نقرتْ على باب الرئيس برقة..فتحتْ الباب وانحنتْ محيية ، لتسمح للرجل الكهل القصير بالمرور

.. جلستْ وراء مكتبها ، والتفتتْ صوبي مبتسمة .." ..وزير الصحة "

مرت نصف ساعة قبل ان يخرج وزير الصحة ..

توجه صوبي مبتسما ..

-دكتور ابن الجواهري مرحبا بك ..

نهضت عن مقعدي وانحنيت محييا ..مد يده وامسك بكتفي :

-خلاص إحنا حنعينك بعد يومين ونبعثك لمدينة (واو) .

(كانت مدينة (واو) هدف متمردي جنوب السودان المستمر وغالبا ما قطعت تماما عن بقية السودان)

-اين ما تضعوني فانا في خدمة بلدي .

- دحنه بنمزح وياك يا راجل ، قالها ضاحكا ، ..مكانك هنا في مستشفى الخرطوم التعليمي ..الطبيب الدوري فيها هو اول الطريق لكل طبيب ...هل لديك مكان تقيم فيه حتى يصدر أمر التعيين ؟

- نعم سيادة الوزير واشكركم " يا للحماقة مكابرة لعينة لا كبرياء .. هفوة لسان غبية لا سبيل لسحبها " ..

- اكتبْ طلباً للتعيين وقدمه الى فاطمة والست الحليوه عليها الباقي ..

غادر مكتب السكرتارية .

تعالت اصوات نسوية صاخبة من ساحة الدار ، اعقبتها هتافات تردد:

" يا محجوب يا محجوب " .." رمز العدالة محجوب " ،

.."منهو زعيمنا "تهتف مجموعة.. ياتي الجواب " محجوب !" ،

. .." وحياة نبينا المحبوب " تهتف مجموعة .. الاخرى تقفّي" احنا بحماية محجوب " ..

لم استطع حبس فضولي اكثر من ذلك .. انحنيت وسألت بهمس

-لو سمحت – ومع الاعتذار – من هاته النسوة ؟

-القصة باختصار يا دكتور انهن بنات هوى يريد محافظ الخرطوم ، بناء على طلب البعض ، نقلهم من اماكنهم قرب فندق النيل الازرق الى اماكن بعيدة خارج اطراف الخرطوم .

نسوة ثلاث بملاآ ت سودانية محتشمة دخلن المكتب

..تقدمت احداهن الى السكرتيرة بعدة اوراق .. خمنتُ انه طلب الى الرئيس مذيلا بتواقيع النسوة المعنيات بالنقل .

دخلتْ مديرة المكتب الى غرفة محجوب .. خرجت بعد دقائق وطلبت أن تدخل واحدة من الثلاث .

.. لم تطل المقابلة كثيرا ، خرجت بعدها مندوبة التظاهرة بوجه فرح .. تقدمت الى فاطمة وقبلتها على وجنتها .. اشارت الى الاثنين الاخريين ليتبعنها الى خارج المكتب ..

.. انحنت (المندوبة) بجسدها فوق افريز سياج الممشى المطل على الساحة ..وصاحت بصوت عال مخاطبة التظاهرة النسوية تحتها :

-زغرودة للنبي! .. زغرودة لمحجوب !

ارتفعت هتافات النسوة بفرح عارم من الساحة وسط الزغاريد المتكررة :

" بطل الامة المحبوب " .." عاش زعيمنا محجوب" ، / " راعي فقيرنا والمظلومْ " .." محجوب سيد كلْ الكَومْ " / .. وتستمر الهتافات .. حشد يسأل وآخر يرد .

غادر رئيس الوزراء على عجل كما لو انه قد نسي موعدا هاما ..

الهتافات والزغاريد لا تزال مستمرة .. ازداد الصخب وتعالى في الساحة وتشابك مع ضجيج الهتافات المتداخلة .

..خرجتُ الى الممشى واستندت بمرفقيّ مسندا وجهي بكفيّ منتشيا بالمشهد تحتي ..محجوب يقف قرب سيارته السوداء الفارهة وقد غرقت قامته الضخمة في سيل من الوان ملابس النسوة ونقوشها الزاهية وهن يهجمن عليه ويطوقنه متدافعات ، محتضنات ، مقبلات وجهه وكفيه ، دون ان يحاول التملص ولا دفعْ الحشد المحيط به ..مستسلما مبتسما ..

خرج السائق من الجهة الاخرى ليتقدم لانقاذه .. اشار الرئيس اليه برأسه فتراجع الى مكانه خلف المقود .

.. انتظر دقائق حتى خفت موجة الفرح الطاغية وهدأ الصخب والهتاف وترنيمات الزغاريد قليلا ..

.. مد يده بأناة ليمسك مقبض الباب .. فتحه على مهل شيئا فشيئا دون أن يدفع النسوة حوله .. إنسلّ ببطء الى المقعد الخلفي ..

حين تململت السيارة متحركة انزل محجوب زجاج نافذته وحيى النسوة ، الصاخبات بالزغاريد والهتافات ، بتلويحات من كفه ، في حين علت وجه ابتسامة مشرقة عريضة .

ضياع في الخرطوم

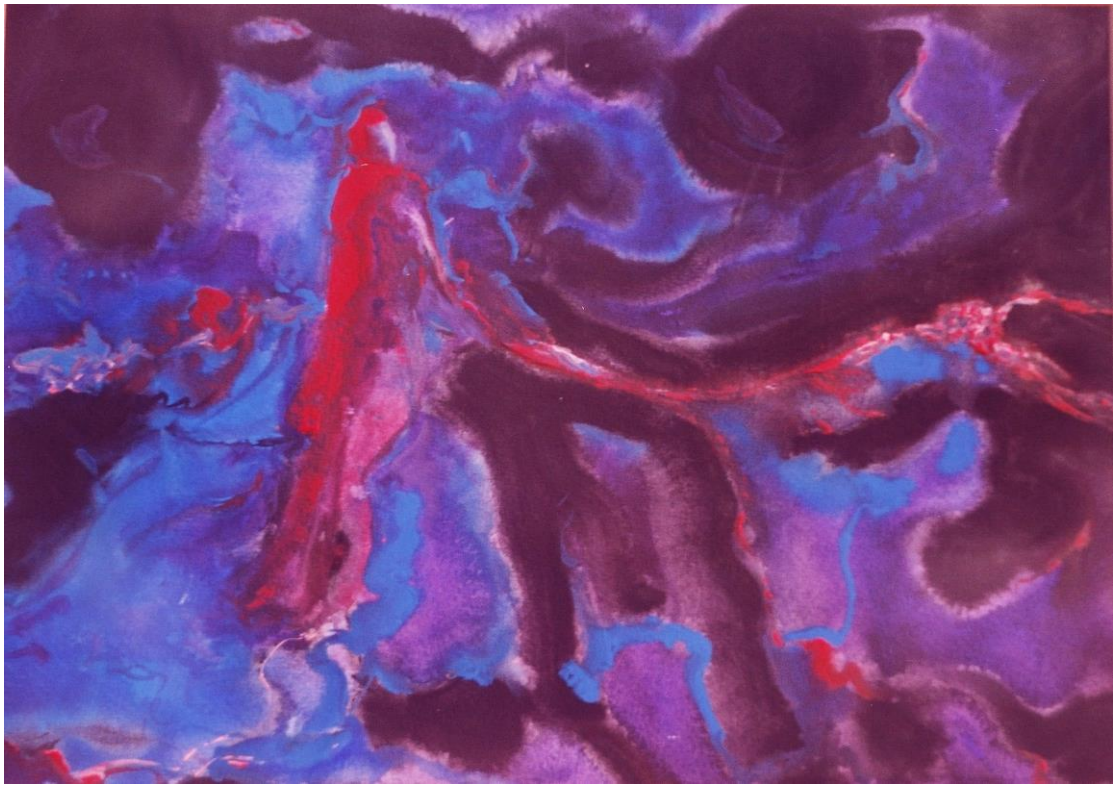

بريشة كاتب السطور

قفز رجل كهل ملتح بجلابية طويلة متسخة ، مرقعة بقطع ملونة من اقمشة منوعة و وقصاصات ملصوقة فوقها ، بآيات وحروف لا رابط بينها وكانت عشرات من الاشرطة الخضراء المتفاوتة الطول تتدلى من كل اجزاء هذا اللباس المهلهل من رقبته واردانه واذياله .. قفز ونحن نعبر جسرا على النيل الابيض صوب السيارة التي تقلنا ورش الماء من ابريق في يمينه على الزجاج الامامي ..انحرفت السيارة التي كانت تعبر متباطئة فوق الجسر كي لا ترتطم به ، واتانا صوت هذا الدرويش متوعداً :

" جاكم الموت يا تاركين الصلاة " .. " جاكم الموت يا تاركين الصلاة "

جرني المنظر والوعيد الى سرحان للحظة قصيرة لاستوعب الصورة في الوقت الذي ابتسم فيه تاج واسماعيل الجالسان الى جواري .. أخذ السائق يتمتم بأدعية ويردد بينها بصوت مسموع " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله " ..

حين نزلنا في ساحة وسط (أم درمان) ..

-ما قصة هذا الممسوس ؟ سألت تاج .

- اياك يا صاحبي ان تكرر ذلك بصوت عال أمام بسطاء الناس في أم درمان ، وإلا اعتبروك تسخر من رجل كراماتهم ، أن البعض منهم يعتبره من اولياء الله الصالحين ، إن ما شاهدته من مئات الاشرطة الخضراء الحريرية الملتصقة بثيابه قد ثبتت من طلاب الحوائج المستعصية الآملين في حلها بمعجزات (الرجل الصالح)

كان تاج واخيه قد اصطحباني لاشاهد الانصار - رجال الطائفة المهدية- وهم في مسيرتهم في ذكرى معركة كرري (وفق التقويم الهجري) والتي قتل فيها قرابة مائتي الف من السودانيين المدافعين عن وطنهم ضد جيوش الاحتلال البريطاني .

ونحن نقترب من مكان لقاءنا ببقية الصحب ممن كانوا معنا في رحلة النيل ، طلب مني تاج أن التفت الى الجهة الثانية من الشارع ..

.. أمام فسحة كبيرة لبيت كبير ذو طابقين ، يجلس رجل كهل بجلابية واسعة بيضاء ولفة راس سودانية كبيرة وراء طاولة معدنية صغيرة مدورة .. يقف وراءه شاب في العشرينات من عمره .. " اسماعيل الازهري " قال لي تاج وهو يواصل السير ، دون ان يلتفت صوب الجانب الاخر ..

توقفت بعد عدة خطوات عند ركن زقاق قريب ، في حين واصل تاج واخيه سيرهما .. كانت حركة المارة على الجانبين من الشارع اعتيادية تماما .. ..
..ارقب واتابع من موقعي (الازهري)- رئيس مجلس السيادة في السودان- في جلستة قرب الرصيف امام داره .

.. يتباطأ افراد قلائل بين فترات غير قصيرة .. يرفعون ايديهم -وهم يواصلون سيرهم- بالسلام مع انحناءة رأس خفيفة صوب الجالس .. ينهض الازهري قليلا عن كرسيه ويجيب التحية واضعاً راحته اليمنى فوق رأسه .. يعود الى مكانه .. دقائق اخرى ويتكرر المشهد ذاته مع شخص مار آخر ..

.. تقترب منه إمرأة مسنة ، ينهض ويميل برأسه صوبها مصغيا ..يهز براسه من حين لآخر .. تخرج ورقة مطوية من بين لفائف اردیتها .. يأخذها ليلتفت ويسلمها الى الشاب الواقف وراءه .. يحادثها لحظات ويحني رأسه واضعا راحة كفه فوقه ..تحاول المرأة أن تأخذ بيده وتنحني تريد تقبيلها.. يسحب يده ويرتد الى الخلف قليلا ..

.. يخرج شاب من باب داره ، حاملا صينية معدنية صغيرة وفوقها دلة قهوة وقدح ماء ..يضعها امامه فوق الطاولة ويعود .

اغادر مكان ترصدي لالتحق بتاج واسماعيل ..

التقينا ببقية الصحب وجلسنا في مقهى تناثرت اكثر مقاعده فوق رصيف الشارع..

..لم تمض إلا نصف ساعة حتى لاحت من بعيد موجة اردية وعمائم بيضاء ..مرت المسيرة من امامنا يتقدمها بضع عشرات تتدلى السيوف القديمة على جوانبهم من حمائلها .. يسير خلفهم عشرات آخرون بإحرامات تلتف على اجسادهم السمر العارية ، يتبعهم الآف بالزي السوداني التقليدي الابيض ..لم تكن هنالك اية اعلام او لافتات مرفوعة ..
.. علت من بعض المتابعين الواقفين على رصيفي الشارع تكبيرات بالاسماء الحسنى ، في الوقت الذي كان فيه افراد المسيرة يمشون بصمت خاشع .

* * *

توجهنا في أحد الاماسي أنا وتاج بعد عودته من العمل ، الى جامعة الخرطوم ..كانت هنالك ندوة انتخابية هامة .. القاعة الكبيرة الانيقة قد امتلئت بالحضور ..نسوة معظمهن من الجامعيات ، الاكثرية في الزي السوداني .. بعضهن يرتدي الزي الاوربي ، فارعات الرؤوس .
..لم الحظ على اي منهن مكياجا ظاهرا .
..الرجال وهم الاكثرية في القاعة ، يغلب الزي الوطني على اردیتهم ..آخرون وهم القلة بالزي الاوربي .
..همهمات ، ومقاطع لاحاديث متفرقة واصوات ضحكات مرحة هنا وهناك .. ضجيج غير صاخب .
.. على المنصة ثلاثة مقاعد وراء طاولة بغطاء ابيض واقداح ودورق ماء .
.. صعد شاب بالزي الوطني ، يبدو انه عريف الندوة ، وحيى الحضور واوضح اهمية هذا اللقاء بقادة الاحزاب السياسية ، قبيل الانتخابات القادمة ..

.. رحب بمتحدثي الندوة الجالسين في الصف الاول ودعاهم لاعتلاء المنصة .
..علا تصفيق الحضور لفترة غير قصيرة ، حتى بعد أن أخذ متحدثي الندوة اماكنهم وراء المنضدة .
.. علا القاعة صمت انتظار .
الصادق المهدي (إمام الانصار .. خريج اوكسفورد وكاليفورنيا في الفلسفة والاقتصاد) كان اول المتحدثين ..
.. شاب وسيم ، طويل القامة بملابس وطنية وعمة كبار رجالات الطائفة المهدية البيضاء..متحدثا كزعيم لحزب الامة :
.." .. سودان حضاري بهوية اسلامية نرقى به بالعلم والمعرفة وبالوحدة الوطنية .. "

عبد الخالق محجوب (سكرتير عام الحزب الشيوعي) شاب مربوع القامة ببدلة اوربية بوجه طفولي هاديء :
.. " سنجد هوية سودانية للماركسية .. نستفيد من تجاربها في الدول الاخرى .. لا نقلد ولا نتبع.. "

اسماعيل الازهري (رئيس وزراء سابق .. رئيس مجلس السيادة الحالي ..رئيس الحزب الوطني الاتحادي) رجل كهل لا تختفي الابتسامة عن وجهه ، كان آخر المتحثين :
" وحدة وطنية في اطار ديمقراطي ..لا عودة الى ديكتاتورية الحكم العسكري ..بلد آمن ينعم مواطنوه بالديمقراطية كي يبدعوا في العلم والمعرفة ويلحقوا بالامم المتحضرة "
كانت هذه خلاصة افكار المتحدثين المطروحة ، أعقبها اسئلة الحاضرين ، يجيب عليها المعني بها من متحدثي الندوة ..
.. لم اسمع اي سؤال يحمل استخفافا او استفزازا لاية فكرة طرحت .
.. لم تكن هنالك اية لافتات مرفوعة اوهتاف بـ " يسقط !.." او "يعيش !.." ..بل لم يكن هنالك اي هتاف خلال ثلاث ساعات واكثر من الندوة .

(ادفع مقبض عجلة الزمن التي امتطيها الى الامام ..مات اسماعيل الازهري بعد اعتقاله بأيام في انقلاب مايو 1969 وايداعه سجن كوبر ..أعتقل الصادق المهدي بعده واودع السجن مرات عديدة ..توفي التجاني الماحي قبل أن يعلقوا صديقه عبد الخالق محجوب مشنوقا بحبل غليظ في سجن كوبر ..ابتعد محمد احمد محجوب عن مطحنة السياسة .)

* * *

.. كنا نستلقي أنا وتاج كل فوق سريره نستمتع بنسمات الليل الطرية ، نكشف كل لصاحبه بعض اسرارنا العاطفية تتخللها تعليقات ونكات عابرة فنضحك ..

توقفت سيارة امام باب (البراني) ..
.. طرق الباب المفتوح شاب اسمر ببنطال وقميص مفتوح عند الصدر .. نهض تاج لاستقباله في حين عدّلت من وضعي على السرير لاجلس على حافته ..
-أهلا بالساتي .. والله زمان يارجل ..عانقه تاج مرحباً ، وواصلا اقترابهما مني وقبل ان يبدأ بتعريفنا ببعضنا البعض ..صرختُ فرحا
- اهذا انت يا ساتي ، وعانقته بحرارة .
.. تعود معرفتي بالساتي عثمان الى أيام دراستي في ثانوية الخديوي توفيق في حلوان في مطلع الخمسين ..كنا في نفس السنة الدراسية ، ثم مرت سنين قبل ان نلتقي من جديد في موسكو هو في كلية الري ، وانا في كلية الطب .
.. لم تكن لقاءاتنا هناك إلا صدفاً ، حين ازور ابن خالتي الذي يسكن عمارة اقامة الطلبة ذاتها .
.. بعد ثلاث سنوات في عمارة الطلبة ذاتها التقيته مرة اخرى ..عرفني على شابة جميلة الى جانبه .. " اولغا زوجتي ..تزوجنا قبل اشهر " .
لم يطل مكوث الساتي عند تاج طويلا ، معتذرا بأن عليه أن يأخذ اولغا من محل الكوافير ، مصراً في الوقت ذاته ، الى حد القسم بالايمان ، على انه لن يغادر الدار دون صحبتي ، للانتقال والسكنى معه في داره .
عارض تاج كثيرا ، واخيرا وضع الامر بين يدي .
كنت قد اطلت اقامتي الحلوة الكريمة عند تاج ..اسابيع ثلاث ، وبدأت اشعر ببعض الحرج ، اضف الى ذلك ، معرفتي بأن تاج سيغادر بعد فترة قصيرة ويبقى مدة اسبوعين في مدينة أخرى في مهمة لتدريب كادر من الموظفين في مركز بريدي جديد يفتح هناك..
.. قبّلت تاج وشكرته على الضيافة بالغة الكرم والصحبة الجميلة ، واستأذنته أن يستجيب لطلب الساتي .
لم يكن ترحاب اولغا بلقائي دافئا حين ذهبنا لاخذها من محل الكوافير .. كانت مضمّخة بالعطور وروائح المكياج الكثيف على وجهها ..على جانب كبير من الجمال والوسامة التي افتقر اليها زوجها .. شقراء بعينين شهلاوتين وشفتان ممتلئتان صغيرتان ، رشيقة ممشوقة القوام حسنة الهندام .
كانت شقتهما في الدور الرابع من عمارة حديثة في حي بطرف قصي من الخرطوم ..ما أن دخلت الى الشقة حتى ضاق نفسي واحسست اني غريبٌ في مكان غريب ..صالة وغرفتي نوم ، مطبخ وحمام حديثين صغيرين ، اطلعني الساتي عليها ، واضعا حقيبتي الصغيرة في غرفة النوم الجانبية .
جلسنا أنا واياه في الصالة المؤثثة بكنبتين كبيرتين ومقعد جلدي وثير على حين اعتزلت اولغا غرفتها .
استرجعنا مسيرة الذكريات من ايام حلوان الى موسكو الى تفاصيل اوجزتها عن رحلتي وعن ظروف لقاءي بتاج وشرف واسماعيل وغيرهم

.. نهض وتوجه الى غرفة اولغا .. التقطت كلمات مبتورة من حديثهما الخافت ، ادركت منه انه يعاتبها على طريقتها في لقاءي و برود استقبالها لي في الدار ..زاد احساسي بالغربة .
خرجت اولغا على مضض وسخنت الطعام الذي كان الساتي قد احضره من أحد مطاعم العاصمة ..تناولنا عشاءنا في المطبخ حيث كانت هنالك طاولة صغيرة حولها اربعة مقاعد .. ادار ساتي الحديث بصورة حاول فيها ان يخفف من تشنج زوجته الذي لم تستطع اخفاءه ، غلبت على الحديث اللغة الروسية .. أولغا لاتعرف الا بضع كلمات في العربية .
..حين اويت الى فراشي .. كانت الظلمة تطبق على انفاسي ، فلا سماء ولا نجوم فوقي ولا الانسام الطرية في البراني الفسيح في بيت تاج الدين ، ولا همس المدينة الخافت النعسان من حولي هناك والذي كان يحاورني قبل اغفاءتي .
في الصباح عندما كان يعد القهوة والافطار ، سالني ساتي عن راحة فراشي ونومي فاجبته بانه كان رائعا .. لا اعلم هل كانت عيناي المتعبتين تشيان بكذبي ام لا ، فلم استطع ليلتها الاغفاء الا قبل قرابة الساعة من سماعي صوت الساتي وهو يسعل في المطبخ ، لانهض على عجل فمن المعيب أن أظل مع غالا – التي لا تعمل – لوحدنا في الشقة. .
ركن السيارة عند باب دائرة عمله وسط المدينة ..دعاني للدخول لشرب فنجان قهوة في غرفته هناك .. هنا اصبح اكثر انطلاقا وحرية ، بل عادت اليه الابتسامة والنكتة التي كنت اعهدها فيه قبل سنين طويلة .
حين بدأ بعض الموظفين بعرض اوراقهم وملفاتهم عليه ، ادركت ان الوقت قد آن لاغادر .. شكرته وغادرت .
.. لكن الى اين والخرطوم الكسلى في الصباح تغلق مقاهيها ومحلاتها .. اين والشوارع تكاد تخلو من المارة ..
.. هذا هو المقهى الذي اعتدت جلوسه .. تخوته الخشبية في العراء لا يزال يغفو عليها من لا مأوى له ، مسافر عابر او متشرد .. يتركها اصحاب المقاهي متاحة دائما لمن يريد الاستراحة او النوم بعد اغلاق المقهى ..
.. اجلس فوق تخت خشبي في انتظار صحو الاخرين قربي ، وقدوم صاحب المقهى وعماله ليفتحوا الابواب ويضعوا طاولات وكراس على الرصيف ويباشروا اعداد الشاي والقهوة والقرفة وغيرها..
..حين كنت اقيم عند تاج ، كان يخرج الى عمله كل صباح ويتركني مستلقيا او جالسا فوق سريري في الباحة المكشوفة مفتوحة الباب للضيوف ولانسام الصباح الطرية ..
.. اصحو فأجد صينية افطاري الى جانبي .. غالبا ما أظل بعدها مستلقيا ، اقراكتابا او اتصفح مجلة او جريدة وعند الضحى اخرج الى المدينة فاتابع أمر تعييني اولا ..
-كل شيء تمام يادكتور .. امر التعيين جار في مساره .. هو الآن في الشؤون الادارية ..
بعد ايام :

- كل شيء تمام يا دكثور ..هو في شؤون الموظفين .
يمر اسبوع وثان
- كل شيء تمام لقد احيل الطلب الى وزارة المالية لتخصيص ميزانية الراتب .
.. أعود بعدها لاجلس في مقهى البلدية وسط الخرطوم على كرسي فوق الرصيف ، اقرء كتابا او ارسم تخطيطا لاحد الجالسين وأقدمه له .. يعرضه على صحابه حول المائدة ..يبدون استحسانهم وترحابهم ويدفع اجر فنجان قهوتي .

.. لكن المقاهي لا تزال مغلقة ياساتي ، وانا متعب لم أنم ليلة أمس والكآبة واحساس الغربة بدءا يثقبان في سطوح الفكر لاول مرة من وجودي هنا ..
..مر النهار كله ، وانا اتسكع في زوايا المدينة .. لا مجال للعودة واولغا لوحدها في الشقة .. لا اعود إلا في المساء بعد ان اكون قد تناولت وجبتّي الغداء والعشاء تجنبا لاحراج الرجل الطيب في جلسة كجلسة امس تُرغم فيها زوجته الى الجلوس وراء الطاولة مجاملة للضيف الثقيل ..
.. اعود فأجد البيت مشحونا وآثار الشجار لا تزال عالقة في أجواءه .. اهرب مبكرا لأستلقي على سريري واحملق في السقف طويلا في انتظار ان ينشق عن تلامعات فوانيس ملايين النجوم في قبة السماء العاتمة الزرقة او لجين القمر الذي كنت اسيح فيه وأنا فوق سريري عند تاج ..
دعاني ساتي في احدى الليالي للذهاب معهما الى نادي الموظفين .
كان النادي جميلا واسعا باشجار باسقة ومربعات للزهور رتبت بذوق واناقة .. لكن جلستنا كانت غريبة مستوحشة فنحن الوحيدين المنعزلين وراء طاولة صغيرة قصية بين عشرات الموائد الاخرى الضاجة باحاديث العوائل واطفالها واصدقاءهم المنظمين الى موائدهم وضحكاتهم وتنقل افرادها بين مائدة واخرى ، فالكل هنا يعرف الكل ، بل وقد يرتفع من حين لآخر موآل خافت جميل من احدى هذه التجمعات ..
تجلس غالا مقطبة غير راضية ، وكأنها مضطرة الى احتمال هذا الجو (البدائي الهمجي) .. .. لا تستطيع اخفاء معالم اشمئزاز وجهها احيانا .. نحاول انا والساتي أن نستقطر ضروع حديثها الجافة المبتسر .
.. حين دعاني مرة اخرى للخروج معهم الى النادي اعتذرت ، متعللا بأن علي كتابة بعض الرسائل .
.. نقودي القليلة اصلا قد شحت في جيوبي ..لا مجال لانتقالي الى فندق رخيص ..في الوقت الذي أخجل فيه من العودة الى بيت تاج الغائب في مهمته في مدينة اخرى ، رغم وجود اسماعيل الذي سيكرمني بعينيه لوعدت .. أضف الى ذلك انني ساوجه صفعة عنيفة لصديقي الوديع الساتي ، الذي اراه يبذل كل مافي استطاعته لتخفيف اجواء الشقة المشبعة بالمشاحنات والتوتر الدائم .
.. اواصل تسكعي بين المقاهي او التجوال فوق الارصفة كل يوم من الصباح الباكر والى المساء ، بل وطرفا من الليالي كي اتجنب الازمة القائمة ابدا بين غالا والساتي .
.. اتتبع مسار زحف أمر التعيين :

-والله يادكتور كله ماشي تمام..شويةْ وقت وشويةْ صبر، يجيبني موظف شؤون التعيينات في وزارة الصحة .. اشكره واغادر ..
..العن هفوة لساني الغبية الحمقاء عندما سالني وزير الصحة وانا في مكتب رئيس الوزراء " - هل لك مكان تقيم فيه ؟ فيجيب الغبي الاحمق ، أنا.. – نعم واشكر لطف سيادتكم " .
عدت متأخرا الى الشقة ليسبقني الى الباب صوت غالا الغاضب :
-اختنقت ..اختنقت .. هل تفهم معنى اختنقت ايها الغبي .. اريد الخروج .. لايهم الى اي مكان حتى لو كان الجحيم ذاته..
-الى اين في هذه الساعة من الليل ؟ ..لا استطيع الخروج أنا متعب وعندي تقرير عليّ تقديمه الى الوزارة عند الصباح .
اكيد أن اصوات الشجار العنيف قد اخترق جدران الشقة الى الجيران لصقهم .. " حمدا لله أنه بالروسية ، وإلا فسيبصقون على الارض امامه لرضوخه لهذه المهانة المقرفة يوميا ..نحن بالسودان المحافظ المتزن ذو التقاليد العائلية العريقة المتينة .. "
.. اسرح قليلا بافكاري وانا اعود متسللا كاللص على حذر لاهبط سلم العمارة ..
اعود الى باب الشقة بعد نصف ساعة ، فلا اسمع صوتا .. " حمدا لله لقد هدأت اللبوة الغاضبة ..لقد آوت الى فراشها اخيرا " ..
.. ادخل لاجد غالا في كامل لباسها وزينتها ، تبحث عن حقيبتها اليدوية لتخرج .
-لكني لن اوصلك الى السينما بالسيارة ، والليل غير آمن ونحن على مسافة غير قليلة من السينما ..لن أذهب يعني لن أذهب ! .. لن اوصلك يعني لن اوصلك !! صرخ ساتي بغضب ..
لم تجبه .. عثرتْ عل حقيبتها اليدوية ..علقتها على كتفها وتجاوزتني لتفتح الباب الذي اقف جنبه وخرجت دون ان تنظر لا صوبي ولا صوبه ..
قبل أن استرد وعيي من ذهول الموقف بادرني ساتي راجيا :
-الحق بهذه المجنونة ..إن لم تستطع اقناعها بالعودة ، فارجوك يا أخي ان تذهب معها الى السينما ..ارجوك!
لم اجب بل فتحت الباب من جديد وهبطت بالمصعد .. لم تكن بعيدة عني كثيرا وهي تتلفت يمينا ويسارا بحثا عن سيارة اجرة .
ما أن اقتربت حتى توقف سائق تاكسي لينزل راكبيه ..سارعت غالا اليه وانا اعدو خلفها .. حين فتحتْ الباب وصعدتْ سارعت لامسك مقبض الباب قبل اغلاقه واندسست الى جانبها .. طلبتْ من السائق ايصالها الى سينما الخرطوم الصيفي .
لم تفتح فمها بكلمة ، ولا أنا ، الى أن وصلنا الى السينما وسط المدينة ..
.. توجهتُ الى شباك التذاكر .. لم يبق على بدء العرض الليلي الاخير إلا دقائق ..كانت الساعة قد جاوزت العاشرة .
حين دخلتْ وانا بصحبتها ، وساحة السينما المنارة جيدا مكتضة بالحضور ، توجه العديد منهم بابصارهم صوب هذا الثناءي الغريب (الناشز) ..
..غريبٌ ، ليست له ملامح ولون السوداني ، بصحبة زوجة الساتي الذي يعرفه العديد منهم .

.. اختارت مقعدا في الامام .. حين كنت امشي معها الممر الطويل بين صفوف المقاعد لسعتني سهام ابصار الكثيرين ، او هذا ما خيل الي .
حين اطفئت الانوار ليبدء العرض تنفست الصعداء .. لم افهم اي شيئ من الفلم بل لم أعرف حتى اسمه ..كنت لا ازال اتخيل أن البعض لا يزال يحملق صوبنا في الظلمة..إلا انني كنت منشغلا بكيفية الخروج من ساحة السينما وسط الحشد الخارج كتفا لكتف حتى الباب .. كيف ساتصرف ، هل احاول التحدث معها ، وهم يلتفون حولنا خارجين ببطء ، وكأن الامر عادي تماما .. هل اتخلف عنها قليلا وادعها تسير على مبعدة خطوتين مني واضيع في الزحمة ..هل اسبقها أنا لابحث عن سيارة اجرة تقف أمام السينما وانسل هاربا من الابصار الى المقعد الخلفي منتظرا التحاقها بي ..

مر اسبوع آخر من العذاب والضياع في هذا التيه ..
.. كان الوقت ليلا حين دعاني الساتي للخروج معهما الى نادي الموظفين .. اعتذرت متعللا بصداع شديد ألم بي .
قررت أن آوي مبكرا الى سريري .
..وانا اخلع بنطالي سقط مفتاح الشقة على الكنبة ، او هذا ماتصورته .. اعياني البحث عنه بين زوايا مقاعد الكنبة الجلدية .. مددت يدي في العمق تحتها .. لم يكن علي إلا ان اقلبها كمحاولة اخيرة للبحث تحتها او في قاعدتها ..
.. سقطت من بين احزمة قاعدة الكنبة الجلدية السفلية بضعة اوراق مكتوبة زرقاء .. يبدو انها رسائل في حين علق بعضها الآخر بين الاحزمة .
.. وانا أُلملم الواحدة تلو الاخرى استرعى انتباهي انها قد كتبت باللغة الانكليزية يتصدرها اسم غالا ..

"حبيبة عمري .. يا لذتي وعذابي غالا ..
آه لو تعرفين عذاب ليلي المسهد ، وانا اتقلب في الفراش العريض منتظرا اندساسك فيه الى جانبي .. ذلك الفراش الذي تحبيه وتعرفي كل بقعة فيه ، والذي لا يزال يحمل عطرك ولطخات رحيق جنتك الصغيرة المنساب بين فخذيك .. لطخة تتفرد بك وأخرى تختلط بكل ما اودعته عصارة حبي وروحي ولذتي التي ادلقها في قارورة عسلك ونحن في النشوة الكبرى التي تهزنا سوية ، في خفقات واختلاجات جنة الازل الخالدة تلك .. مرات ومرات نهتز ونختض وكأن الكون المترامي ينفتح ويتسع الى اللانهائي الساحر الغامض ، ويتقلص ليعود الى بذرة الخلق الاولى .
وتستمر الرسائل لتصف بعدها أجزاء ظاهرة وخفية من جسدها والتي يغمرها كاتب الرسائل بالتلمس وبالقبل والارتشاف باسلوب مفصل داعر .. ولكنه والحق يقال جميل ايضا .. شعرت بانتعاض عضوي ، وانا اقرأها الواحدة تلوالاخرى ..
.. تنتهي الرسائل دائما بانه ينتظر اللحظة التي سيلقاها فيها في مطار برلين ، مكان انتقالها الى الطائرة الاخرى التي تقلها الى موسكو بعد حين ..ويستحلفها باسم الحب الذي جمعهما منذ عامين أن تطيل أمد (الترانزيت) لاسبوعين او اكثر .. او للبقاء

مدة سفرتها كلها ، شهرا اوشهرين بحجة انها مرضت وهي في برلين ولم تستطع مواصلة الرحلة ..
تنتهي الرسائل بتوقيع (المحب الذي اضناه الانتظار وولفانغ) .
".. ما الذي سيحصل لو وقعت تلك الرسائل في يد الزوج المسكين ، هذا الانسان الوديع الطيب ..لعله سينتحر ..او قد يقوم بخنقها وينتحر ..ربما يعيدها الى قريتها في اوكرانيا ويعود ليندم بعدها حين يفتقد وجودها فيعود للبحث عنها متوسلا اليها طالبا عودتها .. "
خطرت ببالي اعداد اخرى من السيناريوهات ، كلها كانت قاتمة ومحزنة ..
" قد اكون مخطئا في كل ذلك .. لعله يعرف بموقع الرسائل الخفي ، بل ويعرف العلاقة كلها وهو صامت خوفا من فقدانها .. كم من اقاصيص تشبه (مانون ليسكو) مرت علي عند اناس اعرفهم ، بل أن بعضهم من ذوي قرباي ..وما الضير في واحد جديد آخر ينسج في حبه المتفاني المتذلل قصة مثيلة اخرى "
.. قلّبت كل الاحتمالات ووجدت اخيرا أن من الاسلم ، وخوفا على الرجل من الهزة التي قد تكون قاتلة ، توجهت الى الحمام بعد ان جمعت كل الرسائل ، وبعد ان بحثت بدقة بين احزمة قاعدة الكنبة وتأكدت من عدم وجود رسالة منسية هناك ..مزقتها كلها الى قطع صغيرة والقيت بها في المرحاض وسحبت عليها الماء الدافق .

لم يطل الامر فبعد يومين فقط انقلب البيت الى جحيم مستعر .
..اللبوة الهائجة تنشب مخالبها كل ليلة واحيانا كل صباح بالساتي شتما واهانة وتهديدا .. الزوج صامت في اغلب الاحيان.. ايقنتُ انها تجزم ان زوجها هو من اضاع عليها عالمها السحري الذي تعود اليه في مستوحش الخرطوم بين الحين والآخر لتقرأه ..
" من غير هذا المتوحش الاسود اللعين ينبش بمخالبه مخبأ رسائلي .."
..تدخل الى المطبخ فتهشم الصحون والدوارق على الارض .. تخرج محمرة العينين الى الصالة تبحث عن فريسة ..كان ساتي في غرفة النوم ، وكنت احملق في منظرها الهائج هذا ..استدارت صوبي فجأة لتجدني اتابعها ببصري ..
-إيدي كجورت فون (اذهب الى الشيطان هناك!)
..لم أجب ، لكنها كانت اللحظة الحاسمة التي هدتني الى قراري .
" العودة !!.. لم هذا الضياع الذي لا ارى نهاية له ؟! ..لم اضع نفسي في هذا الظرف المهين ..لم علي ان اهيم في الشوارع ساعات طويلة والكآبة تلتف بضبابها الكثيف وتخنقني فلا اعرف إن كنت اسير يمينا أم شمالا .."
" العودة ؟! .. العودة، ولكن الى اين والوطن قد اغلق ابوابه والنقود القليلة المتبقية لا تكفي لمغامرة فاشلة اخرى في بلد عربي آخر ؟؟ "
" انت احمق مرة اخرى .. اليس لديك الوطن الذي التففت به منذ أن فتحت عينيك على الدنيا .. وطن عشته ، عرفته وعشقته وأمنت اليه .. الوطن ليس ترابا تطأه .. الجواهري وطنك الكبير الدائم ، تعود اليه ايها التائه الغافل كلما ضامك الدهر .."
ما أن برقت هذه اللمحة النيرة في مخيلتي ، حتى ابتسمت .. بسمت شفتاي وعيناي وروحي ..

.. توجهت الى غرفتي واستلقيت فوق سريري واخذتني هزة ضحك جذلى .. تتوقف لتعود بعد قليل بجذل اكبر ..جذل اعظم .
قبل أن أغفو ، اتابع السقف كعادتي قبل النوم .. انزاح السقف وغمرت السماء بزرقتها ومليارات نجومها ولجين قمرها ، غمرت فراشي والارض والجدران وتغللت بين حناياي .
عند الفجر كنت قد حزمت حقيبتي وحملتها بيدي .. طرقت باب غرفة الساتي وغالا وناديته بصوت خافت ..حين فتح الباب وعيناه لا زالتا مضببتان بالنعاس .. سحبته اليّ .. احتضنته وقبلته دون كلمة .. توجهت وفتحت الباب قبل ان يفلح في اللحاق بي .. انتظرت المصعد وهبطت .. قرب بوابة العمارة سمعت صوت اقدام تتسارع نزولا .. لحق بي الساتي وحين اعياه اصراري ، توجه وقاد سيارته لآخذ مكاني فيها .
.. قبل توجهنا الى المحطة طرقت باب بيت تاج ..
.. خرج اسماعيل تلعثمت وتكسرت الكلمات وانا اكاد اختنق بدموعي.. خرجتْ من فمي تمتمة لم افهمها وأنا أطيل احتضانه ، ولكني كنت على يقين انه فهمها اكثر مني

.. وادي حلفا والناقلة النهرية (الدوبة) ، اسوان فالقاهرة ..
لم يدم بقاءي في شقة محمد هناك اكثر من يومين ، استطعت خلالها من ابدال جزء التذكرة المفتوحة التي زودتني بها الكلية في موسكو للعودة الى الوطن (القاهرة-بغداد) ، وتحويلها الى (القاهرة - اثينا) .. منحتني شركة الطيران بضعة دولارات كفارق سعر الرحلتين ..
..أثينا وعربة الدرجة الثانية في القطار (البطيء لا السريع) ..يومين وثلاث ليال وشبه صيام خلالها .
كان الوقت ضحى عندما فتح الجواهري الباب..
..وقف قرب عتبته وعلى وجهه تلك الابتسامة المرحبة الساخرة التي خبرتها مرارا ..تظهر معالمها أكثر في تلامع عينيه مما هي فوق شفتيه ..
..رميت حقيبتي جانبا ..احتضنته ، قبلت وجنته وشممتها وصحت جذلا (أُ فّـيشْ!)
.. زادت السخرية المرحة في نظراته .. لايزال صامتا ..
..تململ قليلا عن موقعه وافسح لي مجالا ، فسبقته الى الصالة لاجد الصينية الصغيرة العتيدة ودلة قهوته والفنجان وقدح الماء.. معالم بدء طقوسه كل صباح .
.. حين تبعني الى الصالة بادرته مبتسما :
-هل سأكون عذولا هذا الصباح ؟..ادرت وجهي صوب غرفة نومه ..
-ياريت !..لم يطرق الباب غيرك منذ زمن .
عدّل من طاقيته ودخل الغرفة ليعود ويسلمني مظروفاً كبيرا ..
-هذه رسالة من شخص اسمه تاج الدين في السودان يخبرك فيها بصدور أمر تعيينك طبيباً دوريا في مستشفى الخرطوم التعليمي ويرفق مع الرسالة صورة من قرار التعيين .

الجنة والجحيم

الجنة والجحيم بريشة كاتب السطور

قدم ماهود احمد الى براغ وحمل معه من موسكو بعضا من مكتبتي الطبية وبضعة من اعز لوحاتي التي تركتها هناك قبل رحلتي الى السودان ..
أعلق صورتي الشخصية ، ولوحة (احبك) في الصالة ..
أتملى اللوحة من جديد .. فتاة ممشوقة عارية حتى اسفل الخصر ..وجه اوكراني-سلافي .. عينان زرقاوان تنظران اليّ بتساءل مع طيف ابتسامة على الثغر المتورد ..الشعر الذهبي ، خصلاته الذهبية تسرح لفائف منه على طرف كتفها وجانب من الثدي المكور الصغير ، في حين يضيع البعض الاخر منه في خلفية الصورة الحنائية بالوان تقادمها المختلف.. بني عاتم .. اخضرار باصفرار موغري .. صفرة مذهبة مبقعة بالحناء .. تلتف ذوائب من الخصلات على حروف كلمات العشق بالوان الذهب والفضة والمرجان بمختلف اللغات (احبك ، جي تيم ، يا تبيا لوبلو ، ..، ..) ..
اقف منفعلا امامها .. تلقي عبائتها الحنائية المطرزة بكلمات العشق الذهبية ، الفضية المرجانية وتخرج صوبي ، وهي تواصل تحديقها بي بابتسامة مشاكسة : " ..لن اتعر اكثر امامك ، رغم محاولاتك الكثيرة المتواصلة وتوسلاتك .. لو نضوت عني كل ما علي ، فلن يصمد جسدي امام شبقك ،وإن نلتني فستخبو جذوتك الفنية المستعرة وتخبو ومضة الحياة في اللوحة "
.. أمر بيدي متلمسا تفاصيل الجسد العاري امامي ، المعلق فوق جدار الصالة .

حين دخل الجواهري في اليوم التالي الى غرفتي في شقته ، نظر الى عشرات المراجع المكدسة وسأل بين الجد والممازحة الساخرة ..
- اتحمل كل هذا في دماغك ؟!
- بعضاً يسيرا منه ، إنه عشر معشار مايحمله دماغك من تراث الاولين وآلاخرين الادبي .
اشارك ماهود وهو – في ضيافتي- كل ما تحمله جيوب بدلته المهلهلة من شحيح النقود الذي يحمله لسياحته (المترفة) الموعودة في براغ ..
..أنا (على الحديدة) تماما .
.. بدأت البحث عن عمل ..طرقت الابواب النظامية وابوابا اخرى ، وزرت اناسا مهمين لعل كلمتهم تشفع لي عند الجيك ..لا أمل يلوح في الافق القريب او البعيد .

لم يأتي الفرج من هناك .. لقد أتى من مكان آخر يصعب تصديقه ..
.. بعد اسبوعين على هذا اللقاء ، سألني ابن عمتي (رجاء) :
-هل من نتيجة لمساعيك ؟
فاجبته بالنفي ..
..قال إنه سيحاول وسيبذل ما باستطاعته .
.. لا ينتمي رجاء إلى أي حزب أو تجمع أو فئة سياسية .. ينظر الى كل هذه القضايا باستخفاف ..أنا بدوري نظرت الى عرضه-مع نفسي- وأنا اشكره ، باستخفاف ايضا .
.. ماجستير اقتصاد .. زير نساء (أكَشر) لا يجارى ولا تعصى عليه حتى (ديانا الأقدمين او ارتميس) ..ربيب مجالس الطرب والانشراح والفرفشة .. نديم لصفوة

الشاربين .. غارق حتى اذنيه بدوامة القمار ، ينفق مايربح بسخاء ويستدين .. و يستدين ليخسر .
بعد ايام طلب ان نتلاقى في خمارة (اوفليكو) العريقة الشهيرة ..هنا جلس نابليون بونابرت وجوزفين ، ليستجم قبل معركة (اوسترليتز) مع قدح من جعتها الشهيرة السوداء..
.. قدم وبصحبته رجل ضخم في الاربعينات وقور أنيق ..
.. جلسنا وراء طاولة وطلب الرجل الوقور ثلاثة اقداح من الجعة السوداء ..
.. يوجه حديثه معي بالجيكية ..رجاء يترجم ..
سألني عن سنة تخرجي ، عن اهتماماتي ، ثم دار بعدها حديث بعيد عن الشكليات..
ينكت رجاء فيضحكان .. يروي الجيكي حادثة طريفة فيترجمها ونضحك نحن الثلاثة.
..أتينا على القدح الكبير الاول ، فالثاني .. اشار الى النادلة باصابعه الثلاثة مرة اخرى ..حاولتُ الاعتذار عن مزيد الشراب ..
.. التفتَ الرجل الوقور الى رجاء وتحدث وهو يبتسم ..
-يقول فلاديش ، اذا لم تشرب الكأس الثالثة المقدمة ، فلن يتم تعيينك !!
.. شربت قدح الجعة واستلمت أمر التعيين على عنوان المسكن بعد اربعة أيام (..طبيب تحت التدريب في قسم الاشعة لمدة سنة واحدة ، اتعلم خلالها اللغة الجيكية واقدم امتحان التعادل) .. لي حق الاختيار بين مكانين ، احدهما مستشفى في مدينة (بلزن) ، والثانية مدينة (ملادا بولوسلاف) التي تكاد أن تكون ضاحية من ضواحي براغ ..
.. إخترت ملادا بولوسلاف .

عدت في المساء الى الشقة بعد يومي الاول من العمل ، لم يكن الجواهري موجودا ، فهذا وقته في مشرب (سلوفينسكي دوم) .
دخلت المطبخ لاعد وجبة عشاء سريعة .
..على الطباخ كان هنالك قدر صغير قد غطي بمنشفة يد صغيرة وفوقها ورقة قد خط عليها (دجاجة محشوة للدكتور) !
.. الجواهري طباخ ماهر .
بعد أن تلذذت بالدجاجة المحشوة بالزبيب والبصل واللوز المقلي والرز ، غادرت الدار لالتحق به في مكانه المعهود في المشرب الضاج بالشباب وسط المدينة .
..يختار دوما مكانا يسيطر من موقع طاولته فيه على حسناوات براغ ، على مناجات العشاق في الاركان نصف العاتمة ،على النادلات المارات باردیتهن القصيرة المثيرة .. يداعبهن احيانا بكلمة وابتسامة وهن يتخاطفن بالقرب منه حاملات اقداح الجعة .. ينظرن احيانا بدهشة وابتسامة الى الكهل الانيق ذو الطاقية المزخرفة الغريبة الذي غزت مسارات الثلج فوديه .

.. جلست في مكان امامه ، لا احجب عنه الاجزاء المثيرة التي يراقبها بامعان .. ..يدندن مع نفسه بكلمات لا اميز الا القليل منها ، لكني اعرف ان بعضا منها سيكون مشروع ابيات جديدة .
جاوزنا منتصف الليل حين غادرنا المشرب .. لمح الترام يمر غير بعيد ..
لم اصدق ما رايت ..صرخت محذرا وهو يهرول وراء الترام الذي غادر محطة وقوفه .. ركضت ورائه فلم استطع مجاراته إلا بانقطاع الانفاس .. أمسك بعمود سلم الترام المتسارع وقفز اليه ..عدّل من طاقيته ونظر الي بتحد ساخر باسم ، وانا احاول ان اجاريه وأصل ، الى سلم الترام .
.. حين قفزت الى جانبه ، كان يقف منتصبا هادئا مزهوا ، في الوقت الذي كنت فيه الهث واحشرج بانفاسي فترة غير قصيرة وانا انحني اعياءا .
.. من بريق عينيه الساخرة المرحة قرأت " انظر انت ياهذا واحكم ! من هو الشاب فينا ؟! "

..زار خالد الجادر الجواهري ، قادما من المانيا الشرقية .. ومعه علبة كارتونية كبيرة قدمها هدية اليه .. أخرج منها تخطيطا تلو الاخر لقصائد ديوانه الشامل القادم . ..ثلاثين عملا لم أر في حياتي شيئا بهذا الجمال ودقة التعبير والفهم العميق للقصائد ..شيء فريد لا يتكرر .
كان صموتا اكثر منه متحدثا .. ينصت لا باذنيه وحسب ، بل بوجهه الوادع ذو المسحة الطفولية وعينيه الداكنتين الى حديث الجواهري .
.. حين ذهب الى المطبخ لاعداد فنجان القهوة لضيفه .. انتبه الجادر الى اللوحة الحنائية نصف العارية ..تملاها طويلا وهو يبتسم .
.. حين عاد بالدلة وفناجين القهوة الثلاثة بادره وهو لايزال يقف امام اللوحة :
-ولدك رسام بديع..لوحة تكاد تكون فريدة .
شكرته على لطفه ، معبرا عن فخري بأن هذه الكلمة اتت من رسام عظيم اعشقه واتابع اعماله .. هز الجواهري رأسه وكأنه يتساءل بشك : " ربما ما تقوله يحمل شيئا من الحقيقة ..ربما ؟! "
دعاه خالد قبل مغادرته الى برلين ..لبى الجواهري الدعوة بعد حين .

..لم يطل الامر غرقت والى اعمق الاعماق في عشق طالبة تدرس في جيكوسلوفاكيا .
.. صبية رشيقة حسناء الوجه ، ذات ذوق رفيع في ملبسها وزينتها ..غجرية الطباع حينا .. محافظة صارمة حينا آخر .. مفرطة السخاء ، مثقلة بالديون .. ابواب اسوار عالمها السحري مشرعة لمن تحب ، حصينة محكمة الايصاد منيعة أمام الاخرين .
.. كنت في ضيافة سخاءها وعوالمها .
.. نتسكع سوية فوق جسور براغ الحجرية المتقادمة .. نستجم بين زوايا كنائسها وبوابات قلاعها .. على ذروة تلال (الهاجاني) ننصت الى سيمفونية عشرات الساعات من الابراج الذهبية ، وهي تتفاوت لحظات فيما بينها بدقاتها ، معلنة انتصاف الليل .. نشرف عند السحر ،على لآليء اضواء المدينة تحتنا ، ملضومة

بشريط مياه(الفالتافا) المتلامع .. تتوهج (فحمة الديجور) المحترقة ونحن ننحدر فوق الازقة الحجرية ، سكارى بنشوى الفجر المتصاعد في الافق .. عند حلول الليل نطرق باب كنيسة بالغة القدم .. تفتح كوة ليطل من وراءها وجه في العتمة ويسأل عن كلمة السر .. نمشي في بقع الظلمة والضوء في دهليزها .. هنالك مشاعل نفطية دخانها الاسود المتصاعد يعطي اشكال ساحرات متراقصات ..على جانبينا تصطف عشرات براميل النبيذ الضخمة تحكي قصصا عجيبة عن شاربيها قبل الف عام ..تصلنا أنات كمان يصاحبه غناء غجري ..تنفتح امامنا فسحة كهف كبيرة بموائد وكراسي خشبية غطتها القرون بالوانها القاتمة ، فوقها شموع تكاد لا تكفي لحسر امواج الظلمة المتدافعة .
..نسافر الى بحيرات جبلية .. نركب قواربها ..نغور ببصرنا الى الاعماق التي تحتنا .. ..صخور مزرّقة مخضرّة بلمعات خطوط بنفسجية متقطعة تتلاعب فوقها .. نتسلق التلال .. نستلقي على اعشابها الرطبة في فسحات غابات الصنوبر والسدر الباسقة حولنا.. نتدحرج على السفوح .. نصرخ باعلى اصواتنا ونتسمع رجع الصدى من الصخور الجبلية السوداء المحيطة..
.. نتقافز راقصين ونسقط اعياءاً ضاحكين من اعماقنا بجذل ..
حين نقدم الى الشقة الجواهري يلاطفها ، تقفز بمرح عليه .. تحيط عنقه بذراعيها من الخلف .. تغمر وجنتيه بالقبلات وهي ضاحكة .. يتساءل الجواهري مبتسما :
-هل هذه القبلات حقا لي ، أم أن فيّ رائحة الحبيب ؟!
-ابداً ، انت حبي الاعظم ، الاول والاخير.. لا أحد يمكنه أخذ مكانك عندي !!
..تستدير صوبي ضاحكة وهي لا تزال متعلقة بعنقه ..

.. تصلني رسالة من اخيها وصديقي الحميم في موسكو :
" اباركما من الاعماق ، وانت تعرف صدقي في ذلك . لقد تمنيت ذلك منذ زمن ، ولكني في الوقت ذاته ، اعرف مرحلة الضياع الذي انت فيه ، واخشى انك تتعلق كالغريق بقشة ستسحبها معك الى الاعماق ، وليست هذه القشة إلا سميرة "

* * *

(اذا اردت أن تنسى الاولى ، فلتقفز الى سريرك الثانية) ..
لم ينفع هذا المثل مع الجواهري ، فقد ظل ملوعاً بغياب ماروشكا ، التي كانت تجيد التلاعب بعواطفه ..لقد أختفت منذ حين ..
لا صدى هاتفٍ يرنُ ولا الجرسُ مُعـلِـنا
لا أثر لها لا في مسكنها ، ولا في المقاهي والحانات التي كان يرتادها معها ..
الهدايا الكثيرة التي جلبها لها من زيارته لالمانيا تنتظرها باشرطتها الوردية على أحد رفوف غرفة النوم ..
.. يأرق كثيرا .. فيردد ابياتا قديمة ليضيف أخرى ..

مرحـباً يا ايـهـا الارقُ فحمةُ الديجور تحترقُ
والنجومُ الزهرُ تفترقُ فيَـجرَّ السابـحَ الغَرقُ

مرحباً يا ايها الارقُ فُرشتْ أُنساً لكَ الحدقُ
لكَ من عينـيَّ منطلقُ إذ عيونُ الناس تنطبقُ

لكَ زادٌ عنديَّ القلقُ واليراعُ النضوُ والورقُ

ورؤىً في حانةِ القـدرِ عُـتّقتْ خـمراً لمعتصـرِ

فرَّ لَّيلي من يدِ الظـُلَمِ وتَّخطاني ولـمْ أنَـمِ
كلما اوغلتُ في حُلُمي خِلتني اهوى على صنمِ
يستمـدُ الوحيَ من ألمي ويبثُ الروحَ في قلـمـي

أنا عندي من الأسى جبلُ يتمشّى معي وينـتقلُ
أنا عندي وإن خبا أملٌ جذوةٌ في الفؤاد تشتعلُ
إنما الفكرُ،عارماً، بَطلُ أبـد الآبـديـن يـقـتـتـلُ
قائـدٌ ملـهـمٌ بلا نـفَرِ حُسِرتْ عنه رايةُ الظَفَرِ

اسمع فاتسلل لاقف وأتلصص من زاويتي في عتمة الممر ..
.. الجواهري يتكأ على ظهر التخت وهويضع كفه اليسرى، وقد افرد اصابعها ، على خده حاديا الابياتً بلحن جميل ، ساهما في الظلمة الفارة من الافق البعيد و تتخطاه وهي تنزلق عبر النافذة الوسيعة .

تحوم حول الجواهري ، ومنذ زمن ، فنانة شرقية رشيقة جميلة في منتصف الثلاثينات .. تتقد عيناها وكل منافذ جسدها شبقا ..
كانت قد خلعت زوجها ، خرتيتي الضخامة والشحوم ، قبل بضعة اسابيع ..
.. كان الزوج الذي يكبرها كثيرا ، يعمل في مؤسسة ذات طابع تجاري ، عمله الحقيقي في زوايا المطار والحانات والمقاهي ، يبحث عن طالب او سائح ليركض وراءه وكرشه الضخم يتمايل يمينا وشمالا ووجهه المنتفخ يقطر دهونا وعرقا ..
.. يقترب من السائح ويهمس باذنه " لدي سعر مغرٍ لتصريف الدولارات التي تحملها " .
لايحتاج الجواهري الى وقدتها ، حتى ولا شرارة ليلتهب ، فهو دائم الإتقاد يلهب الاخرين من حوله ..أضف الى أنه يريد نسيان حبيبته المبتعدة بأحضان الاخريات .
.. راح ضحية الاتقاد واللهب بينهما ، تخطيطات خالد الرائعة ولوحتي الحنائية الذهبية نصف العارية .. لقد اهداها الى الفنانة الشرقية الشبقة .

لا ينفع لاطفاء لهيب لوعته ، قدوم كاترينا ، الشاعرة والممثلة المسرحية ، في الليالي بين الحين والآخر ..
إمرأة في مطلع الثلاثينات ، بجسد (كافر) الامتلاء ووجه اقرب الى الاستدارة وعيون غجرية سوداء وشعر اسود قد قص وفق تسريحة كليوباترة ..
تأتيه مطلع الليل وتغادر مطلع الصباح ..
حين تغزوه إحداهن او أعلم – عرضا – بذلك الغزو ، أغادر الى غرفتي الكئيبة الموحشة في المستشفى في ضاحية ملادا بولوسلاف .
في الصباح ادخل القسم ، واحشر نفسي بين بعض الاطباء المنشغلين بواجباتهم ، احاول أن اتعلم شيئا جديدا .. لا اعرف من الجيكية إلا بضع كلمات لا مكان لها في اللغة الطبية او حوارات عامليها .. بعضهم يجاملني فيشرح لي بالروسية ، او بانكليزية مكسرة لبضع دقائق ليعود فينشغل برقوقه المعلقة فوق فوانيسها او بالحوار مع زميله حول الاحتمالات التشخيصية .. أنتقل من غرفة الفحوص هذه الى غرفة أخرى .. الحال لا يتغير ..
.. اسمع تلميحات من رئيس القسم بأني غير ملزم بدوام نظامي ، وان هذه السنة هي لتعلم اللغة .. التلميحات تتحول بعد ايام الى كلام واضح " لا ضرورة للالتزام بالبقاء في القسم ..حتى لوتغيبت اياما خلال الاسبوع ، فالراتب جارٍ .. بالطبع اذا اردت القدوم فأهلا بك متى ماشئت " ..دفعٌ يكاد يكون مهذبا للزميل الثقيل المفروض على القسم من جهات عليا ..
.. بطالة مدفوعة الأجر .
الجأ الى مكتبة القسم .. لا اجد مصدرا باللغة الروسية او الانكليزية .. في مكتبة المستشفى الاكبر لا أجد إلا كتابا عن الصحة العامة بالروسية .. اجلس ساعات بإرهاق وملل ، وانا احاول ان انهي وقت دوامي في المستشفى عبر المطالعة..
.. بضعة ايام (وزهقت روحي) .
بدأت بالتسكع في ازقة براغ ومقاهيها وجسورها .. لم تستطع سميرة أن تبعد عني مللي ووحشتي وقرفي من نفسي فقد غادرت عائدة لدراستها في مدينة أخرى .
.. لايمكنني العودة مبكرا الى الشقة ، كي لا اوحي للجواهري اني متسكع (عطال بطال) ..اريد أن أُبقي الصورة في ذهنه ، باني أجهد في مهنتي الانسانية واستلم رواتبي بعرق جبيني .
أعود في المساء أجد ، غالبا ، أن الجواهري قد أعد وجبة عشائي ..
.. حين اجده في الشقة بعض الاحايين ، وعندما لا استشف قدوم أنيس الطف مني أدعوه الى مطعم او مكان يحبه .
عدت مرة ليلاً فوجدته جالسا يقرا في كتاب وهو يتكأ على ظهر التخت .. حين ايقنت أن لا وجود لتحفز الانتظار واللهفة على وجهه وأنه لم يبدأ بتحضير مائدة المشروبات وبعض الاطعمة الخفيفة ، ولم يقم بتعديل الصالة وغرفة نومه مرات عديدة و أن كاترين غير حاضرة ، فهي تفد اليه عادة قبل هذا الوقت ، قررت المبيت عنده .
.. امسكت كتابا بدوري وجلست معه في الصالة .

في ساعة متأخرة سمعنا نقرا خفيفا على الباب ، نهض هو .. وسمعته يرحب ترحيبا حارا و صوت نسوي يجيبه ..كان القادم كاترينا ، على غير عادتها في مثل هذه الساعة .
..كان الوقت متأخرا ، ولا وسيلة نقل تتوفر لايصالي الى مدينتي الصغيرة .
.. بعد دقائق من حديث المجاملة معها ، كاترينا تجيد اللغتين الانكليزية والروسية ، غادرت الصالة وانسحبت الى غرفتي .. اغلقت الباب وتناولت مرجعا طبيا وجلست فوق السرير ، متكئا على خلفيته .
.. يبدو أن الارق عندي ظاهرة موروثة ، فقد ظللت ممسكا بالكتاب الثقيل وكأني استنجد به ، لا من الأرق وحده ، ولا من خزي بطالتي ، ولكن من خوفي أن أفقد كل ما جهدت في تعلمه .
.. بعد منتصف الليل بساعة تقريبا ، سمعت ، ثم رايت أكرت الباب تدور بحذر ..
..فُتحتْ الباب ببطأ شديد ..أطلتْ كاترينا براسها اولا ، ثم دخلت وعليها ثوب نوم قصير .. اغلقتْ الباب خلفها دون أن تصدر صوتا .. إتكأتْ بظهرها على الباب فترة قصيرة وهي تتفحصني بامعان وطيف ابتسامة يلوح فوق شفتيها ..
.. عدت الى قراءتي وكأن الامر لا يعنيني .
..دارت بخطوات قصيرة بطيئة بين الكتب المرصوفة والمرمية على الارض .. نظرتْ الى بضع لوحات معلقة.. قلبتْ البعض الآخر من اسفل الجدار وتملت كل واحدة منها ..اقتربتْ من حاملة الرسم .. رفعتْ من على طاولة قربها فرشاة جافة .. مررتها فوق القماش الابيض فوق الحاملة .. تراجعتْ قليلا ونظرت مميلة رأسها وكأنها تدرس ضربات الفرشاة التي قامت بها ..
..حين وجدتها تستدير صوبي ، عدت الى قراءتي دون أن يتزحزح وضعي فوق الفراش .
.. تربّعتْ على الارض قرب السرير .. وضعتْ رأسها على حافة الغطاء المرمي على قدميّ وكأنها تستجم..
.. واصلتُ قراءتي .
.. رفعت كفها بعد لحظات ووضعتها تحت رأسها فوق حافة السرير ..
.. زحفتْ بكفها ببطء وحذر .. لامستني .. زحفتْ بكفها اكثر لتضعها بين فخذي ..
.. امسكتُ كفها الممدودة برفق وأعدتها الى مكانها على حافة السرير ..
.. امتدتْ كفها مرة أخرى .. امسكتُ بها ودفعتها خارج السرير بشدة .
.. عند المرة الثالثة رميت يدها بعنف خارجا ونهضتُ ..
.. امسكتُ بها من تحت ابطيها ورفعتها عن جلستها على الارض .. دفعتُها بصمت وبطء صوب الباب..فتحتُه ودفعتها خارجه بهدوء .
..عدت الى سريري .. وضعت كفيّ خلف رأسي ورحت في سرحان لم يدم طويلا
..اخذت الكتاب من جديد وبدأت اقرء .. تماوجت بعض الاسطر وتضببت كلماتها .. حاولت التركيز أكثر ..
..سمعت أكرة الباب تدور من جديد .

.. دخلتْ .. اتكأتْ بظهرها على الباب ..نظرتْ اليّ بتحدٍ .. مدت اناملها الى حمالتيّ قميص النوم فوق كتفيها..أسقطته ..
..شعّ نهار الجسد الابيض على مثلث الليل الصغير المتلامع ..
.. تقدمت صوبي بخطوات ثابتة وعيناها تشعان تحديا واصرارا ..
.. .. ..
.. نهضتُ وصفعتها بشدة بحركة لا ارادية ..
-بروج ؟!! ..بروج ؟!! ..(لماذا ؟!! .. لماذا ؟!!) صرختْ بانفعال ..
.. أقفز واضع كفي بإحكام فوق فمها .
.. أظل واضعا كفي لحظات حتى هدأت .. تركتها لاجلس على كرسي قرب حاملة الرسم ..
اسمعها تتحرك صوب الباب فانظر ..
وضعتْ قميص نومها المرمي قرب الباب فوق جسدها بشكل حزين ذليل .. فتحتْ الباب واغلقته خلفها بهدوء .
لم استطع الاغفاء حتى مطلع النهار .. سمعت صوت اقدامها وهي تغادر الشقة .
غلبني النوم لساعة او ساعتين ، نهضتُ بعدها وتوجهت الى الصالة .
.. الجواهري يجلس في مكانه المعتاد من التخت وامامه الصينية الصغيرة ودلة القهوة والفنجان وقدح الماء .
حييته فابتسم مجيبا .
بعد اقل من ساعة كنا نتناول افطارنا في مقهى قريب من البيت ، يشرف على وديان تلال (بجيني) .. كان بادي النشاط والمرح في جلستنا تلك .
بعد الافطار انحدرنا نمشي قرابة الساعة قاطعين المسافة بين الهضبة في الضاحية وقلب المدينة .

استمر اختناقي وانا ارغم نفسي بين الحين والآخر في التواجد ، الثقيل عليّ وعلى الاخرين ، في قسم الاشعة ، رغم علمي بانني غير ملزم بهذا الامر ..
.. استمر تسكعي في احياء براغ القديمة ومقاهيها وحاناتها اثناء النهار ..
.. بدأت اكره المدينة التي تعد أجمل مدن العالم .
.. كرهت نفسي اكثر .
..في إحدى ليالي ديسمبر الباردة، كنت احدق سارحا في لهب المدفأة الحجرية في غرفتي الموحشة وانصت الى الصمت داخلها وخارجها ، والذي لا يقطعه غير هسهسة الفحم المتقد .. هجم علي تساؤل مرير " ما الذي تهدف اليه ايها المتبطل من حياة التسكع هذه .. أهذه نهاية احلامك العظيمة في أن تصبح دكتور (شفارتس) الثاني ، تضع مهنتك الانسانية وتهب نفسك للمحرومين والفقراء وللعراة في ادغال المجاهل الافريقية .. أينتهي بك الامر الى عاطل متبلد ، يدور نهاره وليله دون هدف اومتعة بين المقاهي والحانات ..
.. مثلما لمعت تلك الخاطرة البارقة في بالي في آخر ليلة من ضياعي في الخرطوم ..التمع وميض مماثل جديد..

حزمت ما لدي في الغرفة على عجل .. ركضت بحقيبتي في ظلام حديقة المستشفى صوب بوابتها لعلي الحق بآخر حافلة للركاب متجهة الى براغ ..
.. يفتح لي حارس البوابة مستغربا استعجالي هذا ويسأل :
-كدا بان دوكتوري (الى اين ايها-المحترم- الطبيب ؟) .
-نسخيدانو فاخترا (وداعا ايها الحارس) .. نسخيدانو .
اصل في الدقائق الاخيرة لإنطلاق الحافلة .. أجلس على احد المقاعد الشاغرة قرب النافذة .. اتنفس الصعداء وأطلق آهة ارتياح .. ابتسم ثم اضحك وانا اراقب المعالم الاخيرة من المدينة الصغيرة تمر عابرة الى الوراء .

الجواهري يسترخي مع قدح شراب صغير مستلقيا على التخت ، متكئا بظهره على وسادة عالية سارحا ببصره عبر النافذة الى عوالمه في الظلام ..
.. انحني واقبل خده :
-لقد قررت العودة ..
يبدل وضعه على التخت ويجلس ليواجهني متسائلا بدهشة واستغراب ..
- تعود الى السودان ؟!
- بل اعود الى الوطن .
- الوطن ؟!! .. وفي مثل هذه الظروف ؟! .. شيء جيد لو كانت الامور غير ما عليه هناك .. ليس من العقل أن تعود الآن .. لمَّ هذا القرار ولديك عمل انساني يقدم في اي مكان ، وانت معي هنا وفي أجمل مدن العالم ولك خطيبة جميلة يتمناها خير الناس وبينكما تفاهم عميق ومحبة ..
اطرقت برأسي وانا انصت الى حديثه .. انتظرت فرصة بين كلامه لاكرر من جديد:
- أنا عائد يا والدي .
- هل نسيت انك ولدي .. ابن الجواهري الذي قال مايردده الناس الى الآن في العراق :
" ياعبدَ حربٍ وعدو السلامْ ياخزيَّ من صلى وزكى وصامْ "
" ياسبَـةَ الحجيـجِ في قَصدهِ يا ابن الخَنا أمْ أنتَ عبدُ السلامْ "
ينظر اليّ باستغراب ويواصل اقناعه وردعي هازا رأسه بانزعاج :
- (ابن الخنا) هذا ، هو رئيس الجمهورية هناك الآن ! ، وانا وانت وفرات شبه مطلوبين ، وقد حُجزت اموالنا المنقولة وغير المنقولة ، التي ليس لها وجود لتحجز ..
- ساعود يا والدي ..كررتها برقة وتوسل .
صمتَ لحظة وكأنه يعيد صورا في ذهنه ..
- قد ينتهي بك المطاف في سجن نقرة السلمان !!
- نقرة السلمان عندي أجمل من كل اوربا ..
.. أسقط بيده وهو يواصل النظر اليّ باستغراب وكأنه يراني لاول مرة ..
.. هز رأسه .. نهض وذرع الصالة ذهابا وايابا بخطوات كبيرة .. على وجهه المقطب معالم افكار تدور ..توقف امامي فجأة ونظر أليّ بإمعان وبانت على وجهه معالم دلت على بعض إنفراج الأزمة .

- سأزودك برسالة الى عبد الرحمن البزاز ، لي بقايا من صداقة قديمة معه ، وقد تراس الوزارة الجديدة قبل أيام .
..احتضنته طويلا وقبلت وجنته ..
-اشكرك ياوالدي .. اشكرك ايها الحبيب .. وارجو المعذرة ! .. لن ادخل وبيدي عكاز أتوكأ عليه ، اني عائد لبلادي وسادخلها وقامتي مرفوعة .

حييثُ سفحكِ عن قربٍ ..

دجلة الخير بريشة كاتب السطور

من السماء بدت بغداد زاهية باضوائها وتلامع شريط دجلة ..حطت الطائرة في مطار المثنى .. استنشق بعمق وانا ابتسم جذلا انسام ليالي بغداد العذبة ..أخطو بثبات صوب البوابة المشرعة للقادمين ..أضع حقيبتي على الطاولة الطويلة واقدم جوازي لضابط التفتيش .. ينظر في الجواز ويرفع بصره اليّ .. يسالني أن أنتظر قليلا ..يدقق في جوازات القادمين الاخرين وامتعتهم .. بعد أن ينتهي من آخرهم يطلب مني أن اتبعه الى غرفته ..يطلب مني الجلوس قرب طاولته ..

-فلاح محمد مهدي الجواهري ؟

-نعم .. اجيب أنا بهدوء

-قادم من براغ ؟

-نعم .

-المهنة

-طبيب .

يكتب على ورقة امامه .. يرفع سماعة التلفون لحظة ثم يضعها جانبا ..تظهر عليه معالم من يعيد تساؤلا في ذهنه ، ثم وكأنه يتخذ قرارا فينهض فجأة ليغادر الغرفة .. ابقى في مكاني جالسا .

ها قد مضت ساعة ، ثم ساعتين ، .." يبدو أنه يتصل بجهات عليا .. ساقضي ليلتي هذه في موقف الشعبة الخاصة قرب السراي .. وما الضير في ذلك ، ساستعيد ذكريات الخمسينات ، بل لعلي ساجد رفيقا ممن كانوا معي هناك ..ها قد صحّت توجسات الجواهري .. لعلها بداية الطريق الى نقرة السلمان ..وما الضير في ذلك ؟! ساتعرف على سجن جديد غير موقف السراي والسجن المركزي ومعتقل ابو غريب ومعتقل الرستمية .. قد يكون جو البادية في هذا الموسم طيبا والشمس في باحة القلعة الصحراوية حلوة تدفأ عظامي التي تثلجت في الغرب .." .. بينما انا منشغل في احلام المغامرات القادمة عاد ضابط الجوازات ووقف امامي مبتسما ..

-مرحبا بك دكتور .

استلمت جوازي من يده الممدودة وشددت على كفها مصافحا بحرارة .

حين خرجت من بوابة المطار الى ساحة وقوف السيارات لم أجد اعذب من تلك الانسام الندية ولا ارق ..بدت اضواء الارصفة القريبة ونوافذ البيوتات البعيدة فوانيس سحرية آتية من ليالي شهرزاد .. في التاكسي الهبتُ حمى سائق التاكسي بالاسئلة عن الابنية والشوارع والجسور التي نجتازها ، ناقلا اليه حمى نشوتي وجذلي ، وكأني لم ار معالم بغداد من قبل ولم تطأها قدماي .. صحيح اني فارقتها لعشر سنين ونيف ولكن صور ادق معالمها لم تغب عني طوال هذه الاعوام ..

.. انتقل فرح عودتي اليه فاخذ يمطرني بالاسئلة عن غيابي عنها .. عن دراستي .. عن المدن التي رأيتها والناس الذين يعيشونها ..

..ندخل عبر ازقة مظلمة ضيقة متعثرة وبيوتات صغيرة متراصة .. يا إلاهي ! لكم اشتقت لهذه المعالم التي فاتتني عصورا .. اتخيل من وراء ابوابها ساكنيها والتفافهم في ساعة الليل الباردة قليلا حول جمرات مناقلها المتوقدة .

.. نحن الآن في حي بمساكن حديثة لم تعبد شوارعه بعد ..
-ها قد وصلنا الى حي المعلمين في مدينة الحرية..يخبرني السائق وهو يلتفت برأسه لحظة صوبي .. وها هو دار رقم 65 ، يكمل عبارته .
يا للفرحة الكبيرة ..انا ومنذ عهد بعيد لم أجد نفسي محاطا بالقبل والاحضان من جمع كبير من الاهل .. شقيقتي الكبرى أميرة ، عدد كبير حولها من اهلي ، اطفالا وصبيانا وصبايا
.. اين هذا من توحدي في ظلمات ضباب لندن وزمهرير موسكو وضياع السودان وبراغ ..ها أنا أجد نفسي .. ها أنا أولد من جديد .
في الصباح وانا أُعدّ اوراقي واضعها في محفظة استعدادا للخروج لبدء معاملات تعادل شهادتي في وزارة المعارف كأول خطوة ، ثم وزارة الصحة لمعرفة سبل التعيين ، وبعدها دائرة التجنيد في وزارة الدفاع ، كنت منشغل الذهن تماما بالوسيلة التي سأحصل بها على بضعة دنانير وانا اكاد اكون و(كعادتي على الحديدة) و في الوقت الذي تمر به شقيقتي وزوجها بأزمة مالية مضنكة .
بادرتني أم رائد :
-لك عندي دين عليّ أن اوفيه .. لقد أتانا بعض من أرث وقف عائلي تم بيعه قبل اسابيع ، وكانت حصة الوالدة فيه قرابة المائة وسبعون دينارا ..حصتك انت فيه تسعة وستون دينارا ..اعذرني يا أخي لن استطيع دفعها كلها لك مرة واحدة ، سادفعها على اقساط .
لو أني وجدت كنز علي بابا لما كانت فرحتي به مثل خبر هذا الصباح المشرق ، فرحتي كانت مضاعفة ، ساستطيع انجاز كافة المعاملات بهذا المبلغ وزيادة ، والفرحة الاعظم احساسي بأن الوالدة الراحلة تتعقب خطواتي ومنذ الطفولة لتقف معي في أزماتي .
..اشرقت بغداد أكثر وانا أجوبها في فترات الانتظار بين معاملة واخرى وفي جيبي عشرة دنانير عداً ونقدا .
محطة الانتظار الرائعة الاولى كانت فوق احجار مسناة (قشلة السراي) ..ساعات اجلس في شمس الظهيرة ، التي لا تزال ساخنة للجلوس تحتها فترة طويلة .
.. يسالني موظف تركت معاملتي لديه ، حين رآني مرات وانا في مكاني هذا ..
-ألا تحرقك شمس الظهيرة .
- ابدا ! .. انها تجفف عظامي التي تعفنت في سنين البرد والصقيع والظلام .
أنظر الى دجلة بحنان ونشوة ، اتابع زوارق صياديها والزوارق الاخرى التي تنقل افرادا من ضفة الى اخرى ..أتملى بيوت الشواكة ، واعبرها الى الدهانة فالى جسر الشهداء فالجعيفر .. من بعيد تلوح بساتين العطيفية ..أطيل النظر في مسحيّ البصري هذا في بيتنا الذي سكناه ردحا .. الى جواره بيت الريس ويليه بيت المدلل .. هذا البيت الكبير لجارنا حسن السهيل .. وهذا بيت الخانجي ذو الشناشيل.. هل لا يزال ابراهيم وزهير صديقا طفولتي يعيشان فيهما ؟
امشي بخطوات حالمة ، المسافة بين مدخل القشلة وسوق السراي .. عند مدخله تعبق رائحة الكبة ..التفت براسي شمالا فاجد دكان كبة السراي قد توسع ..أطلب واحدة

فيضعها في صحن معدني ويفعسها باصابعه .. يفوح عطرها وبخارها اكثر .. كل مطاعم اوربا لم تقدم لي وجبة شهية كهذه .
.. اقف عند كل دكان كتب .. اجد بعضها قد زادت قرطاسيته على ما كانت عليه وأخذت مكان الكتب العتيقة فوق الرفوف ..إلا مكتبة الفلفلي هي هي و هو هو ..لم يتغير كثيرا إلا بوخط الشيب في فوديه .." اريد استعارة سيرة عنترة بن شداد ! " يسأل ابن الثانية عشر.. " " عشرة فلوس عن كل جزء ، وتدفع خمسين فلسا كتأمين " ..استلم الجزء الاول الضخم من كفه السمينة قصيرة الاصابع وهو ينحني بجسمه المدورفوق عارضة مدخل الدكان ..اعود بعد أيام ، فاستلم الثاني ، فالثالث حتى تكتمل السيرة بمجلداتها الاثنتي عشرة ..
.." اريد سيرة ابو زيد الهلالي ! " يطلب الصغير مجددا ، وتنتهي السيرة الثانية ، لتعقبها(مغامرات روكامبول)..وتأتي مجلدات صفراء اخرى .. واخرى ..
..تأتي نتيجة امتحاني ببكالوريا الابتدائية (إكمال في اللغة الانكليزية) .
..يُنقل مكان الامتحان التكميلي الى كربلاء .. يهمس باذني المدرس حسين الجواهري ، المشرف على قاعة الامتحان ، وهويجتاز رحلتي" امسح هذه !". . " اكتب هذه! " انجحُ بصعوبة .
أعبر من أمام مدخل جسر الشهداء الى مدخل (سوق المغايز) .. حسون ابو الجبن على يميني ، لم يتبدل كثيرا غير بعض الشيب الذي غزا شعره ..
.. نرفع حسون ابو الجبن على اكتافنا امام البرلمان بعد أن استولى عليه الحماس واخذته الحميه فترك دكانه لينضم الى حشود المتظاهرين الصاخبة عام 52 .. نطلب منه ان يهتف فينا .. لحظة تفكير قصيرة ويعلو صوته في الآلاف من ورائه وامامه " نوري السعيد ..كـ..أُخْته " ..يفكر مليا ويهتف مرة اخرى " الحكومة ..كـ..عراضهم " ويعلو تصفيقنا الضاج ونحن نهزه فوق اكتافنا .
.. اسلّم عليه واشتري منه نصف كيلو من الجبن .
في السوق الموازي لسوق المغايز .. تتكاثر النعال الجلدية البدوية والحضرية المعلقة بزخرفها الجميل والوانها اللامعة.. اسوار المستنصرية على يميني .. اترك دخول المدرسة بالف عامها وصفوفها واروقتها الى يوم آخر ، كي اجوب زواياها كلها .. اِلسبحْ المعلقة بالوانها الباهرة في دكاكين أخرى .. أجتازها الى دكاكين الروّافين ..انعطف يسارا ..
..ادخل سوق بائعي الاقمشة .. أجد جلال ، صديقي وزميلي في ثانوية الاعظمية ، يمسك طولاً من القماش وحوله عدد من بائعي الاقمشة وهو يصيح بصوت عال " خمسة دنانير !" ..باشارة من احد الملتفين حوله يكرر " ستة دنانير! " ، وباشارة من آخر .." سبعة دنانير !" .. يلتفت ببصره اليهم واحدا واحدا مستفسرا ويكرر " سبعة دنانير ! .. ما كو زايد ؟! " .. يعقّبها بـ "شايف خير ! " ..يسلم طول القماش الى المشتري .. ويمسك بواحد آخر ..
" يبدو أن صاحبي لم يفلح في دراسته ، أخذ مهنة ابيه ، دلّال اقمشة .. اين ذلك الشاب الوسيم جدا الرشيق المرهف الحس ، من هذا الرجل الضخم متهدل الكرش

بادي التعب " ..يلمحني بين الواقفين .. يترك طول القماش الذي بيده ويصرخ والبسمة تشرق على وجهه :
-ويّ ميّت هلهْ.. يا ميّت مرحبهْ .. يحتضنني ويسحبني من يدي الى دكان كبير خلفه .. نجلس قرابة نصف الساعة ومع اقداح الشاي ، يروي تفاصيل السنين الفائتة ..
.. حين لم يفلح مرتين في بكالوريا الاعدادية ، توسط وبرشوة كبيرة للتخلص من الخدمة العسكرية .. تزوج من ابنة خالته وله الآن خمسة اطفال ..
- يعني ماشي الحال .. اكدح بالنهار والريع جيد ،واسكر في الليل بالبيت بين ضجيج الاطفال حولي ومزات أم قاسم –زوجتي – اللذيذة .. قانع بل وراضٍ ايضا بقسمتي .. الحمد لله على النعمة.
اتركه كي لا اقطع عليه رزقه ، على أن نلتقي ليلة حددها هو ، في كازينو الخضراء على شواطيء ابي نؤاس .
.. ادخل سوق الشورجه واجتازها الى سوق الشموع، المنتصبة والمعلقة بالوانها واطوالها المتفاوتة .. تصل اليّ عطور التوابل النفاذة ..لا اروع من هذه الالوان العديدة تصطف بمربعات خشبية متدرجة من الارض والى علوغير قليل تسحرك بتنوعها الذي رُتب وفق ذوق رسام تعبيري-تجريدي مبدع ..اقف هنا وهناك امام دكاكينها ..اجتازها لاصل الى زقاق سوق الغزل .. تحت سورمنارته المتسامقة ، لا يزال بائعي الديكة الضخمة والحمام المتنوع ، يقفون كل يحمل ديكه او يضع امامه اقفاص حمائمه .. هنا وقبل سنين كنت آتي وجاري خالد (مطيرجي) محلة الحارة ، ليتفحص انواع الحمام الجديد في السوق ، ليبادل او يشتري .. هذه حمامة محجّلة ، وهذه النادرة القلّابة وتلك البيضاء المرقّشة .
اشهد هنا اليوم صراعاً للديكة ..
.. يلتف جمع كبير حول شخصين ، احدهما يحمل ديكاً هراتياً بفخذين مشدودي العضل وعنق اجرد ورأس اقرع وعينان محمرتان تقدحان غضبا وتحفزا .. الآخر يحمل ديكا كشميريا ضخما اسود تتبارق الوان عنقه الزاهية ويعلو رأسه تاج عرف كبير قاني الاحمرار ..
.. يتقدم شخص ضخم بشاربين مهدلين من بين دائرة الملتفين حول ساحة الصراع الصغيرة ويستلم نقود المتراهنين .. يعطي الاشارة بعدها فيترك صاحب الهراتي ، والاخر الكشميري ديكيهما على الارض .. تتعالى اصوات المراهنين والمشجعين حتى يضج الزقاق كله بصراخهم ..ينتهي الصراع الشرس بسقوط الديك الاسود تحت مخالب ومنقار الهراتي المعقوف.. يفلح اخيرا في التخلص من مخالب غريمه ليهرب منكسا راسه صوب صاحبه الذي علا الخزي والحزن وجهه ، مدمدما لاعنا يومه الاسود.
في يوم آخر أخرج من مديرية المعارف في السراي والمعاملة لا تزال تأخذ مجراها الروتيني الطبيعي .. اتمهل في تجوالي بين مكتبات شارع المتنبي بدءا بمكتبة النهضة وانتهاءاً بدكان حميد ياسين ، اخو صديقي رشيد ياسين ، للخط ورسم الوجوه .. يمسح عويناته الثخينة وهو يحدثني عن عمله الكاسد ومصاعب اهله الذين اعرفهم جميعا حقّ المعرفة .. اغادره لاحتسي (استكان) نومي بصره في مقهى البرلمان ..

لايزال (شفتالو)بقامته القميئة يدور باقداح الماء وقد هرم وشاب رأسه .. اجلس في مقهى حسن عجمي واستعيد ذكريات الطفولة حين يصطحبني الجواهري عند الفجر قاطعين المسافة من الجعيفرالى المقهى مشيا ..الاصح هو يمشي وانا الحق به راكضا بين الحين والاخر .. هنا كان مجلسي قرب حسن عجمي والببغاوات يسرحن على اكتافه وذراعه ، يقشرن بمناقيرهن حبوب البطيخ والقرع ، ويرددن بين الحين والآخر " سلام عليكم .. سلام عليكم " .." كبة يا الله .. كبة يا الله " .. بعد ان اشرب قدحا من شربت الزبيب قرب المقهى من دكان (زبالة) الشهير مع (صمونة) حارة اواصل تجوالي حتى اصل الى مرسى (الابلام) عند الشاطيء الرملي امام المستشفى الملكي (الجمهوري الآن) ..اصعد الى قارب واعبر دجلة مع بقية ركابه ، .. انظر الى بيتنا القديم الذي تسبح مسناته وشرفته في مياه دجلة .. يعتصر الشوق والحزن فؤادي .. حين انزل عند شريعة القوارب اسأل عن مصطاف ، بلّام الجواهري .. لا يعرفه اي من النوتية الجدد .

اسأل في مقهى الجعيفر الصغير المواجه لزقاق بيتنا السابق ، عن عبودي ابن الفحام وافرح بأن اعرف أنه لايزال يقيم في المنطقة ، وهذه ساعة ارتياده المقهى ..

.. عبود الصبي الشهم الجسور رفيقي في مناوشات الليل ضد شلات صبيان الحارات المجاورة .. رفيق عراك المقاليع في الفضائات المتربة في الرحمانية والتكارته .

.. دخل عبود المقهى وخاب ضني حين وجدته مترهلا مهلهل الملبس .. يمزح معه بعض رواد المقهى بشكل سمج ساخر..

لم يتذكر (الافندي) الذي امامه إلا بعد احتضاني له بحرارة وأنا اردد " انا صديقك القديم فلاح..أنا .."

سالته الكثير ، واجاب بالسرد المفصل .

جارتنا (غنية الخبازة) تزوجت شيخ عشيرة صغيرة من الفرات الاوسط .. .. هجرمصطاف البلام ، الذي يحبها حبا يعرفه كل اهل الحي ، شريعة القوارب في الجعيفر ، بل هجر كل شرائع بغداد ليعود هضيم الفؤاد الى مدينته الاولى سامراء

.. زنوبة العانس المتصابية المخشلة باساور وقلائد الذهب، التي كانت تتعامل بالربى (المريح) والتي يحبها اهل المنطقة كلهم ، ذبحها محمد الحمامجي (أتذكر الوجه المعفر بسخام مواقد الحمام) خلال اصطحابها لزيارة مرقد الحسين .. استولى على صيغتها وطمرها في احد بساتين طويريج .. اكتشفت الجثة وشنق الحمامجي ..عادل معلم الرياضة الاشقر قُتل بطعنات الخنجر بعد أن تحرش جنسيا بأحد تلامذة الحارة .. قاسم ابن الموسقوفية (خباز الجعيفر) سجين سياسي في سجن بغداد المركزي .. فتاح اصبح عام ثلاثة وستين من قادة (الحرس القومي) آذى الكثيرين من شباب الحي ..اختفي بعد انقلاب عبد السلام عارف على البعث بعد هروبه نصف عار امام مطارديه ممن آذاهم ، تاركا وراءه على الارض سلاحه وبزته .. لايعرف احد مكانه حتى اليوم .

أعانقه واغادر المقهى واتوجه الى مدرستي .. الكرخ الابتدائية .. استأذن وادخل ادارتها .. عزت الخوجه مديرها العتيد توفي الى رحمة الله .. أسأل عن معلمي واستاذي الحبيب الشاعر المبدع خضر الطائي .

كان فرحي كبيرا حين اخبرني المدير الجديد بأنه بخير، وقد انتقل الى ملاك التدريس الثانوي .. آخر ثانوية درّس فيها هي الشرقية وهو على وشك التقاعد ، وان بإمكاني أن أجده في مقهى الزهاوي فهو من روادها ..
لم يكن الجواهري وحده من اشعل فيّ فتيل التولع بالشعر والشعراء والادب عموما ، بل كان لخضر الطائي ، معلمي في ابتدائية الكرخ اليد الطولى ..
.. لم أكن أناالوحيد ممن اذكى فيهم هذه الشعلة ، فقد كان هنالك زميلاي في السنتين الرابعة والخامسة الابتدائي سليم المعروف (المذيع المخضرم) و الشاعر المتواضع الرقيق عبد المنعم الزبيدي (دكتوراه الادب المقارن من جامعة اوكسفورد واستاذها في كلية الاداب في جامعة البصرة) .
.. يدخل خضر الطائي الصف بقامة منتصبة مترفّعة وسدارته فوق رأسه وتحت ابطه ديوان شعر، فتخمد الاصوات فجأة ..البعض ينظر اليه بخشية ، خصوصا من صفعته الرنانة بيده العضباء .. نحن الثلاثة ننظر اليه بمحبة واعجاب وترقب .. يضع سدارته والكتاب على الطاولة الصغيرة امامه ويبدء الدرس حالا .
.. للشعر (للمحفوظات) المقام الاول ..
.. يبدء منعم اولى محاولاته في النظم .. يأتي الينا أنا وسليم صباحا قبل رنة الجرس ، ويقف بنا جانبا ليطلعنا وكأنه يكشف سرا ، وبما يشبه الهمس يطلب منا أن نرى ما خطه على الورق في بيته في الليلة الفائتة ..(استمرت هذه السرّانية او قريبتها ، حتى حين طبع في الخمسينات مجموعتيه الشعريتين الغزليتين الصغيرتين ، دون محاولة منه للاعلان عنها في الصحف ولو من قبيل التنويه فقط ..استمر تواضعه المفرط وتستره الشعري حتى نهايته وهو في ريعان شبابه ، فقد قُضي عليه مع زوجته وابنه في حادث اصطدام في الطريق الى تركيا .. حمّ قضاءهم قبل قضاء اجازتهم) ..
.. نمّى الطائي فينا هذا التولع عبر القصائد التي كان يطبع منها نسخا ثلاث ويسلمها لنا لنحفظها ولنلقيها في اليوم التالي أمام التلاميذ في الصف او أمام المدرسة كلها في اصطفاف الصباح وعلى الاخص قبل رفع العلم يوم الخميس .
.. اسماء شعراء جدد ، علينا ان نبحث عنهم في مكتبة المدرسة او حتى في المكتبة العامة في باب المعظم .
..كنا نثير استغراب امين المكتبة هناك حين يقف احدنا او نقف الثلاثة امامه ليساعدنا في ايجاد ديوان هذا الشاعر او ذاك .. ينظر الينا بدهشة وبابتسامة حنان وتشجيع ..اطفال صغار يبحثون عن شاعر في مكتبة الكبار قليلة الرواد .
يأتينا الطائي بمسرحيات شعرية للحفظ ويشرح ابياتها ويسألنا رأينا في جمالياتها وكانا ندّ يناقش الندّ .. لقد وصل الامر به في التشجيع والتسامح لارفض يوما ابدال كلمة باخرى اقترحها ليجعل الفداء والاستشهادعراقيا في أحد أبيات شاعر سوري ، في مسرحية عن فداء الوطن ضد جيوش الاحتلال ..
طلب مني ذلك ، قبل أن اخذ دوري مع سليم ومنعم في تمثيل المشهد شعرا امام وقفة اصطفاف الخميس فاعترضت ..
..اقول ، وانا الجريح الطريح في ساحة المدرسة ، لحبيبتي (ولم تكن الحبيبة إلا منعم الزبيدي) :

ليلايَ ما انـا حـيٌّ .. يُرجى ولا انا ميتُ
لم اقضِ حقَّ بلادي وها أنا قد قُضيتُ
اقترح معلمي وشاعري الذي احبه واحترمه التغيير التالي :
بغداد ما انا حيٌّ يُـرجى ولا أنا ميتُ
فاجبته :
-استاذ لا يجوز ابدال كلمة ليلاي بكلمة بغداد ، فهذا يتجاوز على الامانة الشعرية ..
.. نظر اليّ بابتسامة حلوة فيها معزّة وحنان ابوي
-مثلما تريد يا فلاح فقولك فيه الصدق .
.. نعتلي سطح (الكَـاري) معه ونجلس على مصاطب العربة التي يجرها حصانان ، في طريقنا الى مدرسة الكاظمية .. في الهواء الطلق وتحت قبة السماء والعربة تختض بنا ، يطلب أن نقرأ امامه (كبروفه) ما سوف نلقيه امام طلاب المدرسة التي تستضيفنا من قصائد ومسرحيات شعرية ..
.. بين الحين والآخر نكرر الجولات معه ، مدرسة الشواكة ، الاعظمية ، الشرقية ..الاستاذ الطائي يعرض قدرات تلاميذه الثلاثة .

.. ادخل مقهى الزهاوي وابحث ببصري عنه ، اجده جالسا على تخت في آخر صالة المقهى والى جواره من الجانبين ، وامامه على التخت المقابل ، رجال في مختلف الاعمار .. اقترب من الجالسين فاجدهم يناقشون صفحات متناثرة على المائدة امامهم.
.. اقترب اكثر واقف وراء تخت الجالسين امامه .. اتملاه بصمت وخشوع وهو يلتفت متحدثا مع من بجواره او آخر امامه .. انتظر حتى يرفع راسه ويراني .. ينظر الي لحظة ويهز راسه بصمت ويبتسم ..
-استاذ تتذكرني ؟ ..اقولها مبتسما
-ليش أكو واحد ينسه فلاح !
يطلب مني الانضمام الى المتراصّين جواره وامامه على التختين ..اعتذر عن إشغالهم .. يلتفت أحد الجالسين من حوله ويخبرني بأنهم يعدون تفاصيل الاحتفال بخروجه الى التقاعد
يسالني عن دولاب الزمن معي خلال مايقرب من العشرين عاما الماضية .. اجيب باختصار كي لا اقطع مناقشة الاحتفال بشاعرنا المبدع ..خضر الطائي .
أنحني احتراما واغادر .

يزداد عشقي لبغداد يوما بعد يوم ، وعلى الاخص مع تقدم معاملات التعادل ، ووجود بعض من هدية الوالدة الراحلة النقدية في جيوبي ..اجوب اطرافها القريبة والبعيدة .. اشرب القهوة المعطرة في البرازيلية .. أتناول ومحمود قدحا من النبيذ في(شريف وحداد) ..اشاهد عروضا مسرحية جديدة .. الحركة المسرحية تتصاعد وتتطور بعودة العديد من الممثلين والمخرجين من بعثاتهم الدراسية خارج الوطن ..اقضي امسيات جميلة في حدائق جمعية الفنانين .. أشاهد افلاما – وانا عاشق كبير للفن السينمائي – فمن شاشة روكسي ، الى ركس ، فغرناطة .. بل حتى الى سينما الرشيد

لاسترجع مكانة فلاش غوردن في الطفولة البعيدة..احضر عرض (راشمون) في (قاعة السينما والمسرح) .. الصالة مكتضة بحشد مثقفي بغداد من الجنسين .
.. في مقهى روكسي و (مقهى المعقدين)أكون طرفا في نقاشات حرة متعددة المواضيع ..نتحدث بحرية حتى في مجالات السياسة . .
.. اخرج من هناك مع مسعود في احدى الليالي ويعرض عليّ (سيجارة كيفْ) فندخنها ونحن نفترش رملة شاطيء ابي نؤاس الندية ..
.. أنا شهريار ، اجلس على فراش من زئبق وبجانبي شهرزاد .. يغني النهر وهو يقترب بامواجه حولنا دون ان يصيبنا البلل وترقص الاضواء رقصاً شرقيا ، حيناً يغني بصوت زرياب واخر بصوت الموصلي عالي النبرة .. ينتقل النهر بصوته الاجش الى مقام حويزاوي لحسن خيوكة ، ثم تأتيني ردّة يوسف عمر " ياكَـهوتك عزاوي بيها المدلل زعلان " ..اخيرا يبكي النهر بصوت سليمة مراد " هذا مو انصاف منك " ..ننهض لنعود الى بيتينا .. الارض تهتز تحت اقدامي الجبارة ..غداً ساذهب الى وزارة الصحة وآخذ بتلابيب الوزير إن اقتضى الامر ، واضع أمامه أمر تعييني فيطأطأ راسه بقناعة فرضت عليه ويوقعها شبه صاغر ..
.. في زقاق مظلم قرب دارنا اشعر بدوارمفاجيء وأتقيأ بشدة .
ينتهي أمر تعادل الشهادة ، فاتوجه الى وزارة الدفاع لاسجل اسمي على قائمة الدورة العشرين في كلية ضباط الاحتياط ..اضع اوراقي امام الرائد يوسف بطي مسؤول الخدمة العسكرية الالزامية ..ينظر في شهادة التخرج وتأريخها ويعلق "ها ..من موسكو ! " .. يأخذ ختما ويطرقه على ملف الاوراق ..(متخلف) ..
-لكن سيادة العقيد لم يمض على عودتي الى الوطن إلا بضعة اسابيع .. ودورة ضباط الاحتياط لم تبدأ بعد ..ستبدأ بعد اسبوع .
-ابني اكَـلك متخلف .. ما تعرف تقْـرَ الختم ، يعني تلتحق بالدورة التالية بعد ستة اشهر .
اخرج ولم أعر الامر اهتماما كبيرا ..لإني لا اعرف ماهي عواقب (المتخلف) ، إلا في المفهوم الطبي (التخلف الذهني) ..
لا ادع هذا الامر يفسد علي نشوتي .
.. اقصد وزارة الصحة في أمر التعيين .. الكل من الموظفين الصغار والاعلى قليلا يخبرني أن التعيين غير ممكن قبل اكمال الخدمة العسكرية .. أطلب مقابلة مدير الخدمات الطبية العام عبد الله الخضير ..
.. يعود سكرتير مكتبه ، بعد عرض اوراقي عليه في غرفة ملاصقة ..
-موعدك مع المدير العام غدا في الساعة العاشرة . يخبرني السكرتير .
في الدار يخبرني عيسى ، زوج شقيقتي ، بأن عبد الله الخضير من المقربين الى الرئيس عبد السلام ..أتوجس صعوبات تقف أمامي ..تخفت نشوتي قليلا وانا اضع حسابات مختلفة نصب عينيّ .
ادخل مكتبه في الموعد المحدد .
.. رجل طويل ممتليء ، وجهه يميل الى السمرة بعينين بهما جحوظ قليل لا يمحو ومضة الابتسامة فيهما او تلك التي فوق شفتيه .

-تفضل دكتور ! ويشير بيده الى مقعد قريب .." بداية خير يارب !"
-شاي ام قهوة ؟ .." الامور تتطور للاحسن بسرعة "
-اشكركم فوقتكم ضيق ومشاغلكم كثيرة .
يضغط أحد الازرار أمامه ويوصي بفنجان قهوة .. " أي والله والخير يبدو قادما "
-كيف حال الوالد ؟ انا من عشاق شعره .." مفاجئة اخرى "
- بخير والحمد لله .
- لقد تفحصت اوراقك .. ليس من المنطق ان يبقى طبيب دون عمل ستة اشهر في انتظار دوره في الخدمة العسكرية ونحن بأمس الحاجة الى أطباء ..صمتَ لحظة.. قلب جداول امامه ثم واصل حديثه ..
- لا يمكنني تعيينك في المستشفى الجمهوري في بغداد فهي للعشرة الاوائل من خريجي كلية الطب ، ولكني اعرض عليك أحد مكانين مستشفى الموصل التعليمي ، وهو ما اجده جيدا وخصوصا وانه قاعدة تعليمية لكلية طب الموصل ، والثاني هو مستشفى البصره الجمهوري وهو مستشفى عريق باكثر من الف سرير وباخصائيين معروفين وببرنامج تدريب متميز للاطباء الدوريين حديثي التخرج ..
انتظرَ جوابي لحظات ، راجعت بذهني " الموصل وحكاية محاولة انقلاب الشواف وقتلاها، والمجازر التي تلتها ، وانا خريج موسكو وابن الجواهري "..دار كل ذلك ببالي في لحظة قصيرة فاجبته
-ساكون شاكرا لو تم تعيني في مستشفى البصرة الجمهوري .
هز راسه بما يشبه خيبة الامل ..ابتسم وقال
-سيكون الامر جاهزا خلال يومين او ثلاثة بعد أن يوقعه وزير الصحة .

يتحرك القطار .. تبدء بعد قليل خضرة بساتين (الدورة) المتلامعة في ضوء الشمس الغاربة ..اسرح في اعماقها بجذل وانا اشاهدها تعبرني من وراء نافذة مقصورة عربة النوم الفخمة .. تمتد الحقول العامرة الفسيحة بعدها ، ثم القرى ومدنا صغيرة .

.." لقد قوبلت بأهلاً وسهلاً عند قدومي، بعد ساعتين فقط من انتظار مهذب .. لم يطرق مختار المحلة الباب عند الفجر، ومعاون الشرطة يقف الى جانبه ، وبانتظارنا (البوكس) في الشارع امام المدخل ..لم يتعقبني شبح احدهم لا في المنطقة ولا في تجوالي الواسع في ارجاء بغداد ، ولم اترصد ظلا له بين الحاضرين في المقاهي والبارات .. بغداد تعيش أمنها والناس فيها بكل الوانهم يتوقعون غدا افضل .."
" أين مظاهر " عبد حربٍ " المخيفة فيها ..اين بعبع " عدو السلام " الذي يفزعونا بظهوره ، مثلما كانت تفزعنا جداتنا به وبغيره من العفاريت كي نهمد وننام .."
".بين مقربي الرئيس من يعشق الجواهري ولعله يردد قصيدته " يا عبد حرب و .. " ، ناظرا اليها عبر شكلها الفني وخيالاتها الشعرية .."

يا لعجب الكون الدوار ..بعد اشهرلا غير من التعيين ، أكون أنا والدكتور نعمان السامرائي قد أخذنا قيافتنا الطبية عند الفجرفي انتظار سيارتّي الاسعاف التي ستقلنا

الى (النشوة) ، قرب القرنة ، لرفع جثمان الرئيس عبد السلام بعد اكتشاف مكان مروحيته المحطمة ، وذلك بعد أن تلقينا أمراً تليفونيا من رئيس الصحة شاكر توفيق السكافي .
.. قبل انطلاقنا بدقائق يتبدل الامر ليقوم المستشفى العسكري في البصرة بهذه المهمة ..(سآتي على هذا الامر بتفصيل اكبر في حلقة قادمة) .
.. يا للعالم الصغير العجيب.. بعد عدة أعوام ، وفي مطلع الثمانينات تكون زوجتي (إلهام) هي من تقوم باجراء عملية قيصرية لابنة الرئيس الراحل السيدة وفاء ، في مستشفى الحلة ..
تأتي إبنته عام ثمانية وثمانين الى عيادتي في المنصور ومعها زوجها العسكري المتقاعد في استشارة طبية.. تتكرر الزيارة ويعوداللقاء الحلو معهما مرات ومرات خارج نطاق المجال الطبي .
لم ينشر الجواهري قصيدة " يا عبد حربٍ .. " بعدها في اي من مجلدات اشعاره و لم يلقها في اي محفل .

حبٌ في البصرة (1)

النهر الخالد بريشة كاتب السطور

.. " أنا أحب ..إذاً أنا موجود "
دخلت عربة الحنطور ساحة المستشفى الجمهوري (..كان اختيار الحنطور جزءاً من استعادة ذكريات الطفولة في الجعيفر ، فقد كان هنالك صف من سيارات الاجرة الى جانب العربات قرب محطة القطار حين وصل عند مطلع النهار)
..توجهت وانا أحمل حقيبتي الى العيادة الخارجية .. كان الرواق شبه خال من المراجعين ، بعض المضمدين يمرقون بين هذه الغرفة وتلك على جانبي الممر ..سألت احدهم عن الطبيب الخافر فدلني على غرفته .. حين دخلت الغرفة بعد أن نقرت على بابها مستأذنا ، كان هنالك طبيب في مثل عمري تقريبا ، بادي الوسامة معتدل الطول ، رشيقا، بصدرية انيقة بيضاء ، يجلس وراء طاولة معدنية خضراء غزت بعض اجزاءها بقع الصدأ ، منشغلا بالبحث في ادراجها وعلى وجهه علامات الاستغراب ، كمن اضاع شيئا كان يفترض ان يجده دون عناء ..
وضعت حقيبتي على الارض وبقيت منتظرا أن يولي الزائر بعض الانتباه .
.. حين رفع راسه بعد لحظات نظر الي وابتسم مرحبا وكأنه راى شخصا يعرفه .
-طبيب مقيم اليس كذلك ؟ ..
حين راى ابتسامتي وهزة راسي ايجابا ، نهض مرحبا وطلب مني الجلوس على كرسي معدني قريب ..
- فلاح الجواهري ! ..مددت كفي فشد عليها بحرارة مصافحا ..
-نعمان السامرائي ..أهلا وسهلا ..
بعد أن ضغط زر الجرس الى جانبه ، أطل شخص كهل بزي عتيق متواضع ، قدرت أنه معين العيادة الخارجية ، وطلب منه استكانا للشاي ، وان يخبر مسعود ليقدم ويحمل حقيبة الطبيب الجديد .
دار حديث قصير ، اطلعني فيه على توقع قدوم وجبة الاطباء المقيمين الجديدة خلال هذين اليومين ، والذي كان هو أول طلائعها .
- هل لديك مانع من أن نسكن سوية في غرفة واحدة ؟ سألني نعمان
- بل سيكون ذلك سروري البالغ .
قدم مسعود وأخذ الحقيبة فتبعته .
.. رجل في الخمسينات من عمره .. كرر وأنا اسير الى جواره :
-اهلا بعمي الدكتور ..اهلا بعمي ..عمي والله زارتنا البركة ..
.. اعترضت .
-أنت عمي فانت اكبر مني بما يقرب الثلاثين عاما .. دعني احمل عنك ايها العم هذه الحقيبة الثقيلة ..
حاولت أن اسحب الحقيبة من يده فشد على مقبضها بقوة .. ابتعد عني قليلا .. وضع الحقيبة على الارض .. نظر اليّ بعتاب :
-عيب والله عيب .. الطبيب اُبو..اُبو .. والله اُبو ..
كنت في غاية الحرج وانا اسير بجانب الرجل الكهل وهو ينوء بالحقيبة الثقيلة .

كانت دار المقيمين مكونة من طابقين .. ثلاثة غرف في الطابق الارضي ، الوسطى يشغلها الدكتور حسن السكافي لوحده فهو رئيس المقيمين وابن أخت شاكر توفيق السكافي رئيس الصحة ..غرفتنا انا ونعمان على يساره بينهما حاجز خشبي يمكن فتحه على سعته .
أطلعني مسعود على تفاصيل الدار ، وبعد ان وضع حقيبتي في غرفة نعمان ، سألني إن كنت افضل قدح شاي او فنجان قهوة او شرابا مبردا ، وحين شكرته معتذرا واطلعته أنني بشوق لاتعرف على مدينتي الجديدة مادام اليوم هو الجمعة ، اي قبل موعد مباشرتي الرسمية بيوم واحد .. سالني عن موعد عودتي وعن ما اشتهيه للغداء والعشاء كي يقوم باعداده في المطبخ .
حين عدت ليلا وجدت نعمان قد أعد سريري ووضع حقيبتي بجانبه وعلى الكوميدي جوار السرير مزهرية صغيرة بها اضمامة ورد صغيرة ومصباح منضدة ..
..شكرته على هذا اللطف الرقيق .
-كيف كانت جولتك في البصرة ؟
-لاتقلْ البصرة ، بل قلْ جمهورية البصرة ، إنها تختلف عن كل ما رأيت لا بين مدن العراق ، بل ومدن العالم الاخرى التي عرفتها ..شيء في غاية الجمال والتميّز معالما واناسا .. لن ابرحها ما حييت يا نعمان .

في الصباح توجهت الى غرفة مدير المستشفى ، أحد أمهر جراحي العراق وأكثرهم نبلا ، الدكتور مصطفى الخضار .
قدّمت اليه الامر الاداري .. رحب بالطبيب المقيم الجديد ، ومع فنجان القهوة اطلعني على بعض ردهات المستشفى الضخم واقسامه ، وأنه يضع جدول التدريب واختيار الاقسام بين ايدي وجبات المقيمين انفسهم واختياراتهم قدر المستطاع ، وهذا نظام قد اتبعه في السنين التي مضت واثبت نجاحه في تدريب الدفعات الجديدة وفائدته لمرضى المستشفى ..
.. طلب مني أن ازور الردهات واعرّف نفسي على مسؤوليها من الاختصاصين وأن اجد ما يناسبني للاشهر الثلاثة الاولى من الاختصاصات لبدء الاقامة الدورية ..
.. قمت بجولتي ، وعرضت خدماتي وتدريبي على الدكتور مصطفى النعمة ، اخصائي الامراض الباطنية المخضرم ، زميل الكلية الملكية البريطانية وعميد كلية الطب لاحقا .
حين عدت بعد اقل من ساعة الى مدير المستشفى ، مطلعا اياه على اختياري للامراض الباطنية كبداية لاقامتي الدورية وموافقة الدكتور النعمة على ذلك ، سألني متى اريد البدء ، وإن بامكاني أن ابدء من يوم غد اذا اردت ،لاكمال اطّلاعي على اقسام المستشفى ، رجوته أن يسمح لي بالبدء فورا .. ابتسم وهو يوقع الامر الاداري :
-يبين إنت كلش مستعجل عل التعب .

التحقت على الفور في جولة الدكتور النعمة الصباحية على مرضى ردهته وكان يرافقنا في الجولة محمد (ابوجاسم) اقدم مضمد في المستشفى واكثرهم خبرة وجهدا ووفاءا في عمله .. رجل اسمر الوجه، ضخم الجثة ، منتصب القامة ، وادع القسمات انيق الملبس بالصدرية والبنطال الابيض ، خدم منذ اوائل تأسيس المستشفى وتدرب وعمل مع المجموعة الطبية البريطانية المنتدبة في اوائل العشرينات .
.. كانت ترافقنا في الجولة زهور ، ممرضة سمحة الوجه في العشرينات من عمرها ، مسؤولة تنظيم اوراق المرضى ومواعيد فحوصهم ومواعيد الطبيب الاختصاصي وجهاز تخطيط القلب في غرفتة .
.. مريض الربو في طور التحسن .. عجز في القلب .. فقر الدم المنجلي ..تضيّق صمام القلب التاجي .. حين وصلنا الى المريض الثاني عشر-آخر الجانب الايمن من الردهة- والمختفي كليا تحت اغطية السرير ، تجاوزه الدكتور النعمة .. سألته عن تشخيصه المرضي فاجاب :
-ضياع الهوية المزمن .
(اطلعني ابوجاسم بعد مغادرة النعمة ، بأن هذا الرجل الملتحف وهو في الستينات من عمره ، عامل على ظهر مركب هندي (بوم) ، تخلّف عن موعد اقلاع مركبه ، فغادر المركب مرساه في البصره عائدا الى الهند ، تاركا اياه دون جواز او اوراق ثبوتية هندية ..
القنصلية الهندية في البصره ترفض استلامه والسلطات العراقية ترفض بقاءه .. راجع (الهندي التائه) الدكتور النعمة لمرض ألم به .. أدخله الردهة .. بعد شفاءه لم يسمح ضمير الدكتور النعمة في رميه الى المجهول خارج الردهة ، فابقاه عسى أن تحل قضيته وهذه هي السنة الثانية والقضية لم تحل بعد وهذا المصاب بمرض (ضياع الهوية المزمن) يأكل وجباته على السرير ثم يلتحف باغطيته ويعود الى النوم .

اليوم هو يومي الاول كطبيب ردهة خافر .
كان الليل قد اقترب من منتصفه .. أجلس في غرفة خفارة الردهة (هي غرفة الممرضات وغرفة ابو جاسم صباحا) ، اراجع ملفات المرضى واحدا بعد الآخر واستعين بمرجع (ميرك) في التشخيص والعلاج .. سمعت جلبة وزعيقا وثلاثة رجال يقتحمون الردهة ، حاملين معهم مريضا يرفس برجليه ويصارع الهواء بيديه وجسمه يتلوى بين أذرعهم وهم يحاولون بشق الانفس كي لا يفلت المصروع من بين ايديهم ..
..أشرت اليهم أن يضعوه على طاولة الفحص في الغرفة .. نظرت اليه وانا أكثر منه ومن مرافقيه هلعا .. لم ار شيئا كهذا في مستشفيات موسكو او براغ ..
..حاولت أن أشم رائحة الاسيتون من فمه (كما هو عند صرع المصابين بالسكري) فلم استطيع حتى الاقتراب..حاولت الامساك بمعصمه الساخن لجس نبضه فرميت بعيدا ..
أقف حائرا .. ما هذا يا إلاهي .. صرع الحمى التيفوئيدية الشديد ..صرع ..

.. وجدت ابو جاسم الى جانبي (يأتي في الليل المتأخر لمتابعة عمل الممرضة وللتأكد من وجبات الادوية وساعاتها) .
.. أمر الممرضة أن تحضر ادوات خزع النخاع الشوكي .
.. وقفت الممرضة الخافرة الى جانبي مع طاولة متحركة تحمل فوقها محقنة كبيرة وابرة طويلة وقنينة صبغة اليود وقطنا ووعاءا معدنيا وكفوفا مطاطية ..
.. دفع ابو جاسم الرجال الثلاث جانبا وطوى المريض بيديه الجبارتين ، بحيث اصبح تقوس ظهره امامي .
..طلب من الممرضة الخافرة قص كل ما يغطي الظهر ، فبانت نتوءات الفقرات المقوسة .. سارعت الممرضة لمساعدتي في حشر كفي بالكفين المطاطيين .. مسحت جلد الظهر فوق منطقة اعلى الفقرات القطنية ..
-هيّـا دكتور توكل على الله ..اعرف انها اول مرة ! قالها ابو جاسم مشجعاً
سحبت نفسا عميقا وتوكلت على الله وادخلت الابرة الطويلة دون عناء –لحسن الحظ- ..إمتلا المحقن بسائل حليبي قذر .
.. التهاب السحايا الصديدي !
(لا تُجرى هذه العملية في الغرب إلا من قبل الطبيب الاختصاصي)
سارعت لحقنه بالمضادات الحيوية ومركبات السلفا بجرعات ضخمة ثم حقنة من اللومينال (للنوم) .
.. نقل الى السرير وشدّ بأحزمة فوقه .
خلعت عني الصدرية وفانيلتي ومسحت العرق المتصبب على جسدي ووجهي رغم اننا في منتصف الشتاء .. شكرت ابا جاسم بحرارة .
-لقد مر علي عشرات الاطباء قبلك لاكون معهم في حالات مماثلة ، قالها مبتسماً .
خفّت حمى المريض عند الصباح .. بدا يتعافى مع استمرار العلاج ..خرج من الردهة بعد اسبوعين بصمم جزئي وهو لا تسعه واهليه الارض من السعادة .
.. اعتقد اني كنت بسعة سعادته .. لقد انقذت أنا وابوجاسم انسانا من موت شبه اكيد .
.. حُملت اليّ – في دار المقيمين- اول صينية من اسماك الصبور المشوية المعدة على الطريقة البصرية ومعها صحن رز بالزعفران وحشوة اللوز والزبيب والبصل ..وصحن كبير من (الحلاوة) .. شارك كل المقيمين في الدار في تناولها .
التحق عدد آخر من الدورة الجديدة بالمستشفى ، وبدأت الحياة تدب بل وتصخب احيانا في الدار .. ننشغل كل في ردهته نهارا ونتعاون في خفارات الليل في كثير من ألاحيان على انقاذ هذا المريض وتتبع حالة صعبة لمريض آخر ..لا ننام إلا سويعات .. نلهو ليالي الجمعة ونهاراتها .. نصخب احيانا في حديقة الدار ليلا للحد الذي يرغم رئيس الصحة الطيب الوقور الذي يسكن لصقنا ، وكلنا يدعوه بالخال لانه خال زميلنا الدكتور حسن ، على طرق باب الدار في وقت متأخر سائلا ايانا بادب جم وقور أن نقلل صخبنا كي يستطيع أن ينام بقية الليل .

لا تزال ردهة النسائية دون طبيب خافر فلم يكتمل نصاب الاطباء المقيمين الجدد بعد .. نقتسم نحن القلة من الموجودين خفاراتها .

في اول ليلة لي هناك .. كانت الحالات عديدة ..
.. نزف رحمي شديد لاسقاط غير مكتمل يستدعى عملية لجرف بطانة الرحم .
..نعيمة الشابة الجميلة السمراء كانت الى جانبي هذه المرة بدلا من المضمد الاقدم المخضرم ابو جاسم ..
لقد كانت نعم العون حقاً
.. مع طاولة الادوات الطبية اللازمة وهي تقف الى جانبي في غرفة عمليات الردهة ، أجريت اول عملية نسائية في حياتي الطبية .. كان جرف البطانة الرحمية ناجحا تماما .. توقف النزف الدموي المهدد للحياة بعده تماما
.. لم نسترح إلا قليلا لتدخل حالة ولادة مستعصية .. مقعد الجنين هو المتقدم في فتحة المهبل ..
.. نعيمة تكرر وتشير باصبعها ..
-قليلا الى اليمين دكتور .. دكتور اسحب أكثر .. اليك المقص واقطع العجان جانب المهبل الى اليسار، اعلى فتحة الشرج بثلاثة اصابع .. ها قد ظهر الجسد .. دوّره الى اليسار قليلا .. الى اليمين قليلا .. ، ..
قلبت الطفل الوليد المغطى بالشحوم والسوائل والدم ممسكا به من كاحليه .. ضربت بكفي على ظهره .. اطلق اول صرخة بكاء في حياته (وليس آخرها) .. تماسكتُ كي لا ابكي انفعالا .. تذكرتُ زميلتي الروسية في السنة الخامسة وهي تجهش بالبكاء العنيف عند خروج اول طفل من رحم امه ونحن نتابع اول ولادة نشهدها في المستشفى التعليمي الكبير .
..حالة من حالات الارجاج الشديد (eclampsia) ..
..هيّـأت نعيمة الغرفة المظلمة .. تم زرق المراة الحامل المتشنجة بعقار للاسترخاء ، ومخفّض للضغط ، ومادة مدررة وتم وضعها بحذرورفق شديدين فوق السرير .
ما أن حاولنا ان نستريح قليلا من العناء آخر الليل ، حتى أُدخـلت طفلة في الثانية عشرة من العمر بتمزق مهبلي ونزف شديد .
..طفلة عروس في ليلة دخلتها .
.. وقفت نعيمة من جديد الى جانبي في غرفة عمليات الردهة النسائية .. ناولتني مقرص الشرايين .. " إقرصْ على منطقة النزف اسفل المهبل ! " .. " جيد ! " .." وعلى الآخر اعلاه !" .. .. " الآن وبعد أن خف النزف .. ابدء بخياطة الانسجة الممزقة ! " ..، ..
اوشك الفجر أن يجهجر ..جلست لاستريح في غرفة الطبيبات بينما كانت نعيمة تعد الشاي .. جلبته مع بضع قطع من البسكويت ..
..ونحن نسترخي على الكنبات الواسعة
وبعد ان نعمنا ببعض الراحة والاسترخاء .. قالت والبسمة على شفتيها :
-هل تعلم يا دكتور باننا –نحن الممرضات- عقدنا اول أمس اجتماعنا الدوري الذي يجري بعد قدوم كل دورة جديدة من الاطباء المقيمين ، وقد حُددت حصة كل ممرضة فينا – بالتفاهم والتشاور الودي – منطقة شباك صيدها المرمية على واحد بعينه من الوافدين الجدد .

.. لم يحصل سابقا اي تجاوز في المناطق المرسومة ، لذا كانت كلمة الشرف الجديدة كسابقاتها أن نلتزم حدودنا هذه.. وان لا تتجاوز اي واحدة منا على حقوق صيد صاحبتها ..
-وانا يا نعيمة كنت حصة شباك اي منكن ؟
-ومن تظن بربك ايها الدكتور العزيز ؟!!
(في دورتنا الحالية المكونة من تسعة اطباء افلحت شبكتان في صيدهما بزواج شرعي معلن .. الاول لعدنان الابيض الاشقر سليل عائلة غنية معروفة ، بزواجه الموفق السعيد بممرضة زنجية السواد نوبية الجمال وقد احتفلنا بعد عامين ، وهو عائد من وظيفته في الخليج ، بقدومه خلال زيارة للبصرة مع زوجته الحسناء وطفلهما الجميل خلاسي اللون مجعد الشعر .. والثاني بزواج تعس مليء بالمشاكل والصدام والمنتهي بطلاق باهض التكاليف)

كنت طبيبا خافرا في العيادة الخارجية للمرة الثانية منذ قدومي .
..أتت حالات بسيطة كثيرة ، واخرى اكثر اهمية بقليل .
قرابة الثامنة ليلا ، هرعتْ الى غرفتي إمرأة مرعوبة منشدهة ، تحمل فوق ذراعيها صبيا في الخامسة او السادسة من عمره ..يشهق فيصدر صفيرا حادا مع كل نفس عسير يأخذه ..وضعته على طاولة الفحص وصرخت باكية :
-دخيلك دكتور ..ابوس ايدك !
قفزتُ الى جانب الصبي المريض .. ضغطت بخافضة اللسان في فمه .. طبقة من غشاء ابيض تغطي مدخل البلعوم .. الطفل محموم وفي حالة من الاعياء الشديد ..الدفتريا دون ادنى شك ..
.. " هل ساقوم بشق اسفل العنق طولا واعلى الرغامة وأضع على الفور انبوبا، لافسح المجال لدخول الهواء الى الرئتين .. لكن لماذا وهنالك الآن ولحسن حظ المريض يتواجد الدكتور احمد مصطفى السلمان والطبيب المقيم الاقدم في الجراحة معه في جولة مسائية لهما في ردهته الجراحية .." .
.. لم ادع الوقت يمضي في طلب نقّالة ومضمد ليأخذاه معي الى ردهة الدكتور السلمان ..حملته على ذراعيّ وركضت كالمجنون تحت ابصار المضمدين والمعينين المستغربين وتوجهت عبر ساحة المستشفى الكبيرة فالممر الطويل المؤدي الى ردهة الدكتور السلمان ..
.. اقتحمتها فاتجهت صوبي انظار المرضى والدكتور السلمان والدكتور حسن والمضمدين بدهشة تكاد تكون رعبا ..
صرختُ وانا عند باب الردهة المشرع :
-دخيلك دكتور السلمان .. ارجوك !! .. حالة خنّاق شديدة حرجة !!
طلبَ من الدكتور حسن ان يرافقني الى صالة العمليات الكبرى .
.. دخلناها وانا ادعوا الله شبه باك أن يتمكن زميلي وجاري وصديقي حسن من انقاذه بشق الرغامة السريع .

.. طلب الدكتور حسن من ممرضة الجراحة وضع المريض نصف المختنق فوق طاولة العمليات واعداد الصالة ..
.. أخذ يغسل كفيه ، ويعيد غسلهما وينظف اطراف الاصابع بفرشاة تنظيف الكفين ..
-ارجوك اخي حسن ! ..ارجوك اسرع ! ..لا ضرورة في هذه اللحظة الحرجة للتقيد بوسائل التعقيم النمطية .. ارجوك !!
-اهدء يا فلاح ..اهدء كل شيء سيتم على ما يرام .
اندفعتُ الى صالة العمليات بحذائي المتسخ .. توجهت الى طاولة الادوات الجراحية مبعثرا العديد منها بحثا عن مشرط ..
أتاني صوت الممرضة :
-آسفا يا دكتور ..لقد توفي الصبي
جمدت في مكاني ..لم ار شيئا غير ضباب ازرق لفترة غير قصيرة ..ضياع في متاهة فراغ الروح والجسد ..
.. صحوت على من يهز كتفيّ برفق ..
-استهدي برحمانك يا صاحبي .. لقد بذلنا جهدنا يا صديقي ..كان حسن يقولها وهو يحاول سحبي برفق عن طاولة الصبي الممدد التي كنت اتشبث بها .

حبٌ في البصرة (2)

الفجر والنخيل بريشة كاتب السطور

تتضمن واجباتي لهذا الشهر مسؤولية السجن والسجناء ، بين المسؤوليات الاخرى في الردهات والخفارات .

.. معاينة الارزاق عند مطلع الصباح (لا استطيع رغم كل محاولاتي ، من وضع حد لتلاعب مقاوليها .. أشهد اجود المواد الغذائية تعرض امامي ، وارى اسوء الاطعمة تقدم للسجناء .. اشتكي الامر عند مدير السجن ، فيشتكي هو الاخر منهم ويعد بمراقبتهم بنفسه ..الحال هو الحال ..)

اقوم بجولتي الصباحية على العنابر والمرافق الصحية والمطبخ ، اعطي توجيهاتي قبل أن اجلس في غرفة طبيب السجن .. يجلب الحارس فنجان القهوة .. يُدخل بعدها (المرضى) المنتظرين واحدا تلو آلاخر ..

حالات مرضية طفيفة عند الاقلية .. تمارض عند الاغلبية .. اتعاطف مع الجميع وانا اتذكر ايام المواقف والمعتقلات والسجن المركزي في الخمسينات ..

..اكتب الوصفات.. ازرق بعض الحقن العضلية ..

-دَخَتورْ يرحمْ والديك إبرة من هاي اللي توجّعْ .. ..أُفـّيشْ هايْ تَمامْ يرحم موتاك .

.. يطلب البعض حمية غذائية خاصة (هربا من أكل السجن السيء) ..يحصل مني على حمية غذائية متميزة .. يطلب البعض الاخر إجازة مرضية عن عمل السجن الالزامي ..يحصل مني على اقصى إجازة ممنوحة ..

في إحدى الليالي أُستدعى لحالة مرضية مستعجلة ..

.. يقودني احد الحراس الى مكان جانبي من ساحة السجن .. يفتح الباب امامي ، ويضرب قدميه عند الباب المشرعة على الارض الخرسانية ، ويرفع ذراعه وكفه في تحية عسكرية يهتز لها جسده ، واهتز عجبا ..مدير السجن يجلس في صدر صالة طويلة وسيعة ، مفروشة بابسطة جميلة نظيفة ، صفت على جانبيها فرش وثيرة ووسائد يتكأ عليها رجال مهيبون في دشاديش وستر وصايات انيقة .. هنالك دلال للقهوة ..

" لابد انني قد وصلت الى مضارب بني حمدان "

.. أُلقي التحية على الجميع (أعلم لاحقا أن هذا الجمع الجميل المسترخي على الارائك ..) هم السجناء السياسيون بعثيون وشيوعيون ..

" الغريم وغريمه .. السجان وسجناءه جنبا الى جنب في هذه المضارب الفخمة .. لاعجب يا صاحبي .. إنك في مضارب البصرة المسالمة السمحة "

-من هو المريض فيكم ؟.. أسأل وانا لا ازال منشدها مما اراه .

..رجل ضخم مهيب في صاية وعباءة ثمينتين .. هز برأسه مبتسما ..

-تفضل دكتور .. قالها وهو ينهض عن جلسته واقفا..

.. صافحني بحرارة وطلب مني الجلوس الى جواره على الفراش الوثير ..

-فنجان قهوة دكتور؟ ..قالها مدير السجن من صدر الصالة بلطف كبير .

- اشكرك .. سوف اقوم بفحص المريض اولا بعد إذنك .
أخرجت دفترا صغيرا وقلما من الحقيبة ..
-الاسم الكريم ؟
-حافظ أحمد .
- العمر ؟
- واحد واربعون .
- مالذي تشكو منه ؟
صداع ..تمهل قليلا قبل أن يضيف ، .. ألم في الجنب الايمن .
طلبت منه التجرد من بعض ملابسه .
وضعت المحرار في فمه ..تلمست نبضه ..وضعت خافضة اللسان في فمه ..قست ضغطه ..تسمعت رئتيه شهيقاوزفير وسعالا .. القلب ودقاته ..
(المريض) .. لا تفارق الابتسامة شفتيه في كل مراحل الفحص ، طلبت منه الاستلقاء وقمت بتلمس حواشي الكبد والطحال وبقية اعضاء البطن ..
-كل شيء على مايرام سيد حافظ .. لابد وانه ارهاق عصبي او شي طفيف مشابه .
جلس وارتدى ملابسه .. نظر اليّ وتوسعت ابتسامته ..
-اعذرني ، بل اعذرنا جميعا دكتور .. لقد تآمرنا مع ابي العباس (اشار برأسه الى مدير السجن) ، كي نتعرف عليك ..أنت ابن الحبيب ..أنت ابن من قال فينا :

" سلامٌ على حاقدٍ ثائرِ على لاحبٍ من دمٍ سائرِ
يَخِبُ ويعلمُ أن الطريقْ لابد مُفضٍ الى آخرِ
كأن بقايا دمِ السابقين ماضٍ يُمهدُ للحاضرِ
وليسَ على خاشعٍ خانعٍ مقيمٍ على ذلهِ صابرِ
عفا الدهرُ عن طَلَلٍ داثرٍ وعن مَغنمٍ كاسدٍ بائرِ
يَغُلُّ يد الشعبِ عن أن تُمدّ لكسرِ يدِ الحاكمِ الجائرِ
ويأمرهُ أن يقرَّ النزول على إمرةِ الفاسقِ الفاجرِ
سلامٌ على مُثقَلٍ بالحديد ويشمخُ كالقائد الظافرِ
كأن القيودَ على معصميه مفاتيح مستقبلٍ باهرِ
أقول لِمُلقىً بتلك الجباب هزوءٍ باهوالها ساخرِ
سميرَ الأذى والظلامِ الرهيب خلا الحيُ بعدكَ من سامرِ
سَلمتَ فإنكِ في ناظري فإنْ غبتَ عنهُ ففي خاطري

" اين هم المثقلون بالحديد ..بالقيود ..المرمين بالجباب.. اين هو سمير الاذى والظلام الرهيب ؟! نحن في مضارب سمّار بني حمدان المترفة النّيرة .. "
أطلعته على تواجدي عند القاءه القصيدة في نادي المحامين في البراضعية ، وانا ابن الرابعة عشرة ، وكيف أن القصيدة وتفاعل الشباب المثقف من الحضور كان مظاهرة صاخبة ، ضجت فيها القاعة بالهتافات والتصفيق (بالطبع لم أطلعه على هتاف أختي الكبرى أميرة ، وكانت في مطلع شبابها آنذاك ، حين قفزت وقد أخذها الحماس والانفعال ، واقفة فوق احد المقاعد لتهتف بصوت عال " يعيش أبويَّ ! "..)
.

سجين آخر ينشد مقاطع من دجلة الخير ..ثالث يتغنى بمختارات من (يا أم عوفٍ) ..انهمرت الاسئله كالمطر ..
..اين يعيش الآن ؟.. كيف يقضي اوقاته هناك ؟ ..من يقابل ؟.. ماهي آخر قصائده ؟ .. أما آن له ان يعود !..متى تتوقع ذلك ؟
.. كان للجلسة ان تستمر حتى ساعة متأخرة من الليل لولا اعتذاري بأن هنالك واجبات تنتظرني في الردهة الخافرة .
- زرنا يا دكتور بين الحين والآخر !
- لقد زرت مكانكم هذا مرارا في الخمسينات ..
- ستختلف زياراتك لنا ..ستكون جلسة للشعر مع فنجان قهوة .

التحقت بالمستشفى طبيبتان مقيمتان .. جنان ومريم .. سكنتا في دار المقيمات المجاور لدارنا .
..اهتممنا بظهرنا اكثر من ذي قبل .

لا يزال عددنا لا يكفي ليلتزم كل بردهتة ..
كنت الطبيب الخافر في ردهة الدكتور سامي بني للاطفال ..حين هرعت أم مرعوبة شبه مجنونة ..بملابس لا تكاد تستر جسدها ، حملت فوق يديها طفلة في الخامسة من العمر متوزمة ، محمرّة الوجه .. تسيل رغوة حليبية من فمها ، مع عسر شديد في التنفس . ..وضعتها الأم على سرير الفحص .. أخذت الأم تخمش وجهها باظافرها لتدميه ..وتنظر اليّ مستنجدة دون كلمة ..تحاول ان تقول شيئا فلا يصدر عنها الا فحيحا .
استرعى انتباهي على الفور ازرقاق شفتي الطفلة .. تفحصت اصابعها واظفارها ..هنالك ازرقاق ملحوظ ايضا ..فتحتُ باصبعيّ جفنيها .. بؤبؤ ابري التضيق .. الصدر مليئ بخرخشة الوذمة الرئوية ..دقات القلب متباطئة ..
دخل رجل في اواخر العشرينات ..مضطربا ، مبعثر الحواس ..قدّرت أنه والد الطفلة
-خبرني وبسرعة وباختصار ..ما الذي حصل للطفلة ؟ ..
-لقد كان الاطفال يستحمون مع والدتهم في حمام البيت ..وحصل ما تراه يا دكتور .
-اسمع يا رجل ! ..قل الحقيقة !..اني اشك بحالة تسمم ، مالم تخبرني الصدق فورا ساعتبرها قضية جنائية واستدعي الشرطة للتحقيق ..قلت بغضب مهددا .
لم تكن إلا لحظة تردد قصيرة ليردّ بعدها، وهو ينظر الى زوجته بين الحين والآخر :
-لقد ادخلتْ زوجتي اطفالي الثلاثة الحمام واستعملت لغسل شعرهم مادة لقتل القمل كانت متوفرة لدينا في البيت ..
-ماهي هذه المادة ؟
- لا اعرف اسمها لكنها مادة من مبيدات الحشرات الزراعية ، وانا اعمل في هذا المجال .
طلبتُ منه الذهاب الى البيت باسرع ما يمكن وجلب علبة المبيدات التي استعملت .

.. قمت بالاتصال بالدكتور سامي بني واخبرته عن وجود حالة مستعجلة قد تتطلب وجوده ..
.. تفحصت الطفلة المريضة من جديد ..
"..تضيق ابري في بؤبؤ العين !..هنالك شيء في الجهاز العصبي المركزي هو السبب في هذا التضيق ! ..ماالذي يوسع حدقة العين ؟! الاتروبين..الاتروبين متوفر تحت يديّ في غرفة الفحص !.. الاب قد يتأخر لجلب المادة التي أدت لهذا التسمم ..وحتى الطبيب الاستشاري بني قد يتأخر ..لن أنتظر ..لن أنتظر !! "
زرقتُ الطفلة بالاتروبين ..لا تحسن في وضع البؤبوء ، ولا في الاحتقان والوذمة الرئوية ..ربع ساعة وقمت بزرقها جرعة ثانية .. وثالثة .. ورابعة ..
.. البؤبؤ يتوسع قليلا .. دقات القلب تتحسن بعض الشيء .. اواصل الزرق ..
حضر والد الطفلة وبيده علبة معدنية ..سارعت الى قراءة ماكتب على ظهرها :
(في حالة التسمم ، المادة المضادة هي الاتروبين) !
..تفاءلت خيرا ودعوت الله وانا اواصل زرق الاتروبين ..
حضر رجل آخر- هوخال المريضة- يحمل على يديه طفلا جميلا كالفراشة ، في الثانية من عمره ، ممتليء الجسم ابيض البشرة ، بشعر مفلفل اشقر ، بعينين بزرقة البحر..نفس الاعراض ولكن بصورة اشد بكثير ..
..شبه اختناق (تشنج في الرغامة) وعسر تنفس شديد مع صفير في الشهيق والزفير ورغوة حليبية تسيل على جانبي فمه ووذمة رئوية ..إنه يغرق بسوائله .
..لم انتظر قدوم الدكتور بني .. رفعت سماعة التلفون واتصلت بصديقي وزميلي من ايامي في كلية الطب ببغداد ، اخصائي التخدير الدكتور بدروس ديكران ورجوته أن يقدم على عجل لحالة تستدعي وضع انبوبة في الرغامة عن طريق الفم ..
.. يحضر بدروس ..يدخل انبوبة في الرغامة ..
..يترك سامي بني عيادته ويأتي على عجل ..
ها قد أحضروا صبيا في الثالثة بحالة حرجة تشبه طفل السنتين تلك الفراشة الملوعة ..
..قام الدكتور بني بمواصلة الزرق بالاتروبين للطفلة الاولى (ذات الخمس سنوات) ..وكذلك الطفلين الاخرين الحرجين ..
فقدنا الطفل ذي الثلاث سنوات عند منتصف الليل ..
طفل السنتين ، تلك الفراشة الجميلة ، لايزال وضعه حرجا ..نجلس نحن الثلاثة بجواره.. يسارع الدكتور بني بين الحين والآخر بمحاولة لايقاف مظاهر العجز الكلوي والكبدي بالادوية .. يستمر بدروس بسحب السوائل الراشحة في الرغامة والرئتين ..
..عند الفجر رفرفت الفراشة الجميلة وطارت في مجاهل الابدية .
قمنا حزانا متعبين منكسي الرؤوس ..توجهنا لتفقد الطفلة التي كانت اول من استقبلها في الردهة.. بدت عليها بعض علائم التحسن .. لقد زال الخطر .
.. قبل ان يخرج الدكتور سامي بني من ردهته ..امسك بكتفيّ .. نظر بعينيه العسليتين المجهدتين الى عينيّ الاكثر إجهادا :

-لولا مسارعتك بالتدخل قبل أن نحضر ، لما عاشت هذه المريضة ايضا ..لقد اعطيتها عمرا جديدا .
..مرت سنين كثيرة ، لالتقي بالدكتور سامي بني ليحدثني : " ما من دورة اطباء جديدة تأتي الى ردهتي ، حتى اضرب بك مثلا على استعمال التقدير الشخصي السريع في الحالات الحرجة ، حتى وإن كنت في اول طريقك الطبي .. "
..في مطلع الثمانينات تحضر (سهام) طفلة التسمم المعنية ، مع والدتها ، الى عيادتي في البصرة لتدعواني لحضور حفل عقد قرانها ..

اليوم هو الاربعاء ..ردهة الدكتور يعقوب بني للامراض الباطنية هي الخافرة ..
..شحاذو البصرة وجياعها يتوافدون باعداد غير قليلة ، آملين عبر مظاهر الامراض المزمنة التي يعانونها ، عدا مرض جوعهم الازلي ، أن يسعفهم المرض وطبيب العيادة الخارجية الخافر ، في دخول ردهة النعيم الموقت ، ردهة الدكتور يعقوب بني
..لقد كنت انا ذلك الطبيب الذي تنعقد عليه الآمال ..كنت الطبيب الخافر لذلك اليوم .
هولاء الجياع ، مرضى كانوا أم متمارضين ، يعرفون تمام المعرفة طيبة الدكتور يعقوب بني اللامتناهية ..هذا الانسان العظيم واسع العلم والنبل ..
.. عيادته متاحة مجانا لفقراء البصرة وشحاذيها ، وردهته تحظى برعاية لهم لا مثيل لها حتى عند الاطباء الاختصاصيين الآخرين البارعين في اختصاصاتهم ورعايتهم .
..(عبدْ عونْ) الشحاذ المترهل المتوزم ، الذي اراه في مكانه الثابت من جسر سوق المغايز ، كان اول القادمين الى العيادة الخارجية ، وليست هي المرة الاولى التي استقبله فيها أثناء خفاراتي ..
.. نفس الاعراض كسابقاتها ، مظاهر ارتفاع ضغط الدم وعجز القلب مع الوذمة الرئوية ..
..لابد من ادخاله ردهة الدكتور يعقوب ، حتى وإن كنت اعرف انه يستحضرهذه الاعراض ، بأن يلتهم حفنة كبيرة من الملح قبل قدومه بساعات .. فينتفخ ويغرق بسوائله .
..احيله الى الردهة فورا وسيتكفل الدكتور نعمان السامرائي ، الخافر هناك ، باسعافه بمركبات الديجتال ، وادوية الضغط ، والمدررات ، وانبوبة الاوكسجين ، وانا شبه واثق أنه سيفلح في انقاذه من هذه الازمة المتكررة ، مثلما افلح في سابقاتها .
.. سيحظى عبد عون ولمدة اسبوع على الاقل بمكان للنوم غير رصيف الجسر الاسفلتي وبسرير مريح بأغطية نظيفة ، وافطار بعد زوال الخطر عند الصباح ..
..قطعة من الجبن ، ومربى المشمش ، وقطعة من الزبدة ، ورغيفا من الخبز وقدحا من الشاي بالحليب .. يطلب عبد عون مزيدا ، فلا ترد ممرضة الردهة طلبه ..ينعم بابتسامة الدكتور يعقوب وكلمته الطيبة اثناء الفحص الصباحي .. ثم يأتي الغداء بصحن الشوربة ومرق ورز وخبز .. في المساء سينعم بوجبة عشاء دافئة ومماز احات الدكتور نعمان ، الحقن العضلية وبعض الادوية المرة سيجد فيها لذة الوخز وعسل المرارة .

.. ادخلتُ آخرين من نفس شاكلته ، حتى ولو كانت حالاتهم لا تستدعي بالضرورة الادخال العاجل ، تاركا بضعة اسرة في الردهة للحالات الطارئة الحرجة الحقيقية المتوقعة.
حقوق الشحاذين والجياع بادخالهم محفوظة عندي .. اسبوع من جنة الشبع ونعيم الراحة والتعامل الانساني محفوظة لدى الدكتور العظيم يعقوب بني في ردهته .

ها قد قدم (موزان) الى ردهتي الخافرة ..ردهة الدكتور النعمة .
موزان ملّاك بساتين صغيرة في منطقة البوارين ، في مطلع الخمسينات من عمره ، مصاب بتضخم القلب نتيجة ضغطه الدموي المرتفع ..الدكتور النعمة طبيبه المتابع في العيادة والمستشفى ..يصاب بعجز القلب والوذمة الرئوية بين الحين والآخر ..
..يدخل الى الردهة وهو بين الحياة والموت ، فاسارع اليه ، فمن زرق بمركبات الديجتال الى مخفّضات الضغط ، فالمدررات وقناني الاوكسجين ..
..تزول ازمته عند الفجر .
حين اعود الى الردهة بعد استراحة قصيرة في الدار عند مطلع الصباح ، اجد موزان ، وكعهدي به في المرات السابقة ، جالسا متكئا على استراحة السرير المرتفعة وعلى لوح الطعام امامه قنينة عطر شرقي صغيرة ، وقنينة زيت للشعر ، ومرآة صغيرة .. يسرّح شعره الاسود المزيت ، فارقا اياه على جانبي رأسه ، متأملا وجهه الاسمر الممتليء وعينيه المكحلتين وتسريحته ، يميل برأسه قليلا شمالا ويمينا ، .. تلوح بسمة اعجاب فوق شفتيه ، وزهوٌ فوق ملامح وجهه ..
..يأخذ بدندنة اغنية ريفية بصوت خافت ، غامزا بعينه لمساعدة الممرضة الجديدة المتدربة ..
-اللهْ!! اللهْ.. فدوةْ أروحْ لهلْ الوجه الورِدْ ..بعدْ رويحتي ما تجيبيلي بإيديج الحلوه شوّية ميّه .
..يُخرج من كيس يضعه تحت وسادته عقودا حجرية ملونة واسورة فضية ظريفة وقنينتي عطر شرقي صغيرتين .. يبدأ بمغازلة الممرضات ومساعداتهن المتدربات ثم يمنحهن هذه الهدية او تلك ..ينظر يمينا وشمالا قبل أن يقرص واحدة من خدها او من حاشية خصرها .
-صباح الخير موزان.. اللْيشوفَكْ اليوم مايصدْكَـ ذاكْ اللـيْ شفناه البْارحهْ ..
..احييه وابدء بقياس ضغطه وتسمّع قلبه ورئتيه وارى شدة الوذمة عند كاحليه .
- كَـلي موزان ما تِـزَوَجِـتْ بهلْ جم شهرْ الفاتَنْ
-موعيبْ دَخَتورْ ، انا ابوك يا ريسان !! ليشْ آنَـه موْ رِجّالْ !!
-ومِنوُ هايْ المحظوظةْ الجديدة ؟
-صْبيّـه والله وتضوي ضوي يادختور ..حْليوّهْ وبِنتْ العشرين .
-وهاي شكد رقمه ؟
- رقم سبعة ,, وعيني علَ الثامنه .
- شلون يصير والشرع يكول اربعة.

-تروح القديمة وتجي الرابعة الجديدة .. القديمات إلهنْ بيتهنْ ومصروفهنْ وكل ما يلزمهنْ .
- ومينْ تْدْبّـرْ فلوس العُروس الجديدة ؟
-ابيعْ جِريبْ لو جِـريبين من بساتيني وادفع المهر والشْبكةْ .. بربكْ دَخَتـورْ بستانْ بنخلات يابسهْ لو عُـروسْ ريانة تنْطيكْ عمرْ جديدْ ؟!
-لا والله عُروس ريانة يا موزان .
قبل أن يغادر موزان الردهة وقد اجتاز بسلام ازمته الصحية ، دعاني لزيارة بساتينه وزوجاته في البوارين ..وعدته بتلبية الدعوة الكريمة قريبا .

كنت قد اكملت جولتي الصباحية حول اسرة المرضى .. كتبت تشخيصي للمرضى الجدد في الطبلات المعلقة على مقدمة الاسرة وتفاصيل تطور حالات المرضى خلال الليلة الفائتة والادوية والتعليمات للممرضات وللممرض الاقدم ونوع الحمية الغذائية للبعض .. اكملت جولتي الثانية مع استاذي ، اخصائي الردهة الدكتور مصطفى النعمة ، ليوافق او ليصحح ما كتبت بعد فحصه لهذا المريض او ذاك ...
.غادر الدكتور النعمة الردهة .. بدأت اراقب الادوية الموزعة او تلك التي ستوزع لاحقا بمواعيدها خلال اليوم ..
..اخبرتني الممرضة زهور بأن الدكتور مصطفى الخضار قد اتصل تليفونيا اثناء جولة المرضى وطلب حضوري الى غرفة الادارة .
.. حييتُ الدكتور الخضار تحية الصباح ..
-دكتور فلاح ، لقد اتصل مدير السجن ليخبرني بضرورة حضور طبيب السجن المكلف بعد منتصف هذه الليلة لمتابعة عملية الاعدام هناك .. وحسب علمي انك انت طبيب السجن المكلف لهذا الشهر .
-معذرة ابا رافد ..لن احضر عملية الاعدام .
-هذه قوانين الدولة ، إنهاليست قوانيني ولا قوانين الصحة ، حتى ولا قوانين ادارة السجن ..يجب حضور طبيب مراسيم الاعدام ..أنا مثلك اكره هذا الامر ، ولكن علينا اتباع قوانين الدولة ..اضف الى ذلك إنه مجرم عات قام بجريمة قتل بشعة لاسرة بكاملها .
-معذرة والف معذرة ابا رافد ..لن احضر عملية اعدام .
-ستعرض نفسك الى عقوبة ادارية !!
-عقوبتي الاشد هو زعلك مني لا العقوبة الادارية .
-فكّـرْ مليا قبل أن تقدم على موقف غير سليم ! ..لديك متسع من الوقت .
غادرت الغرفة مهموما ، لإزعاجي استاذي، هذا الانسان الكبير الطيب القلب .
.. ما أن خرجت من رواق الادارة الى ضوء ساحة المستشفى المشرق ، وهواءها الصباحي المنعش ، حتى ومضت خاطرة كالبرق كشفت ظلامات همومي ..
.. عدت مسرعا شبه راكض الى غرفة المدير ..
.. نقرت على الباب مستأذنا .. دخلت وعلامات الفرح الطاغي على وجهي والتي احسها الدكتور الخضار فابتسم ..

-يبدو انك راجعت فكرك سريعا ..ونِعمَ مافعلت .
-ما هو تاريخ اليوم استاذي ابا رافد ؟!
-الثلاثون من حزيران ، اجاب بدهشة .
-الذهاب الى السجن وحضور عملية الشنق هو بعد منتصف الليل اليس كذلك ؟! ..
اي أن تأريخ ذلك سيكون هو الاول من تموز لا الثلاثين من حزيران ..
..لن أكون أنا في تموز طبيب السجن المكلف .
حضر عملية الاعدام ، طبيب السجن المكلف بعدي في الجدول ، زميلي وصديقي الدكتور نافع جنو .

مقام خليفة بن علي في البصرة بريشة كاتب السطور

(3) حبٌ للبصرة

مدينة تستعيد صور ماضيها من على النطع

ألا هل تُـرجعُ الاحلام
ما كُـحلـت به المُـقَـلُ
.. ثم يبكي ويجفف دمع عينيه بمنديله .

صباح مشرق جميل .. وهل تغرب شموس البصرة !! ..الريح شمالية .
أمام بوابة المستشفى ، وعلى جانب حائط السجن المركزي المقابل ، تصطف العديد من عربات الخيل وسيارات الاجرة للعبرية (الانفار) و بائعات الخبز والفاكهة وبعض الخضار .
..افضل السير .. عبر (البصرة القديمة) متوجها الى العشار .
حين اصل ساحة باب الزبير ، انعطف شمالا لادخل احد الازقة الضيقة المؤدية الى (محلة الباشا) ..
.. تظلل رأسي شناشيل البيوتات العريقة بمشربياتها وشبابيكها المزخرفة .. تتقارب من الجهتين فتكاد تصبح سقفا متعرجا للزقاق الضيق.. تهب نسمة صباحية عليلة .
اجيل البصر عند نهاية الزقاق فتطل عليّ الشناشيل بخشبها الهندي العاتم وشبابيكها ومشربياتها وزجاجها الملون المتلامع مع اشعة الشمس ..على ضفتي نهر العشار جسور خشبية عديدة .
.. اعبر الجسر امامي .. اقف مبهورا عند منتصفه وانا ارى النهر المتعرج بين هذه البيوتات العتيقة التي تحكي خلف شناشيلها ومشربياتها قصص الف ليلة وليلة ومرتع السندباد وهو يعد نفسه لابحار جديد .
..اتابع هذا التلامع الفيروزي ، العقيقي ، المرجاني على زجاج شبابيكها والنور الباهر فوقها ، والظلال العاتمة بين مشربياتها وفي الازقة المنحدرة صوب النهر من الجانبين ..
انا على رصيف الضفة الشمالية للنهر اتهادى متوجها الى بيت الفنان محمد راضي .
خلال الاشهر التي مضت على تواجدي في البصرة ، انعقدت صداقات وصلات ، بعضها متين ومشوّق مع اناس من طبقات واذواق متباينة ، وذلك عبر جولاتي في مرافق البصرة ومعالمها وعبر خفارات العيادة الخارجية والعمل الصباحي والليلي في ردهات المستشفى المختلفة ..(موزان) العتيد بزوجاته المتعددة ، (فرج) فلاح بستان الكويتي الاعمى (بستان فهد الفليج لو لم تخني الذاكرة) ، (فؤاد) عازف العود في ملهى الفارابي ، (احمد) زوج بنت الحجي ، راقصة ملهى الوطني ، أمل ذو النون ايوب صديق الصبى الحبيب والاستاذ المساعد في جامعة البصرة وآخرون كثيرون
.. يفتح محمد راضي لي باب بيته الشناشيلي الكبير .. ادخل الى (حوش) الدار المبلطة بالطابوق الفرشي العريض ، تحيط بها من الجوانب الاربعة غرف وصالات جلوس .. شرفة مربعة في الطابق الثاني تقوم على أعمدة من الخشب الهندي العاتم بتيجان مزخرفة ، وراءها غرف عديدة بشبابيك يعلوها زجاج ملون تطل على الساحة الوسيعة .. يبان القدم والتهالك على بعض اجزاء الدار .

..يسكن محمد راضي وعائلته ، واخوه وعائلته ، هذا البيت الوسيع ..يشكو محمد من الجرذان المتسللة من النهر الملاصق .. يعقّب " لو كانت جيوش هولاكو من الجرذان تغزو هذا البيت فلن انسحب وابدل مواقعي الى غيره " .
خلال تناولنا الشاي يعرض عليّ بعض اعماله المائية التي تحكي، وبمحبة ملونة ، الازقة المتعرجة والبيوتات العريقة بشناشيلها العائمة فوق بقع النور والعتمة ..
اعرف عنه مسبقا ، انه أحد اقرب الاصدقاء للشاعر الرائع البريكان ، الساكن غير بعيد عنه ، لكني اعرف في الوقت ذاته أن البريكان مختبيء في صومعة عزلته الشعرية ..
..اقاوم رغبتي الشديدة وامتنع عن أختراق جدران اعتكافه .
.. يخرج محمد معي في بعض جولتي ..
-على اليسار وكما ترى حشد السعاة والعرضحلجية (كتاب العرائض) والمعقبين ، وأناس كثر آخرون معهم وبينهم .. إنها بناية محكمة البصرة .
التفتْ.. لا تختلف المحكمة في بنايتها عن بيوتات الف ليلة السندبادية المحيطة .
.. نتحرك قليلا الى اليمين ، تطل علينا داران ضخمان لا تزال معالم العز القديمة عالقة باجزائهما ..
-هذا بيت المنديل القديم ! .. وهذا الذي الى جواره –وهو خال من ساكنيه- هو بيت الوالي العثماني ، وفي النية احالته الى متحف للبصرة القديمة .. يواصل محمد راضي تعريفي ببعض المعالم ..
.. يعود معي الى ساحة باب الزبير .. نعبرها متوجهين الى السوق الذي المحه عن بعد .
-دعني اريك صرحا جميلا .. هذا الذي على يميننا هو قصر عبد القادر باش اعيان وبه اكبر مكتبة تراثية في البصرة ، بل ولعلها الاكبر في العراق ..
قبل ان يغادرني كان لنا موعد آخر لنلتقي وسيكون بصحبتنا الفنانون التشكيليون فاروق حسن وسلمان البصري ومنقذ الشريدة (لو كان في حالة صحو) .
واصلت سيري لاتجول في سوق البصرة القديمة بسلسلة دكاكين عطاريها باعشابهم ومساحيق حبوبهم الطبية .. لا يزال العديد من البصريين يقصدونها بدلا من عيادات الاطباء ، يليها سوق التوابل فباعة الخضر والسماكة ..
.. دكاكين عدة ونسوة يفترشن الارض بسلالهن ..هنا تجد انواعا لا تجدها في اماكن اخرى كالخرّيط والبمبر والجوافة والسمك المجفف والسمك المجفور (ذو الرائحة العطنة) وافاعي البحر والروبيان الضخم وبالطبع سمك الصبور الذي يعشقه البصريون والذي ارتعب من اشواكه اثناء تناوله (الإلزامي) وانا في ضيافة بيت من بيوتاتها) ، ثم .ياتي سوق الخراف والماعز والدجاج والبط والبش والخضيري ودجاج الماء .
انعطف عند نهاية السوق الى ازقة ضيقة .. أجد عند بعض عتبات دورها نسوة مبهرجات بمكياج صارخ بثياب قصيرة ..ينظرن ويبتسمن داعين اياك للدخول ، دون ان يحركن شفاهن ..هنالك دور اخرى مجاورة او قريبة ، بنساء ورجال ذوي مظهر محتشم .. العهر والطهر جنبا الى جنب ..كل يسعى على رزقه دون ايذاء .

اخرج الى شارع بشار وعلى جانبيه خليط من دور عتيقة شبه خربة واخرى حديثة البناء ..انعطف يسارا لاعود الى رصيف شط العشار المظلل باشجار اليوكاليبتوس .. اواصل سيري صوب مركز المدينة .
.. اتوقف عند تمثال الخليل بن أحمد البرونزي العاتم عند مدخل شارع الفراهيدي (او ما يسميه العامة شارع السعدي لوجود مستشفى الجراح محمد حسين السعدي عند مدخله) ..
..الخليل بن أحمد في لحظة تأمل عميق .. لقد بث النحات نداء كاظم الروح في المعدن الصلب ..بعد بضع سنين سيبدع نداء مرة اخرى في تمثال السياب منتصبا فوق ضفاف شط العرب .
الاشجار على رصيفي الشارع النظيف بممريه الممتد حتى نهر الخورة بجزرة وسطية مزروعة باشجار الدفلى بورودها البيضاء والبنفسجية .. حركة سير المركبات قليلة .. البيوتات الحديثة تزدان بحدائق امامية .
..اواصل سيري .. دائرة الاطفائية بسياراتها المتلامعة الحمراء بسلالمها وخراطيم مياهها على الجانبين .. الناقوس البرونزي في المقدمة .
.. سينما الحمراء الجديدة الشتوية الآن على يميني .. لوح الدعاية الكبير فوق مدخلها يحمل صورة فلم نداء البراري Cry Of The Wild ..
بعد أن تجاوزت جسورا انيقة عديدة فوق شط العشار ، اصل الى جسر سوق المغايز (او سوق الهنود) ..على يمينه عمارة حنا الشيخ الحديثة بممري سوقها من دكاكين المصوغات الذهبية والفضية والعطور والاقمشة وباعة الاحذية ..هنالك دكان فخم لصباغي الاحذية .. اجتاز الجسر صوب سوق الهنود لاجد (عبد عون) ، مزمن ردهة يعقوب بني وشحاذ الجسر المقيم .. أضع حفنة من العملة المعدنية في صحنه القصديري ..يرفع راسه ويتعرف عليّ
-شكراً دكتور ..يحفظك الله .
ما أن اجتاز بضع خطوات من سوق الهنود المكتض بالمتسوقين والعابرين ، حتى اسمع ألحان ناي واهازيج للاطفال..اراهم يتراقصون ويصفقون وراء (تومان) الاسمر النحيف الضاحك الوجه ابدا ..أحدهم يحمل اعلانا لسينما الوطني.. كاوبوي يمتطي حصانه ومسدسان يتهدلان على جنبيه.. (من أجل حفنة من الدولارات) ..
..تومان يضع الناي على احدى فتحتي منخريه عازفا الحانا شائعة وهو يتقافز بمرح ويدور من حين لآخر أمام جوقة الاطفال ..
..اقف جانبا لأتأمل التظاهرة المرحة وهي تمر من امامي متجهة صوب سوق حنا الشيخ .
.. اعبر محلات العِدد و(الخردوات) ، وباعة الملابس الجاهزة والقرطاسية ودكاكين الاحذية ..عند نهاية السوق ارى بهرجة الوان التوابل وهي تتدرج في مساحتها الخشبية المحيطة .. اقف مجيلا البصر بهذا المهرجان اللوني مالئا صدري بعبق عطوره .
..اجتاز تقاطع السوق بالسوق الآخر منتقلا الى شارع الصيادلة (او سوق الصاغة) ..أتأمل البقرة الضخمة المعلقة فوق مدخل صيدلية المختار، وهي تهز رأسها وذيلها

وامامها علبة حليب نيدو .. محلات المصوغات على اليمين واليسار وبينها عيادات اطباء ... انعطف يمينا الى سوق الخضارة والسماكة .
.. عند المدخل يقف رجل أمام حصيرة كبيرة تكدّست فوقها مئات من اسماك الصبور وهو ينادى ..
-كل هل الكوم بدينار واحد ..كل هل السمج بدينار ..
(اعود من جولتي بعد ساعات فاجده يحشرج بصوته) :
-كل هل الكوم بربع دينار ..كل هل السمج بربع دينار
.. إنه موسم الصبور في شط العرب (تباع سمكة الصبور الواحدة في الثمانينات بثلاثة دنانير .. فيما لو تواجدت اصلا) .
.. اعبر سوق المقام ..الى المقام ذاته ، وهو جامع كبير متقادم ببوابات عباسية ضخمة مرصعة بمقاطع كروية نحاسية زخرفها الصدأ المتقادم .
.. مقهيان خشبيان كبيران يقومان فوق نهر العشار بدعائم خشبية ضخمة .. عشرات الشبابيك الطولية بتيجان زجاج ملون .. أنهما سفينتان اسطوريتان تستعدان للابحار عبر المدخل القريب لشط العشار على شط العرب .
.. أدخل الى المقهى الاقرب الى جسر المقام وشط العرب .. اليوم هو الجمعة والمقهى مزدحم بخليط من غتر وعباءات وصايات ودشاديش وعمم وسدارات فيصلية .
.. ياتيني استكان (اللومي حامض) .. ارتشفه وانا اجول ببصري بسعادة غامرة بين الجالسين على التخوت والكراسي ..هذان (افنديان) في حوار حار ..أثنان يلعبان النرد .. شابان يلعبان الشطرنج ويقف الى جانبيهما آخران يتابعان (المباراة) .. كهل بعقال ضخم مقصّب يدخن النارجيلة وهو منشغل الذهن .
.. اجتاز أسد بابل عند مدخل شارع الوطن ..انعطف يسارا .. امتار معدودة وانا الآن على رصيف شارع الكورنيش المشجر بالكالبتوسات الضخمة ..
.. مراكب هندية عديدة ترسو على الضفة الغربية التي اسير على كورنيشها .. اتملاها وانا اعبرها ببطء كبير ..بحار يعبر (الدقل) الخلفي للمركب الى قفص مربع مسيج ..يبان جزءه العلوي من فوق السياج ..يختفي نزولا ..يسقط من اسفل القفص حبل بدلو صغير الى مياه الشط .. يُسحب الحبل والدلو .. تتساقط دفعات من الماء من اسفل المقصورة الصغيرة ..أضحك .. صاحبنا يقضي حاجته تحت قبة السماء الصافية وفوق موجات الشط الخفيفة .."لابد أنك سعيد الآن يا صاحبي الهندي" ..استعيد بنشوة اللحن "يا مركب الهندي يابو دقلين .. يا ليتني كنت ربانك.." .
صف من المقاهي الصيفية المكشوفة على جانب الرصيف تشرف فوق مياه النهر العظيم ..المقاهي كلها مزدحمة بالرواد .. جانب منها مخصص للعوائل..
..على الرصيف مئات السابلة يتهادون بمشيتهم .. عوائل مع اطفالها ..ازواج من الشابات السافرات ..نساء بعباءات مهدلة من على الكتفين ..شاب وشابة يسيران شبه ملتصقين ، هو يهمس شيئا في اذنها وهي تحمر خجلا .. زوج آخر غير بعيد عنهما يسيران على مهل ، هو يتحدث دون أن يرفع بصره اليها وهي مطرقة برأسها تصغي بإمعان .. " يا للجمال!! .. عشاق جامعيون !! " .. اتجاوزهما ..

.. هنالك باخرة كبيرة وسط النهر ، تلتصق على أحد جانبيها ابلام ومهيّلات وجنائب ودوّبْ ..البحارة منهمكون بتفريغ حمولاتهم من الاعالي ، ونوتية القوارب يتلقونها من تحت.. قارب يحمل فاكهة وقناني مشروبات مبردة وسندويجات وعلب تمر ومأكولات اخرى .. يساوم البحارة .. يستلم نقوده اولا ، ثم يناول المشتريات بسلة تتدلى اليه .

.. اصل الى نهاية شارع الكورنيش .. قلة من المارة فقط.. " ليلة الامس .. ليلة الجمعة ..حشد من المتنزهين بمختلف الاعمار ..باعة المشروبات الباردة والدوندرمة والحَب والمكسرات يتجولون بين المتنزهين بعرباتهم .. المقاهي مزينة بالمصابيح الملونة .. النهر يصخب بعشرات الابلام (العشارية) الانيقة وراكبيها من الرجال والنساء وهم يسترخون على الوسائد والافرشة المعدة في الجوانب والخلف من هذه القوارب .. منهم من يسرح ويتأمل اضواء المدينة من الضفة الغربية الى ظلال نخيل الضفة الاخرى المتكاثف ..منهم من يغني موالا .. آخرون ينسجمون في غناء جماعي وسيدة تهز اعطافها وسط القارب ..وهل نسيت (الكسلة)؟! قبل اشهر .. عيد نوروز ! ، امسيته وليله .. مهرجان حتى ولا مهرجان رأس السنة في البندقية "

..اعبر جسر البراضعية .. اصعد كورنيش النهر .. على يميني قصر بيت المنديل الجديد الفخم ، الى جواره قصر الذكير ..بضعة قصور أخرى ..بعض ساكنيها يجلسون في الشرفات .. المتنزهون وهم من جديد من طبقات متباينة في العلو او الدنو تتنزه باسترخاء ، معظمهم يقصد نهر السراجي القريب وقصرأغا جعفر (وكيل الشيخ خزعل أمير الاهواز سابقا) ذلك الصرح الفني الضخم بساحاته الواسعة المنحدرة الى النهر وشرفاته ونقوش اخشابه القديمة وحدائقه الغناء ..

(عند بداية الثمانينات قُطع الكورنيش ونهر السراجي وقصر أغا جعفر على المتنزهين ليصبح منطقة للقصور الرئاسية المخصصة للقائد (التاريخي والجغرافي المنتصر ابدا رغم هزائمه) .

اصل الى نهر السراجي وبدلا من أن انعطف يسارا الى قصرآغا جعفر ، أنعطف يمينا فأدخل في عمق بساتين السراجي .. بعد بضعة مئات من الامتار اقف بحيرة امام بيت صغير من طابق واحد مبنيّ بالطابوق العادي (لا العقاري) من غرفتين ومطبخ ..بشباكين تمتد فوقهما قضبان حديدية سوداء يطلان على نهر السراجي .

..هذا البيت الذي تأنف عائلة متوسطة الدخل سكناه هو (قصر استراحة العائلة المالكة) ، يأويها حين تأتي في زياراتها للبصرة .

..احسست بالجوع وقد قرب المساء .. معي ما يكفي مما تبقى من راتب الشهر ، فنحن في اوله ، لكي اتناول وجبتي في فندق البصرة (فندق المطار) في المعقل ، والذي آتي اليه بين الحين والآخر .

بعد تناول وجبتي في مطعم فندق المطار الفخم ، جلست في الصالة الواسعة (اللوبي) لاتناول فنجان قهوتي..مقاعد مريحة انيقة وطاولات فوقها مزهريات بباقات ورد صغيرة .. عدد كبير من علية القوم في انتظار طائرتهم ..آخرون يسترخون مثلي وراء فنجان قهوة اوقدح بيرة مبردة .

.. المطعم مدخله من اللوبي ، قاعة البار وصالة الحفلات والرقص مدخلها من الجانب الاخر لّلوبي .
قدمت في احدى الليالي بدعوة من الصديق علي ناصر وزوجته (وهو نحات وصاحب محل للموبيليات) الى صالة البار والمرقص والتي لايسمح للعازبين دخولها دون رفقة عائلية .
لقد كانت ليلة من ليالي العمر السارة ..
..قاعة المرقص بمقصورات جانبية لجلوس العوائل ..انارة القاعة خافتة يضفي عزف البيانو عليها شاعرية مضاعفة ..بار كبير جميل في صدر القاعة جلس فوق مقاعده العالية ازواج من البصريين والاجانب .
.. في التاسعة حضرت الفرقة الموسيقية ، وبدأت في عزف الحانها الراقصة الهادئة ..الفوكستروت ، فالس بوسطن ، التانجو .. بعد نصف ساعة قام زوج من الراقصين ، سرعان ما التحق بهم ازواج آخرون ..
..رقص علي وزوجته .. شجعني لاطلب يد آنسة من الجالسات للرقص .. نهضت وتقدمت الى احدى الجالسات مع عائلة طبيب اخصائي في مستشفانا .. لم تعتذر ..نهضت واخذنا نرقص على الانغام الهادئة ..حادثتها اثناء الحركات الهادئة عن مواضيع خفيفة عامة .. رافقتها ونحن نعود الى مقصورة عائلتها وانحنيت شاكرا ..
كنت وكأني في قاعة رقص راقية في لندن او براغ !
"..لا تعجب يا هذا أنت في جمهورية البصرة المتحضرة "
.. الوقت قد قارب الغروب .. اغادر لاعبر ساحة الفندق الى جسر خشبي جميل على تفرع غير كبير لشط العرب ..اقف متكئا عل سياجه ارقب شباك قوارب الصيادين المرفوعة ، المتلامعة باصداف مئات اسماك الصبور العالقة بها ..كثير منها يعكس الوان قوس قزح من حزم الشمس الغاربة الساقطة فوقها ..بضع عشرات من سمك الزبيدي والشانك النهري تعلق بالشباك .
.. اتجول في حدائق جزيرة السندباد المزدانة بالاشجار النادرة وساحات الورود الدائرية .. أناس كثيرون يتنزهون ومن مختلف الطبقات بمختلف الازياء ..عوائل يفترشون عشب الحدائق وامامهم زادهم البسيط .. اطفال يسرحون متراكضين هنا وهناك او معلقين على اراجيح ومنزلقات ودوارات ساحة العاب الاطفال .
.. ازواج من شباب وشابات يتهامسون وهم في جلسة منعزلة في هذا الركن او ذاك من ضفاف الجزيرة .. من حافة الجزيرة ارقب الضفة الشرقية للنهر الوسيع بغابات النخيل والبيوتات الطينية الصغيرة بينها وبعض بيوت حديثة البناء .. اظل سارحا بمنظر الغروب يداعب برقة معالمها البعيدة .. أتذكر فجأة انني على موعد هام .
..الجمعة هذه هي يومي في القيادة .. أنا اليوم قائد لمجموعتنا من الاطباء المقيمين .
..كل اسبوع وفي عطلة الجمعة هنالك قائد يتحكم دون معارضة او نقاش بافراد المجموعة التي يرأسها ، يقودها حيثما شاء ، حتى الى دروب الجحيم .
..نعمان كان هو القائد الديكتاتور في الاسبوع الماضي ..لم يسمح لي باية كلمة اعتراض ، حين اقترحت ان ندخل سينما الحمراء لنشاهد فلم (نداء الطبيعة)
Cry Of The Wild

-لكنها قصة عن حياة كلب للكاتب العظيم جاك لندن يا نعمان..
-لاكلب ولا بزونة ..سنشاهد فلما للكاوبوي ونخرج من السينما وقد ملئنا اكياسا من الرصاص ..(رنغو لا يتفاهم) هو فلم سينما الرشيد الذي سنراه .
.. بعدها قادنا الى نادي الرازي الفخم لتناول العشاء ..لا عرق يقدم هناك! .
اسبوع (عاطف) كان في نادي الجامعة ثم في مطعم علي بابا الراقي في شارع الوطن.
خرجتُ بالمجموعة من دار المقيمين ..الانفار تحت قيادتي هم ، نعمان المتأنق المتعطر ،عاطف الارستقراطي الرقيق ، عبد المطلب المواضب على مواعيد صلاته رغم أنّـا قد قدناه الى دروب البوكر بكل انواعه ، المستور والمكشوف والهاري كاري (ظل لا يقرب الخمرة لسنين طويلة من معرفتي به ..فهي لديه (المنكر ! الحقيقي) ..البوكر ليس منكر جداً .
اوقفت عربة حنطور تعمدت ان تكون متداعية وطلبت من الحوذي ان يتوجه بنا الى ساحة أم البروم ، اكثر ساحة شعبية في البصرة ..انظار السابلة ترنو الى الافندية المتأنقين ..البعض يعرفنا حق المعرفة من خلال عملنا في خفارات العيادة الخارجية وواجباتنا في الردهات ..اوقفت العربة .
..نحن على الرصيف أمام خمارة صغيرة في أم البروم ، جدرانها الخارجية من الكارتون المقوى ، تفتقر الى اي نافذة و بباب من (الجينكو) المصدأ .
..لم يصدقوا اعينهم حين فتحت باب الخمارة الحقيرة داعيا اياهم للدخول ..جمد نعمان في مكانه من الرصيف .. تراجع عاطف الى الوراء قليلا .. احنى عبد المطلب رأسه وابتسم..
-اسمعوا لقد اقسمنا جميعا ، ووعدنا بعضنا الآخر بكلمة الشرف أن لا نعصى أمر القائد الاسبوعي ، " ..حتى لو قادنا الى الجحيم " ، اليس هذا ما اتفقنا عليه ومارسناه في الاسابيع الفائتة .. تنزهتم بنا نزهة الاكابر ..اليوم سنتنزه نزهة البسطاء من الناس.
-أنا ادخل وامري الى الله ..قالها عبد المطلب وتقدم .
..تململ نعمان قليلا ثم تقدم هو الآخر .. لم يجد عاطف مناصا من الانصياع فدخل وقد زاد وجهه الابيض المحمر احمرارا ..
.. اتسعت اعين الصاحين وانصاف السكارى من الجالسين وهم يرون الافندية المتأنقين النظاف تقتحم عليهم خصوصيتهم ..
عشرة موائد خشبية متأرجحة يجلس وراءها عمال ببدلات زرقاء ورجال بناطلهم وقمصانهم مغطاة بسخام وشحوم السيارات ، ريفيون بملابس عتيقة وغتر حائلة .
..أختار طاولة شاغرة ..الكراسي الاربعة الحديدية قديمة تقشرصباغها .. على الطاولة المشققة اربعة صحون قصديرية ثبتت بمسامير من وسطها الى خشب الطاولة .
-مسّـاكم الله بالخير ..الله بالخير ..الله بالخير ..تتقاطر تمسّيات الله بالخير من كل فرد بالخمارة ..يرفع البعض كؤوسهم صوبناأثناء القاء التحية .
..ياتي صاحب الخمارة مسرعا ليمسح الطاولة والصحون بمنشفة صغيرة يضعها فوق كتفه .
-اهلا ومرحبا ..شِـ يأمرون الباشاوات ..

أنظر الى مجموعتي متسائلا ..
-واحد فريدة .. قال عاطف
-وانا كذلك .. عقّب نعمان
-وأنا كذلك .. قلتها تضامنا ..
..يصمت عبد المطلب فيسأله الخمار
-الباشا شيشرب؟
-واحد كولا !.. يحاول صاحب الخمارة أن يقول شيئا فابادره راجيا أن يجلبها من اي محل مجاور .
.. يأتي صانع الخمارة بدلو صفيحي كبير مملوء بالسلاطة ..يغرف بكفه حفنة كبيرة ويضعها في كل صحن امامنا .
يعود الضجيج والصخب الى الشاربين ..أحدهم يرفع صوته بعتابة لحضيري ابو عزيز ..آخر وفي الوقت نفسه يرددموالاً للـ(المنكوب) مغني الهور الشهير ..
سرعان ما خرج عاطف من صمته وهو يراقب هذا العالم الغريب عليه ..نعمان بدأ بسرد نكاته فضحك الجميع ..عبد المطلب الصموت تابع المشهد والأحاديث بكل جوارحه ..نرفع كؤوسنا بين الحين والاخر لنرد بها على كؤوس صحبنا السكارى المرفوعة ..نبادر نحن فنرفع اقداحنا تحية لهم .
..نخرج ضاحكين ، عاطف اصبح وجهه قطعة من الشوندر المطبوخ ..
اعبر بهم الساحة التي ازدانت بالمصابيح الملونة وبهرة اللوكسات المعلقة على مناقل الكبدة المشوية (الفشافيش) وعربات قدورشوربة العدس والباقلاء المنقوعة والسمبوسة واللبلبي ..
..سينما الحمراء الصيفي (القديمة) تقدم فلمان في عرض واحد ..احاول ان اشتري من شباك الاربعين فلسا ..ينظر اليّ عاطف معاتبا ومتوسلا ..اتحول الى شباك السبعين فلسا ..كنا قد لحقنا على النصف الاخير من الفلم الثاني (المهراجا الظالم) ..بين الحين والآخر ترتفع الشتائم وصيحات الاستنكار و عفاط(زيكَـأت) المشاهدين وخصوصا من مقاعد الاربعين على مظالم المهراجا العجوز الاشوه الذي يختطف حبيبة (البطل) مهاندرا ، الشاب الوسيم الذي يغني بين الحين والآخر شوقا الى حبيبته جاندرا..
..نشترك وبحمية في الصراخ والشتائم .. لانعرف للاسف كيف نطلق (زيكَـاتنا) ..نعمان يجيد صفير الاستهجان احسن منا جميعا ..
نقف مع الواقفين ونصفق بحماس ونصرخ مشجعين (البطل) مهاندرا حين يفلت من قلعة سجن المهراجا الحصينة ويفتح الابواب للسجناء المظلومين ويتقدمهم ليلحق فيخلص والده من تحت اقدام فيلة المهراجا ويقتحم مخدع المهراجا الذي يحاول ان يغتصب حبيبته جاندرا ، وبعد سجال بالسيوف يدفع به المهراجا حتى اعلى القلعة ويطعنه فيسقط من شاهق الى الساحة الحجرية المحتشدة بانصار البطل مهاندرا .
..نقفز مع عشرات المشاهدين الصاخبين القافزين فرحا .
..تبدء الحشود الهندية بالرقص بملابسها الفضفاضة البراقة وتنثر مساحيق باهرة الالوان في الفضاء فيغطي ساحة السينما كلها بين غناء مهاندرا وجاندرا المتعانقين ..

.. يخرج الجميع وهم سعداء فرحون يتناقلون فيما بينهم مآثر بطولات مهاندرا ..
انا وافراد مجموعتي فرحون ايضا ..
اقودهم فاعبر الساحة الى زقاق سوق المطاعم .. اختار مكانا في دكان الكوارع (الباجة) ..أطلب رأس خروف كاملا ..يهشمه صاحب المحل .. اغرف باصابعي اجزاءه واضعها في صحن ثريد كل منهم ..ابدء بعاطف(الاحمر) ..يعود قليلا الى الخلف حين اضع عين اقتلعتها من محجرها ..يصبح وجهه شوندريا ..الجوع غلاب ..يشارك في الاكل بحمية .
انهي جولتي القيادية بأن اجلسهم على صفائح الجايجي في الساحة ..قرب بائع الفشافيش ..نشرب بضعة اقداح من الشاي .
أرأف بهم فنعود بسيارة اجرة بدلا من الحنطور .

وصلتني رسالة من صديق مقيم في الكويت ومعها حوالة بريدية بمبلغ كبير ، يرجوني فيها أن اشتري له بستانا في البصرة للنزهة قبل التجارة يخبرني فيها ايضا ان البستان سيكون في عهدتي ومتعتي ، حتى عودته الى العراق .
لم أُضع وقتا ، فقد طلب مني شيئا طالما تقت اليه ،التجول في بساتين البصرة ولهدف رومانسي جميل .
راجعت بضعة دلالين للعقار والبساتين ، فلم أجد لديهم بغيتي ..قررت أن اتوكل على الله وابدأ المهمة بنفسي .
بدأت بـ(السيد) وبستانه على نهر الخورة القريب ..كنت قد اسعفته وزوجته في المستشفى قبل حين .
.. البستان يقع في منعطف من البراضعية ، عند مدخل الطريق المتعرج الى ابي الخصيب .
قطعت المسافة على قدميّ ، عابرا نهر الخورة فوق جسر البراضعية عند نهاية كورنيش شط العرب .
انعطفت يمينا في مدخل لبساتين نخيل غير معتنى بها ..اصل بعد خطوات الى صرح قد بني بآجرطيني ، تعلوه قبة ضريح تهفّ فوقها سعفات النخيل المجاور ..سوره الامامي ترك القدم فيه ثغرات كبيرة .. أدخل عبر باب من خشب اسود متداع الى ساحة رملية ترابية واسعة ..اجتازها الى مدخل غرفة كبيرة نصف مظلمة يتوسطها ضريح يغطيه قماش حريري أخضر ..بقايا شموع على حواشي الضريح ..لطخات اكف من الحناء مختلفة التقادم .
.. إنه مقام خليفة بن علي .
(رغم بعثات وزارة الاعلام للتقصي ، لم تعرف هوية الراقد في هذا الضريح الرومانسي)
..ادخل بستان السيد واجتاز السواقي العديدة فوق جسيرات جذوع النخيل .. اصل الى ضفة نهر الخورة ..مجاميع من البش والبط تسبح في النهر المظلل بالاشجار ..مجاميع اخرى منها تسرح مع الدجاج والديكة على ارضية البستان ..اسمع صوت السيد :

-يا اهلا وسهلا دختور .
وانا احتسي الشاي واتناول تمرات من صينية وضعة أمامي ، اطرح عليه مشروع شراء بستان ..
.. يضرب بكفيه ويهز رأسه أسفا ، فقد بيع البستان المجاور المشرف على شارع الفراهيدي من الضفة الاخرى قبل اسابيع لاغير .
أغادره .. اوقف سيارة عبرية (كوستر) متجهة الى أبي الخصيب ..أجلس في مقعد شاغر في صدر السيارة ..يبدأ الطريق المظلل بالاشجاريتعرج ..تتبدل صور البساتين بتبدل اشجارها المثمرة ..على حاشيتي الطريق اشجار موردة ..ألوان البساتين وثمارها العالقة واوراد حاشيتي الطريق تجعلني أتوه عن مقصدي في البحث والسؤال .. اتنبه فأسأل السائق الى جواري عن اسماء المناطق والبساتين ومالكيها ممن يعرفهم ..يجيبني عن بعض اسئلتي ..أعبر جسر نهر السراجي الخشبي القديم ..وجسر مهيجران الذي تغطي اجزاء من سقفه قضبان خشبية ..النهر واسع والبساتين على ضفتيه تبهر الناظر باشجار المانغو وزينتها من الثمار الكبيرة الصفراء والبرتقالية والخضراء المصفرة المخترقة لخضرة الاوراق الشمعية السطوح ..اشجار الحمضيات تتلامع باوراقها من بين غابات النخيل ..لم يدّب الاصفرار بعد الى ثمارها المعلقة ..طيور مختلفة تسبح فوق صفحة النهر .
.. اطلب من السائق التوقف عند مدخل ممر ترابي على يسار الطريق .. اتوقع انه لابد سيفضي الى ضفاف شط العرب .
.. على الجانبين من الممر اسيجة طينية عالية .. ابواب البساتين مغلقة .. اطرق البعض منها فلا من مجيب ..تلوح لي مياه شط العرب ..هنالك قصر مشرف على النهر ..اصل الى منحدر الضفة ..اطرق باب بستان القصر ..أتنفس الصعداء ، هنالك من يجيب على الطرق ..
يفتح بوابة البستان رجل عجوز بملابس فلاحية ..احييه واعرّف نفسي .. ادخل البستان واتوقف بعد مسافة قصيرة .. اسال الرجل العجوز عن معرفته لبستان يباع في منطقة قريبة .. اعرف منه أنه فلاح قديم في المنطقة وحارس في السنين الاخيرة لقصر الكويتي الذي يقدم في فترات من السنة هو ، او هو وعائلته للاستجمام ..يسالني عن المبلغ الذي اريد وضعه للشراء ..حين يعرف بمقداره يخبرني أنني لن أجد على المناطق القريبة من النهر العظيم بستانا بهذا المبلغ حتى لو كان صغيرا ..يدعوني لقدح من الشاي ..أعتذر شاكرا واعود الى طريق السيارات .. أستقل كوسترا آخر متجها الى ابي الخصيب ..
..اعبر نهر عويسيان ....اعبر نهر حمدان الواسع .. جمال الجسور الخشبية والنهر والبساتين على الضفتين لا يقل روعة عما مررت عليه .. اطلب من السائق التوقف .
.. اجوس في الممرات الترابية المتعرجة يمين الشارع (بعيدا عن شط العرب) ..اعبر جداول وانهرا صغيرة ، جسورها من جذوع النخيل المربوطة احيانا الى جذوع اشجار اخرى ..أجد بضعة بيوتات طينية وسط بساتين صغيرة جداً ..أسأل رجلا في الاربعينات ، صاحب عربة حمل خشبية بحصان سمين ، يقف عند بوابة احد البيوتات ..يجيبني بأنه يعرف انه هنالك بساتين تباع في المنطقة ، لكنه لا يعرف

من يملكها ..يطلعني بأنه يستأجر قطعة البستان الصغير هذا حيث أقام بيته الطيني ، وانه يجمع ما ييسره الله من نقله الاحمال في البساتين لعله يوفر المبلغ الذي يطلبه صاحب الارض .. يدعوني للدخول لبيته الطيني الصغير على قدح من الشاي او كأس من اللبن ..اشكره واعتذر .. (بعد سنتين يصبح حمدان ذو عربة النقل الخشبية صاحبي ..بيته الطيني الصغير غير بعيد عن بستان صديقي ..ادخل داره في وليمة محدودة يقيمها بمناسبة تحقيق حلمه وشراءه بستانه الصغير ..ادخله مرة اخرى بعدها بعامين آخريين معزيا زوجته بوفاته المفاجئة) .

.. اعود الى طريق السيارات ..أصل الى ابي الخصيب .

.. بعد أن اتجول في المدينة الهادئة الصغيرة ..معظم بيوتها متوضعة في بساتين صغيرة وكبيرة ، أو على جداول وقنوات ..كل بستان فيها لابد أن يكون فيه كوخ صغير للضيوف وجلسات الشاي في المساء و السمر وشرب الراح في الليل .

.. وانا استرخي على ضفة الركن ما بين شط العرب ونهر ابي الخصيب ، وقد بدأت احس ببعض الجوع ، تذكرت صديقي الدكتور محمد صالح سميسم رفيقي في سجن بغداد المركزي في مطلع الخمسينات ..هو الآن طبيب قرى وارياف في السيبة غير البعيدة عني ..اتوجه الى مرسى القوارب ..اصعد الى (ماطور) قارب بمحرك ..اطلب منه الاتجاه بي الى السيبة .

المسلك المائي يستغرق حوالي الساعتين ..استلقي فيها على الفراش المريح في آخر القارب واتابع بجذل غابات النخيل وبساتين شط العرب من الجانبين ..

..نقترب –حيث ينشطر شط العرب الى شقين- من جزيرة عامرة بالنخيل واشجار فاكهة ..يجيبني النوتي بانها جزيرة أم الخنازير ..على اليسار مدينة المحمرة الايرانية وميناءها الواقع على ملتقى نهر كارون بشط العرب .. على اليمين بساتين عراقية تمتد حتى الفاو ..

..نمخر الشق الايمن من النهر الكبير ..بعد فترة ليست طويلة يشير النوتي الى بساتين وقرية صغيرة :

-هذه هي المطوّعة ..وهذه بساتين الدكتور طلعت الخضيري .. نتجاوزها لنصل بعد اقل من نصف ساعة الى السيبة ..يرسو قرب مبنى صغير من الطابوق :

- ها قد وصلنا ..وهذه هي العيادة الطبية .

ارتقي سلالم من أحجار مكسرة .. باب العيادة مفتوح ..أطل على الشاب الاسمر الطويل الجالس وراء طاولة معدنية خضراء يقرأ في كتاب أمامه ..يرفع رأسه وتلوح على وجهة وشفتيه ابتسامة ترحيب .. يعانقني بحرارة .

بعد اسئلة وحوار سريعين يسالني :

-شاي ؟، قهوة؟ او بارد ؟

-لا هذا ولا ذاك ..أنا جوعان يا صاحبي .

ينادي صادق ، معين العيادة ..

-إعبر لذاك الصوب !.. كباب ، شوية خضرة ، فاكهة ، وبالطبع بطل عرق !..،

يتوجه اليّ متابعا ..صادق هذا، معين وبلام العيادة .

.. نجلس ليلا على مقدمة العيادة ..تحتنا النهر المتلامع بأعمدة رجراجة متقطعة طولية هي انعكاس لأضوية معامل تكرير عبادان وصهاريج نفطها الضخمة .. تستمر جلستنا حتى ساعة متأخرة نستعيد فيها الذكريات ونحلم بمشاريع قادمة .

بعد ايام من البحث غير المجدي ، اتذكر موزان (ربيب الردهة المزواج) ودعوته لي الى بساتينه وبيته في (البوارين) ..
.. اركب العبارة من ضفة الكورنيش ..تنقلني الى التنومة ..استقل سيارة أجرة (تورن) واطلب منه التوجه بي الى البوارين .
..نسير بمحاذات (نفق) نهر الصالحية .. الاشجار من على ضفتيه تلتقي لتشكل بأغصانها واوراقها سقفا ظليلا للنهر، نفق مائي مشجّر .. نجتاز قصرا للدكتور الشمخاني على ضفته الشمالية ..بعدها ببضع مئات من الامتار اشاهد بيتا متواضعا على ضفته الجنوبية ..إنه بيت عبد القادر باش اعيان (..تحكي الرواية : أن العائلة المالكة الهاربة من حركة رشيد عالي في مطلع الاربعينات ، لجأت الى حمى هذا البيت واصحابه..رتب عبد القادر باش اعيان انتقالهم الى المحمرة ليستقلوا طرادا انكليزيا أُرسل لانقاذهم) .
..ننحرف عن النهر باتجاه الدعيج ذات البساتين العامرة الغناء (اجتث السيد الرئيس حفظه الله ، في الثمانينات معظمها ، إجتثاثا تاما وسوى اراضيها ..قطّع هامات ما بقي من نخيلها الباسق .. " خلوها ساحات فارغة نِتْكاوَنْ بيها جَيفْ ما نْريد ! ") .
.. على اليسار طريق الشلامجة (البوابة الحدودية) ..ننعطف يمينا ونسير فوق سد ترابي .. على يميني شريط ضيق من البساتين المطلة على شط العرب ..على يساري نهير غير عميق تجلس على ضفتيه نسوة يغسلن صحونا وثيابا واطفالا ويتبادلن الحديث والضحكات وصرخات التنادي على اطفالهن ..بضعة ابقار تعبر من هذا الجانب الى ذاك ..
-هذا النهير الصغير بين البوارين والجهة الاخرى هو الخط الحدودي مابيننا وبين ايران .. يعلق السائق .
..السائق يعتذر عن مواصلة السير اكثر لضيق السد الترابي .
..أسأل إمرأة من الجالسات على الضفة عن بساتين موزان ..تنهض وتشير الى بستان غير بعيد .
..يستقبلني موزان بالاحضان ..لا يزال على مرحه ولا يزال شعره الاسود السبل المدهون بالزيوت مفروقا من منتصف راسه لينسدل على منتصف أذنيه .
..يدور بي في بستانه الرئيسي حيث بيته الطيني الواسع .. بط ودجاج وبش وديكة وأطفال ونساء ينتشرون .. كلٌ في مهمة خاصة به في ارجاء البستان .
.. على الغداء الذي يُحضّر على عجل ، والحاوي على الدجاج والاسماك وانواع الادام والرز ، تدخل بين الحين والاخر إمرأة تضع صحن تمر .. اخرى تضع دورقا لّلبن ..ثالثة لسفط الخبز (رغم وجود خبز كاف) .. الرابعة وهي اصغرهن سنا تأتي بصحن من الحلوى ..
"..موزان يستعرض جوقة زوجاته ممن على ذمته ".

حين اطلعته على نيتي في شراء بستان اهتز جذلا وهو يخبرني بأن البستان جاهز .." هنا بجواري " وهو احد بساتينه ، وانه مستعد لبيعه بالسعر الذي يناسبني .
شكرته كثيرا واخبرته انني لم أكن اعلم أن البوارين على مثل هذه المسافة عن العشار ، واننا قاب قوسين من المحمرة ، وأن صاحبي يرغب في أن لاتكون بعيدة عن مركز المدينة في البصرة .. واضفت :
-آسف يا صديقي موزان ، فانا أدري أن حكمتك تقول " عروس ريانة تطوّل العمر أحسن من بستان بنخل يابس من خشب " ..آسف انني لن استطيع تسهيل أمر زواج جديد لك .
.. حين غادرته في اليوم التالي كنت محملاً بعثوق التمر والحصران الملونة .

بعد يومين قصدت بستان فرج ، الاعمى ، البصير بالمعنيين ، (الاصح بستان وقصر الفليج ، الذي يعمل فرج على رعايته) ..لم تكن هذه زيارتي الاولى لفرج ، فكنت أجيء اليه من حين لآخر لاجلس على منصة للقصر تشرف على شط العرب ومعي سناراتي وخيوطي والثقالات وطعم الاسماك .. أنا مولع بصيد السمك .. دائما يستقبلني بترحاب شديد ..يسارع فيتراكض دون عصى للعميان تساعده ، حاملا حصيرة يفرشها ، او زيرا من الماء يضعه على المرفع القريب ، او صينية الشاي والتمر واللبن . لا اعرف والى يومنا هذا كيف يستطيع التقافز على الجداول الصغيرة والتعرج بين قامات جذوع النخيل للوصول اليّ ، خصوصا حين يجتاز ممرا ضيقا يفصل بين جدار البيت والجدول العميق المتفرع من شط العرب ..أنا نفسي ،ببصري الحديد ، أكثر حرصا وتوجسا في اجتياز هذا الممر الى المنصة التي اجلس عليها للصيد .. ثم الاعجب أنه الوحيد في رعاية البستان والقصر ..كيف يتسلق النخل ويلقحه بغبار الطلع ، كيف يغبّره ، كيف يلم عثوقه ، كيف يسعّفه ، كيف يكرّبه ، وكيف يجني ثماره ؟؟!!.
..دققت البوابة الخشبية بقبضتي وصحت مناديا :
-فرج !
-نازِلكْ ركض دَختور ..
لمحته وهو ينزل كجرذ النخل من نخلة عالية ..اختفى ليظهر بعد اقل من دقيقة عند البوابة المشرعة
-كيف عرفت صوتي ونحن لم نر بعضا لاشهر؟
-صوتك ما يتوه عليّ لو بعد ميّة سنة .
قدمت له قنينةالعرق ، فاحنى راسه خجلا ..
-ليش زحّمتْ نفسك دكتور ..جَيتكْ هي هدية .. تقدمني وهو يواصل حديثه ..دقيقة واحضر لك كل شي على مكان كَـعِدتكْ .
شكرته واخبرته انني قد قصدته في مهمة قد يساعدني بها .. واخبرته قصة المبلغ المودع لدي والبستان الذي ابحث عنه .
-والله جَنكْ جَيتْ بوَكتكْ يا دختور ..اصبر عليّ شوي حته ابدّل وآجي وياك .

عاد بعد قليل بصاية وعباءة ونعل في قدميه ، وقادني عبر الدرب الترابي .. عبر الشارع .. دخل في دروب البساتين المتعرجة من الجهة الثانية من الشارع ..إلتف على درب آخر ..عبر قنطرة ..مشي عبر نخيل غير ذي سور او سياج .. عاد الى درب ترابي ضيق آخر ..انا اتبعه محاذرا في سيري من هذه القنطرة الضيقة او سعف نخلة قصيرة تعترضني.. وقف فجأة امام سياج غير مرتفع من الاسلاك الشائكة ..

-هذا هو طلبك دختور ..

.. أنظرُ الى بستان محيّر بجماله ..صفوف منظمة من النخيل تمتد مسافة غير قصيرة تتعلق على جذوعها عرائش (سوابيط) العنب المحملة بعناقيدها بكثافة ..اشجار رمان وجوافة هنا وهناك بين صفوف النخيل .

لم ينتظر سؤالي لكيفية دخول البستان ..توجه الى بوابة البستان المقابل على الدرب الترابي الضيق وصاح :

-ابو سليمة !! ..عيوني ابو سليمة !! جاييك ضيوفْ

..خرج ابوسليمة معفّرا بالطين والاتربة ، فقد كان يقوم بكراء جدول في بستانه ..طلب منه فرج أن يفتح بوابة البستان المعني ..دخل ابو سليمة معنا الى بستان الاعناب .

..النخل في احسن وضع ، أكثره نشوٌ ، قليل منه متقادم (عيطة) ..حلاوي ، اسود ، بريم ، خستاوي ، عددغير قليل من نخل البرحي الثمين ..كل اربعة صفوف من النخيل يعقبها جدول ..يبدو أن الجداول مكريّة حديثا ..الاعناب كلها من افخر الانواع .

مشينا على طول البستان .. صدر البستان يطل على نهير جميل مظلل بالاشجار

-هذا نهر الحنتوشية وهو فرع من حمدان ، قال ابوسليمة .

لم اصدق انني قد وقعت اخيرا على أكثر مما اريد .. سألت بلهفة لمن هذا البستان

-هذا البستان وعشرات البساتين جواره من الجانبين هي لفهد الراشد (اسم وكأني كنت اعرفه) ..هذه البساتين كلها معروضة للبيع ، حتى البستان المجاور الذي أعمل على رعايته ، وأدعو الله ان يمكنني من شراءه بعد حين .. فهد الراشد يقيم في الزبير

شكرت ابو سليمة كثيرا وعانقت فرج ..عدت معه وانا اطير فرحا ..ركبت الكوستر المتجه الى العشار ، ووددت لو ان لي جناحين اطير بهما الى الزبير .. الوقت متأخر على ذلك .

بعد أن تقصّيت عن الرجل من استاذي الدكتور مصطفى النعمة واعددت المبلغ المطلوب وهو اربعة ألاف دينار توجهت في اليوم التالي الى الزبير .

.. استقبلني أحد اولاده .. عرفته بنفسي واطلعته على مقصدي من زيارة والده ..تقدمني الى ديوانية بالغة السعة صفّت على جوانبها تخوت بفراش انيق ووسائد عديدة .. تقدمني مرحبا وطلب مني الجلوس ، فجلست على احد التخوت ..جلس الى جانبي مرحبا من جديد ومحدثا حديث الاستضافة المهذب .. اشار الى رجل يقف

قرب احد ابواب الديوانية بكوفية حمراء ..سارع الرجل الى القدوم بدلّة القهوة وفناجينها ..أستأذنني ابن الراشد للدخول واخبار الوالد عن قدومي .
.. عاد وجلس الى جانبي محاورا . تقدم الرجل الذي يقف جانبا بكوفيته الحمراء من جديد بدلة القهوة وفناجينها ..قدم لي فنجان آخر فارتشفته وهززته ، فتراجع الرجل الى مكانه من الباب .
..دخل رجل نحيف طويل القامة منتصبها ، بصاية وعباءة جز وعلى رأسه غترة بيضاء قد أُفت على طريقة اهل الزبير .. الوجه باسم وهو يتقدم صوبي ..قدرت عمره بما يفوق الثمانين .
نهضت عن مجلسي .. صافحني مرحبا وجلس الى جانبي .. وقف الابن الى جوارنا احتراما .
تقدم الرجل بالغترة الحمراء بدلة القهوة وفناجينها ..هززت الفنجان بعد ارتشافه .
.. اطلعته على نيتي في شراء بستانه .. عرّفته بموقع البستان المرغوب ..اشار الى ولده أن يخبر اخيه ليجلب خرائط بساتين المنطقة..حضر الابن الثاني .
..جلب الرجل بالغترة الحمراء ..صينية صغيرة وعليها قدح لبن وصحن من الرطب البرحي ووضعها أمامي .
..فرش الراشد الخرائط واشار الى موقع البستان المطلوب ..حاول مرة وثانية أن يجعل اختياري على قطعة مجاورة اخرى مبينا مزاياها وعيناه تلتمعان بلذة الدهاء والذكاء ..شكرته واصررت على بستاني المنشود .
-عيّنْ خيرْ..اللي تَبيهْ يا دكتور .. ما يْصِير خاطْرك إلا طيّبْ !
اشار فجُلب دفتر العقود .. وقعنا عقد الشراء الاولي ..
-عشرة بالمائة والباقي عند توقيع العقد النهائي !
اخرجت مظروفا ثخينا يحمل اربعة الاف دينار وسلمته الى احد ولديه .
-اربعة آلاف دينار !.
-اربعمائة هو المبلغ المطلوب الآن .. قال فهد الراشد موضحا ..
-بل المبلغ كله لوسمحت ..سيكون في حرز أمين اكثر مما لو كان عندي يا طويل العمر .
- اللي تَبيهْ يا دكتور .. شدّ على يدي مصافحا واستطرد ..شايفْ خير !
استأذنت بالخروج .
" اذا هذا هو فهد الراشد ..هذا الذي خرج واتباعه يهزجون على ظهور الجمال في العشرينات في تظاهرة ترحيب بالملك فيصل الاول حين قدم الى البصرة ".
(في الثمانينات فتح فهد الراشد واولاده هذه الديوانية الواسعة لتستقبل فلاحيه القدامى وعوائلهم ضيوفا ، حين طال القصف الايراني بساتينهم .. وضع لكل عائلة خيمة ، ووفّى ولفترة طويلة بكل ما تتطلبه الضيافة الكريمة)

تجوّلت في ازقة بيوتات الزبير الطينية الكبيرة الفريدة ببناءها وتعرجات ازقتها ، بحيث تسمح بشكل اكبر لنسمات الشمال .

..قصدت أسواق الزبير ، وهي دكاكين منفتحة على شوارع وساحات ترابية فسيحة (كل ما يتطلبه اهل البادية من فضاء ونور) .
..اشتريت هدايا الوداع ..عطر فيجي لنعيمة ، (كلوس) سجائر روثمان لمسعود معين الدار وقنينة وسكي لفرج .

نبذة عن المؤلف

-مواليد 1937
-طبيب اختصاصي في الاشعة التشخيصية
-عضو جمعية الفنانين العراقيين
-اقام وسشارك في العديد من المعارض داخل وخارج الوطن بدءاً من عام 1956
-الكتب المنشورة
- الولادة بلا ألم
-الرق الشعاعي القياسي في تشخيص العارض البطني الحاد
-الجواهري.. وعيٌ على ذكرياتي
- الضباب والغابة (مجموعة قصصية)

هذا الكتاب ليس كتابا في المذكرات فقط، نتعرف من خلاله على
الجواهري، ونجيب سرور، والبياتي، وجيلي عبد الرحمن، ورشيد
ياسين، ويوسف إدريس... وغيرهم. ولا كتابا في الرحلات حيث نتعرف من
خلال وقائعه وسرده على دمشق الخمسينات والقاهرة وموسكو
وغيرها من مدن العالم، إنما هو كتاب يبحث في هوامش التاريخ،
في البسيط والمهمل منه. في العامي والمركون والمبذول، ولكنه
يبزغ عبر نوع من السرد الكثيف إلى البحث في السرديات الكبرى
التي ظهرت في عصر هو أخطر عصر مر على العالم العربي والعالم
بأجمعه، إنه منتصف القرن الماضي الذي وصفه هوبزباوم بقرن الثورات.
ومن خلال هذه السرديات الصغرى نتعرف على سرديات كبرى
كانت مسؤولة عن خلق مسيرتنا التاريخية وتعثرها، بل هي التي
غذرت تجربة الشعر العربي الحديث، وأرخت للنضال السياسي في
لعالم العربي، وحققت أثر شيوعية الاتحاد السوفيتي، وشرق أوربا
ينا وقي ثقافتنا.
جملة واحدة: هذا الكتاب هو من أهم كتب المذكرات التي كتبت
للغة العربية، لا تكمن أهميته فقط بالمرحلة التي يتحدث عنها،
المدن التي يتناولها والأشخاص الذين صنعوا نسيجها، إنما لأنه
تاب على هامش التاريخ، هذا الهامش الذي لا يكون للتاريخ فيه
عنى من دونه. إنه لا يقتصر على وصف لحظات يمكن وصفها أنها
فصلية أو تاريخية أو درامية، إنما أهميته في تلك اللحظات التي
تتحم فيها التاريخ السيرة الذاتية، من دون أن تنشغل بالمؤلف
سه، فترسم صورة للذات مفتوحة على الإسطوري والمقدس كما
ي أغلب المذكرات، نما تغيب الشخصية لصالح التاريخ، وننسى
من الحقيقي أمام ظهور شخصيات نعرفها على الورق، ولكن لا
رف حياتها الشخصية ولا كيف تعيش وكيف تفكر.
ذه المذكرات الرائعة هي هدية الوقت والموهبة والتسامح الذي
صف به كاتبها.

علي بدر

9 781773 224350